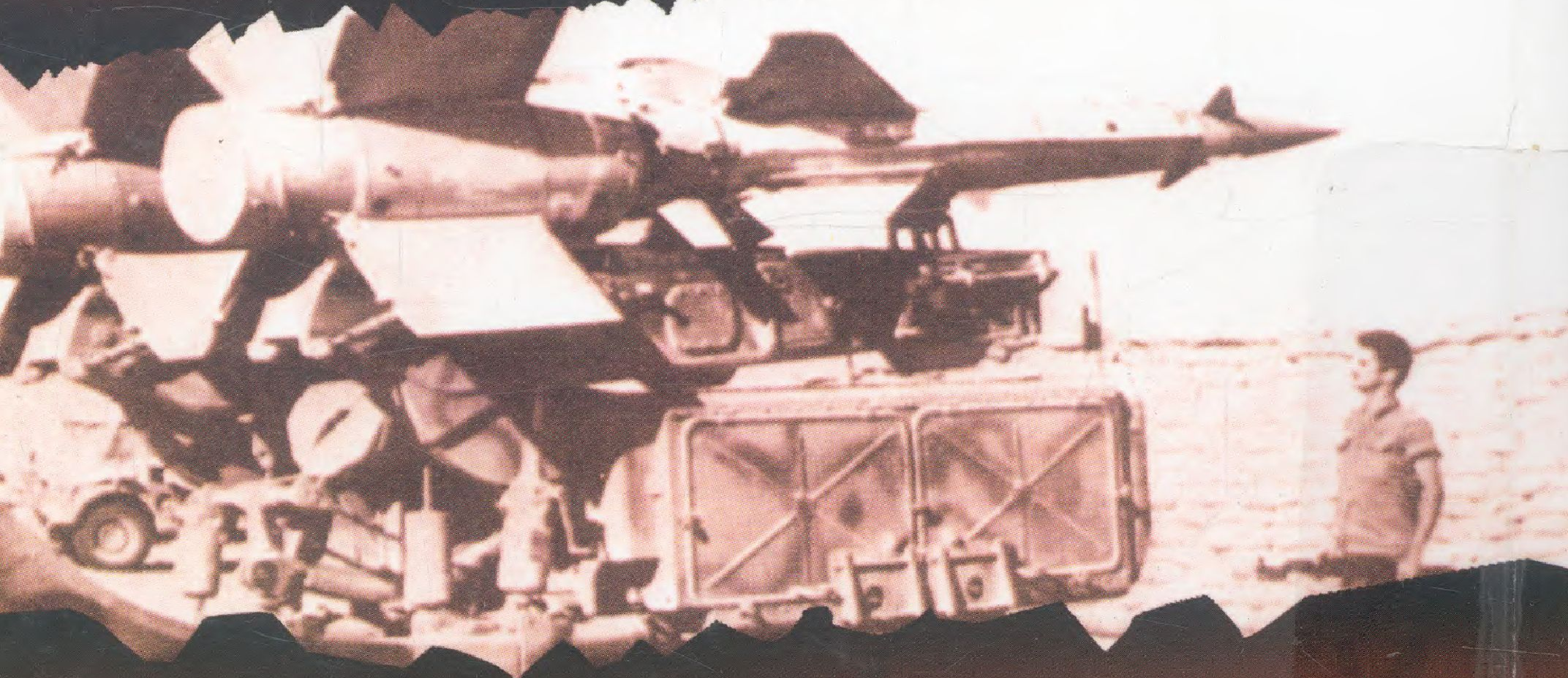
جيرهارد كو نتسلمان
ترجمة: د. خالد غادري

حرب الأيام المقدسة
المعركة تهدد إسرائيل



دار الفرقد
للطباعة والنشر والتوزيع

المعركة تهدد إسرائيل

حرب الأيام المقدسة

عنوان الكتاب : المعركة تهدد إسرائيل- حرب الأيام المقدسة
اسم المؤلف : جيرهارد كونتسلمان Gerhard Konzelmann
العنوان الأصلي للكتاب: Die Schlacht Um Israel
المترجم : الدكتور خالد غادري
الناشر : دار الفرقد
الطبعة الأولى : آب 2008

التنفيذ والإشراف : دار الفرقد
الإخراج الفني : رغداء حلوم
تصميم الغلاف : اسماعيل سويلم

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق
هاتف : 6618303 - 6660915 (00963-11)
ص . ب : 34312 فاكس: 6660915 (00963-11)
البريد الإلكتروني : info@alfarqad.com
الموقع على شبكة الإنترنت : http://www.alfarqad.com

جيرهارد كونتسلمان

المعركة تهدد إسرائيل

حرب الأيام المقدسة

ترجمة: د. خالد غادري

الإهداء

إلى كل قطرة دم عربية أريقت دفاعاً عن الوطن والشرف.
إلى شهداء أمتنا العربية الذين سقطوا في ساحات المعركة دفاعاً عن حق أمتهم في الحياة الحرة الكريمة. إلى الأبطال الذين سطروا بكفاحهم ملحمة تشرين. إلى القادة الذين خططوا وقادوا هذه الحرب المشرفة في تاريخ أمتنا الحاضر...
إلى هؤلاء الجبابرة الذين خاضوا غمار هذه الحرب من أفراد القوات العربية المسلحة. تحية الإجلال والتقدير.

فهرس

المقدمة

منذ قرون عدة وأمتنا العربية كانت ولا تزال هدف الهجمات الاستعمارية، انتصرت أحياناً عندما أتحدت كلمتها وهزمت في أكثر الأحيان وغلبت على أمرها عندما تفرقت إلى دويلات، ثم جاءت الهجمة الاستيطانية الصهيونية في وقت كانت فيه أوصال أمتنا مفككة تئن من مخلفات قرون عاشتها في الظلم والجهل ومع ذلك حاول شعبنا أن يتصدى لتلك الهجمة الاستيطانية الصهيونية وفي هذه الظروف القاسية فكانت هزيمة عام ١٩٤٨ وقيام دولة العصابات الصهيونية، ونتيجة لغضبة الوجدان العربي تغيرت أنظمة حكم وقامت ثورات وحدثت تغيرات في العديد من أقطار الوطن العربي.

لقد وعى شعبنا ومنذ بداية صراعه ضد الحركة الصهيونية أبعاد الخطر الذي يتهدده في كيانه ووجوده، وفي غمرة أحداث هذه المرحلة وصل إلى دفة السلطة في العديد من الأقطار العربية سياسيون دفعتهم مصالحهم الخاصة للتلاعب بعواطف شعبنا الطيب فوعدوه بالكثير ولم ينفذوا حتى القليل وكانت كلماتهم أكبر بكثير من أفعالهم ومستخدمين القضايا المصيرية لشعبنا وخاصة قضية فلسطين سلعة للمزايدات السياسية ورموا بشعبنا في دوامات صراعاتهم الجانبية من أجل الاحتفاظ بالسلطة. وكان على أمتنا في هذه المرحلة أن تخوض إلى جانب

الصراع ضد الأطماع الصهيونية صراعاً آخر في نفس الوقت ضد أوضاع اجتماعية واقتصادية مهترئة خلفها الاستعمار كنتيجة طبيعية وراءه في وطننا .

إن هذه العوامل مجتمعة أدت بنا إلى هزائم متكررة في صراعنا ضد الوجود الصهيوني في فلسطين إلى أن توجت تلك الهزائم بنكسة حزيران ١٩٦٧ والتي كسرت كبرياء الإنسان العربي وحطت من كرامته.

ولكن الإرادة العربية في رفض الظلم والدفاع عن الحق والكرامة عادت للساحة بتصميم وعزم أقوى وكانت حرب تشرين التي سيخلدها تاريخ أمتنا واستعاد المواطن العربي كرامته بعد أن قدم شعبنا العريق بأصالته الشهداء في ساحة الشرف والخلود .

إن هذه الحرب التحريرية كانت بظروفها ومراحلها ونتائجها حدثاً قومياً كبيراً وأملاً للشعب العربي من المحيط إلى الخليج في أن تكون ميلاداً لبعث الأمة العربية في التاريخ الحديث.

الدكتور خالد غادري

المؤلف جيرهارد كونتسلمان Gerhard konz elmann ولد عام ١٩٣٢ في شارع لبنان في مدينة شوتغارت، ودرس الآداب والتاريخ في جامعتي توبنجن الألمانية وبزنسون Besancon الفرنسية، في عام ١٩٥٦ بدأ عمله كمراسل صحفي في الإذاعة الجنوبية في ألمانيا حتى عام ١٩٦٧ حيث حلّ مكان والتر ميتشل Walter Mechtel المراسل للبرنامج الألماني الأول (ARD) في الشرق الأوسط — والذي قتل في اضطرابات عدن - ، كان مقره في مدينة بيروت إلا أنه تنقل في العالم العربي حيث كان دائماً وسط الأحداث، له أصدقاء كثيرون بين رجال السياسة العرب عامة وفي صفوف قادة المنظمات الفلسطينية خاصة. أنهى مهمته وعاد إلى ألمانيا في شهر آذار عام ١٩٧٤ ليتابع عمله في البرنامج التلفزيوني الأول وفي الإذاعة الجنوبية الغربية الألمانية.

مقدمة المؤلف

المفاجأة كانت كاملة، السوريون والمصريون ضللوا المخابرات الأمريكية. المخابرات الإسرائيلية نفسها فوجئت بالحرب. سعد الدين الشاذلي رئيس الأركان المصري هيأ الخطة بجدارة كاملة بجميع حذافيرها، أصعب عائق مائي للدبابات في العالم تم تخطيه والإسرائيليون يفاجأون بالضربة دون أن يكونوا متهيئين لها، كان جنودهم على الضفة الشرقية للقناة يحتفلون بعيد يوم الغفران (Kippur)، حينما بدأ المصريون بالهجوم بخدع وهدوء، بأساليب رومل وبوسائط عبقرية وبسيطة جداً في نفس الوقت. لكن أكبر عنصر مفاجأة في هذه الحرب كانت صواريخ أرض ـ جو السوفياتية.

في اليوم الثاني من الحرب يسود الأركان العامة الإسرائيلية جو من الكآبة (Depression)، السلاح الجوي الإسرائيلي "ذراع إسرائيل الطويل" لا يستطيع العمل في أجواء الجبهة إلا بخسارات كبرى، صواريخ سام المصرية كانت تجد وتصيب أهدافها اختصاصيو الإلكترونيك الإسرائيليون لم يكتشفوا سر الصواريخ، كبار الضابط الإسرائيليين المعتادين على النصر ينقلبون عصبيين، تنبؤاتهم بالهزيمة العربية العاجلة لم تتحقق.

المصريون يخسرون الحرب لأن عقلية وتقاليد الضباط كانت تربكهم بمواجهة حرب عصرية، الأنباء الغير سارة كانت لا تنقل إلى المسؤولين الأعلى

خوفاً من التوبيخ والعقاب، ودون أن تدري القيادة العسكرية المصرية العليا يتمكن الإسرائيليون من عبور القناة إلى الضفة الغربية إلى أفريقيا.

الأحداث توشك بوقوع كارثة في مصر لكن روسيا لا تتخلى عن صديقها أنور السادات. جولدامائير فوجئت أن الولايات المتحدة ما كانت على استعداد لتلبية كل الرغبات الإسرائيلية وبدأت تتساءل: هل يهددنا مصير كمصير فورموزا؟ هل يتخلى عنا نيكسون لأن شيوخ البترول يقومون بالتهديد؟

حرب البترول كانت فعالة وناجحة، الملوك والرؤساء والأمراء العرب يتطلعون بدهشة كيف أن التهديد وحده كان من شأنه ارتباك ونرفزة في أوربا إذ كانوا يتوقعون أن تقبل أوربا التهديد ببرودة دم. بعد التهديد التجريبي يبدأ وزراء البترول بدراسة خطط وتنفيذ المقاطعة ويصممون على الضغط في المستقبل على أوربا لتنفيذ رغباتهم، ويريدون من ألمانيا الغربية في وقت قريب أن تبيعهم دبابات (يوبارد).

حرب البترول تجبر إسرائيل على إعادة النظر بعلاقاتها مع الدول الصناعية، فصداقاتها السابقة لم تعد من الأمور المسلمة لأن الدول الصناعية البالغة التطور بأشد الحاجة إلى البترول عماد التقدم الاقتصادي لهو أكثر من علاقات قلبية مع إسرائيل، ومنذ حرب يوم الغفران لم تعد إسرائيل طفل العالم المدلل الذي يسامح ويتساهل معه دائماً.

الخلافات في صفوف كبار الضباط يقيد إسرائيل في تصرفها، وبدؤوا يوجهون لبعضهم البعض الشتائم والتهم بالفشل في الأيام الأولى للحرب، بعد معارك سيناء والجولان تبدأ المعارك الانتخابية وبعض كبار الضباط يديرون

ظهرهم للجيش لينخرطوا في صفوف المعارضة، وأهم ما تدور حوله الانتخابات كان موضوع التنازلات الإسرائيلية من الأراضي العربية وبددت الانتخابات الأمل الذي كان سائداً بالميل لقبول حلول الوسط.

السلام لابد له من الانتصار

المؤلف

"الحرب تهدد إسرائيل"
حرب الأيام المقدسة

الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة تبدأ يوم ٦ تشرين الأول ١٩٧٣ في وقت يسود فيه كل من البلاد العربية وإسرائيل جو عيد وأيام مقدسة، عيد الغفران في إسرائيل وشهر رمضان المحرم في البلاد العربية. في ٦ تشرين الأول وفي الساعة الثانية بعد الظهر تنفجر عبوتان هائلتان من الديناميت على الضفة الشرقية لقناة السويس كان قد أحضرها رجال الضفادع المصريون في الليلة السابقة تحت ظلام الليل دون أن يكتشف العدو أمرهم ووضعوها في الحواجز الإسرائيلية الضخمة من الرمل والتي يبلغ علوها عشرين متراً، شاهدت هذه الحواجز عدة مرات من الضفة الغربية، من منطقة المراقبة المصرية قرب الإسماعيلية وهذه الحواجز الهائلة العالية كانت ترمي إلى إحالة الإنزال في الضفة الشرقية، وفي المستوى السطحي بين تلك الحواجز والماء أسلاك شائكة وألغام تحول دون الوصول إلى هذه الجبال الرملية الهائلة، ولكن هذه الانفجارات تحدث فيها ثغرتان كبيرتان، في نفس الوقت يتقدم حوالي مئة جندي مصري في قوارب صغيرة من المطاط مزودة بمحركات خارجية بسيطة التركيب، يحتل الجنود

وبسرعة الثغرات التي أحدثتها الانفجارات ويبدؤون حالاً بحفر الخنادق. عند الغباسات في الجبهة الجنوبية للقناة تعلو أصوات خمسين طائرة هيلوكبتر ضخمة روسية الصنع من موديل (مي ـ ٨) تقطع الحاجز المائي كل منها محملة بـ ٣٨ جندياً ومن ارتفاع ثلاثة أمتار يقذف أوائل الجنود أنفسهم من الطائرات التي تعود بعد دقيقتين للضفة الغربية للقناة لتحضر جنوداً آخرين. الجنود المصريون يقتحمون حالاً التحصينات الإسرائيلية بقاذفات اللهب والمتفجرات، في هذه المنطقة أقام الإسرائيليون شبكة من الخنادق المعقدة والتي تحمي جدرانها أكياس من الرمل ولم يوفر الإسرائيليون في إحاطة هذه الخنادق من الأسلاك الشائكة والألغام بحيث يشكل ذلك عقبة صعبة وحماية منيعة لهذه الخنادق، الجنود المصريون المتقدمون يحدثون في هذا النظام ممرات ضيقة ولهذه المفاجأة المصرية كانت المقاومة الإسرائيلية في هذه الخنادق ضعيفة ـ ويتضح أن المواقع الإسرائيلية عند القناة تحمي المعتصمين بها من المدفعية المصرية والغارات الجوية لكن هذا النظام أثبت أخيراً عدم جدواه كنظام دفاعي.

المصريون المهاجمون يقفون فجأة على أطراف الخنادق أمام الإسرائيليين في جو من فوضى الانفجارات والصراخ وسحب من النار منبعثة من قاذفات اللهب تحرق الجنود الإسرائيليين.

المصريون يتقدمون في الخنادق ويكسرون المقاومة الإسرائيلية بالسلاح المضاد للدبابات وبقاذفات اللهب، والإسرائيليون الحائرون لا يجدون فرصة أمامهم لإطلاق النار ـ المصريون يبدؤون هذه الحرب بتحضير وتسليح وتنظيم كامل وأثبتوا أنهم لقادرون على التغلب على خط بارليف ـ وفي هذا الهجوم الاقتحامي

تقدم الضباط جنودهم وجميعهم من اللواء إلى الجندي لديهم الأوامر أن يصلوا إلى الضفة الشرقية للقناة خلال ربع ساعة من بدء الاقتحام. ويقطع المصريون قناة السويس في خمس نقاط، عند القنطرة، والفردان، والإسماعيلية، والبحيرات المرة، وفي الشمال من القناة. لأن هذه المناطق وحدها التي تمكن من الاقتحام والصالحة للإنزال. من بور سعيد حتى القنطرة تكون المياه فائضة دائماً في هذه المنطقة من القناة ومن الكيلو متر ٧٥ حتى ٨٥ مستنقعات ومن الكيلو ٩٨ ـ ١١٤ تمتد البحيرات المرة الصغيرة والكبيرة ويبلغ طول القناة ١٧١ كم. عند المناطق التي جرى فيها الإنزال يستمر قذف المدفعية المصرية الهائل منذ الساعة الثانية، حوالي ١٦٥٠ مدفعاً تطلق نيران قذائفها من عيار ١٥,٢ حتى ٢٠,٢ سم والتي تحدث دوامات هائلة في الرمل في الضفة الشرقية وفي هذا النهار لا يتحرك النسيم في الصحراء والأغبرة الرملية الهائلة هذه تبقى في الجو لتشكل بعد دقائق قصيرة جداراً من التمويه بحيث أن جنود المدفعية الإسرائيلية لا يستطيعون مشاهدة هدفهم وقذائفهم لا تصيب إصابات مباشرة.

بينما المصريون تهيئ لهم الأغبرة الرملية حاجزاً تمويهياً تجاه العدو. في الدقائق الأولى من الحرب يستعمل المصريون دبابات برمائية خفيفة من موديل ٧٦ ـ Pt عند الإسماعيلية الشلوفة، القوبذ، وتحتاج الدبابة البرومائية لعبور القناة في هذه المنطقة التي يبلغ عرضها ١٢٠ متراً حوالي دقيقتين وهذه السرعة يضمنها للدبابات البرمائية التي تزن الواحدة منها (١٤) طناً موتورات دفع الماء خلفية ولم يمول الروس المصريين بهذه الدبابات عن طيب خاطر إذ اقتصر التسليح الروسي للمصريين ولمدة طويلة على أسلحة دفاعية، أما هذه الدبابة Pt

76 – فقد كانت سلاحاً مثالياً لبدء الهجوم في قناة السويس وميزاتها أنها سريعة الحركة وحتى إذا لم يستو سطح الأرض عند خروجها من الماء .

وتقتحم الدبابات الحواجز الرملية لتقدم المساعدة لأول مئة من الجنود المصريين في الضفة الشرقية ومدافعها ذات العيار ٧،٦ سم تهاجم المواقع الإسرائيلية ولكن عدم سرعة إطلاق النار فيها تقلل من فاعليتها . وجنود آخرون حضروا بطائرات الهيلوكبتر من الضفة الغربية يفتحون لأنفسهم ممرات في الحواجز الرملية بسلاح بسيط جداً وهو مضخة مائية حيث يقذف الجنود نهاية الأنابيب الضخمة من المطاط في الماء وتحت ضغط كبير تصعد المياه لتصب في الرمل وتزيحه عن الألغام التي تبدو حينذاك للمهاجمين وبهاذ تفقد الحواجز الرملية فاعليتها ، قوارب صغيرة تبدأ بنشر جدار من الضباب في المنطقة وتقوم تحت هذا الستار الوحدات الهندسية المصرية ببناء جسور البونتون Ponton عبر القناة ، قاعدة إلى جانب قاعدة وتنفتح عليها الجسور بسرعة كما تنفتح سجادة الصلاة ، بناء الجسور للوحدات الهندسية كان سهلاً ولا تعترضهم أية صعوبات لأن مياه قناة السويس هادئة ، وهذه اللحظات كانت من أحرج لحظات الهجوم المصري ، وهجوم سريع معاكس من الإسرائيليين كان بإمكانه أن يصد المصريين المهاجمين ويُمني هجومهم بالفشل ، الدبابات البرمائية 76 – Pt تتقدم بعيداً في الحاجز الإسرائيلي وتستمر في تحطيم تحصيناتهم وفي الوقت نفسه تحمي الجسور التي تم بناؤها وطائرات الهيلوكبتر مستمرة في إحضار الجنود إلى الضفة الشرقية وبعد مضي ساعة على بدء الهجوم ينتهي بناء الجسر الأول ويكون جاهزاً للاستعمال حيث تبدأ الدبابات 54 Pt و55 t في عبور القناة مموهة بالشباك

ومحملة بصفائح البنزين ومدافع هذه الدبابات من عيار ١٠ سم لها قوة الإصابة وتحطيم الدبابات المعادية على بعد ١٠٠٠ متر لكن المدفعيين المصريين لا يستطيعون الرؤية بسبب غبار الرمال الهائلة التي لا تزال تحدثها قذائف مدفعيتهم، وفوق الدبابات كانت تحوم طائرات الهيلوكبتر محملة بالمظليين لإنزالهم عند ممر المتلا على بعد ٣٠ كم من القناة وكان هدف المصريين أن يتغلبوا على الإسرائيليين ويحتلوا الممر لأهميته ولكن يصمد الإسرائيليون هنا وتلتحق قوات لتعاضدهم وتبيد الوحدة المصرية المتقدمة، وأهمية ممر المتلا هو أن الطريق الذي يصل القناة بوسط ميناء يمر منه وأن أي هجوم مصري في القطاع الجنوبي للقناة يجب أن يستخدم هذا الطريق لأن المنطقة وعرة هنا ولا تتيح للدبابات بسلوك طريق آخر. المدفعية المصرية لا تزال مستمرة بقصف نيرانها، وسر نجاح الهجوم يعتمد على إحداث الفوضى والقلق في صفوف الإسرائيليين وكي لا تتاح لهم الفرصة للتفكير في التغلب على الموقف المفاجئ. والإسرائيليون لا يجدون أمامهم الوقت الكافي لتنظيم هجوم معاكس بل أخذوا يرقعون جبهتهم ويتصرفون على ضوء الواقع والحالة المفاجئة ولكن المدفعية المصرية هائلة وقوية ما كانت لتسمح لهم بأي تصرف، والقيادة الإسرائيلية تأمر بمحاولة استعادة المواقع التي احتلها المصريون وخاصة أمام رؤوس الجسور لكن الإنزال المصري تم. وعلم الاتحاد العربي يرفرف على الضفة الشرقية للقناة وفي نفس المكان الذي كان يرتفع فيه العلم بنجمة داود لإغاظة المصريين منذ عام ١٩٦٧.

في مساء يوم الجمعة ٥ تشرين الأول وقبل بدء الحرب بثماني عشرة ساعة تقريباً تهيئ إسرائيل نفسها ليوم العيد، آلاف من الناس تصلي في

الكنائس الإسرائيلية وأمام حائط المبكى لأن يوم كيبور Kippur هو يوم الغفران والتسامح من شروق الشمس حتى غروبها لا يسمح فيه اليهود بالطعام أو الشراب ولا حتى التدخين ومنها التقاليد الدينية المتعصبة تمنع حتى قيادة السيارات وسماع الإذاعة. اليهود متعصبون ويقومون بالطقوس الدينية في هذا اليوم تماماً كما نفعل نحن يوم الجمعة الحزينة في ألمانيا، ووصف أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل يوم عيد الغفران بقوله في هذا اليوم يتحرك نبض إسرائيل بكل بطء وهدوء. إنه اليوم الذي ترتاح فيه أعصاب الحياة في هذا المجتمع المعقد ويترك آثاره حتى على الجيش، الجيش الذي لم يجد نفسه في حالة تأهب، الثكنات فارغة، الجنود يقضون العيد في بيوتهم، حتى الخطوط الدفاعية على جبهة السويس ليست مهيأة تماماً وينقصها الجنود، ولكن الهدوء يسود هذه الجبهة منذ فترة طويلة ولم تكن هناك أية حوادث خرق للهدنة هناك. ولكن في الساعات الأولى من صباح يوم ٦ تشرين يلاحظ المراقبون الإسرائيليون وجود ضجة للدبابات على الضفة الغربية ويثير هذا عجبهم لأن كل شيء كان هادئاً وطبيعياً عند شروق الشمس. وتبلغ نقاط المراقبة الإسرائيلية المتقدمة عن ذلك باللاسلكي إلى القيادة في تل أبيب والذين حللوا هذه الإخباريات الواردة من جبهة السويس كانوا يهزون أكتافهم حائرين لا يعرفون ماذا تعني أصوات تحرك الدبابات ويقولون لم تكن أصوات شيء فوق العادة. وغولدامائير لم تعرف شيئاً عن هذه الإخبارية لأنها كانت تقضي يوم العيد في بيتها في تل أبيب وكان رأي القيادة أنه ليس هناك ما يدعو للقلق وتحركات المصريين على الضفة الغربية للقناة كانت تلاحظ منذ زمن بعيد حتى

أصبحت عادة لديهم دون أن يكون لها معنى. وبرأي القادة العسكريين الإسرائيليين: لابد للسادات إلا وأن يلهي جنوده في تحركات ليس لها معنى وتجمع الدبابات ليس بالشيء الغريب فـ ٣٥٠ ألف مصري يعسكرون هنا منذ ثلاث سنوات والمدفعية المصرية توجد مباشرة على القناة، ومنذ سنتين كانت الحالة خطرة دائماً وعليه فليس هناك أي داع أو سبب لعدم الاحتفال بيوم العيد. وكانت المخابرات الإسرائيلية قد لاحظت قبل بضعة أيام تحركات مصرية غرب الإسماعيلية باتجاه السويس، وكانت السفارة الأميركية في تل أبيب أيضاً تعرف أن السادات يجري تنظيمات وتحركات في الجيش.

والموظف المسؤول عن المخابرات في السفارة الأمريكية يسأل زملاءه الإسرائيليين عن معنى هذه التحركات والتجمعات وكان جواب رجل المخابرات الإسرائيلي إن توزيع أو تنظيم الوحدات المصرية يجري بكل وضوح وأن مصر تهيئ نفسها لأغراض دفاعية.

وهذا الخطأ في تفسير معنى التجمعات بين دفاعي وهجومي على الضفة الغربية للقناة وفي مرتفعات الجولان يصبح في المستقبل من أكبر الأخطاء التي تلحق بدايان، والسوريون ضللوا المخابرات الإسرائيلية بخدعة، حيث روجت المخابرات السورية قبل ٦ تشرين إشاعة مفادها: أن حكومة غولدامائير تحتاج قبل انتخابات ٣٠ تشرين أول لنصر عسكري يضمن لحزبها النجاح في الانتخابات. ولهذا لابد لغولدامائير إلاّ أن تأمر بضربة للفلسطينيين على الحدود السورية اللبنانية، وسوريا ترى من واجبها أن تحمي حدودها لهذا تجري تجمعات وحشوداً لقواتها في منطقة الجولان، وسوريا ترجو المصريين في

هذه الحالة أن تتقدم لمساعدتها فيما إذا هاجمتها إسرائيل، ويعلن السادات بصوت عال أنه مستعد لمساعدة السوريين في مثل هذه الحالة.

قليلاً بعد الساعة الثانية تصفر صفارات الإنذار في تل أبيب، المناطق الإسرائيلية المتقدمة تخبر عن قصف كثيف للمدفعية المصرية، ١٦٥٠ مدفعاً على الضفة الغربية تفتح نيرانها، إسرائيل تخشى من وقوع هجوم جوي، والإسرائيليون في هذه الحالة من الفوضى لا يريدون المخاطرة لهذا يعطي الجيش إنذاراً للشعب، في الساعة الثانية والربع تبدأ الإذاعة الإسرائيلية بالبث، عشرات من التكنيكيين والمذيعين ما أن سمعوا صفارات الإنذار حتى توجهوا بسرعة للإذاعة ونظموا برنامج مؤقت من موسيقى وأوامر القيادة العليا وأنباء الحرب أنهت هذا العيد. إسرائيل تعبئ جيشها بواسطة الأوامر بالشيفرة التي كانت تعطيها عن طريق الإذاعة ومشاركة الشبكة الهاتفية الإسرائيلية التي تملك حوالي ٣٥٠ ألف خط أثبتت فعاليتها وفجأة تدب الحياة في ها اليوم وتتغير كثافة السير من لحظة لأخرى بعد أن كان معدماً، نوع من الفوضى والازدحام، قوات الاحتياط تلتحق بقطعاتها ورجال الدفاع المدني يقدمون أنفسهم في مراكز التجمع، والذي لا يملك سيارة يحاول السفر بسيارات الآخرين كل يسأل من مسافر باتجاه الجليل من مسافر باتجاه أريحا ....، هذا البلد الصغير تتقارب فيه المسافات فمن تل أبيب حتى الجولان ١٥٠كم لهذا تأثيره على وضع إسرائيل فمن ناحية يكون خطراً جداً ومن ناحية أخرى له حسناته في السرعة بالتعبئة العامة، وبعد حوالي ساعة من إعلان الحرب تقوم الباصات بنقل الجنود، غولدامائير وصلت في الساعة التاسعة والنصف من صباح ذلك اليوم إلى مكتبها،

ضباط الأركان في حالة من الحيرة والقلق إذ كانت الأمور غامضة بالنسبة لما وردهم عن تواجد الدبابات على الضفة الغربية ولكنهم مجمعون على أنه على الأقل على الجبهة السورية سيحدث شيئ ما لأن الدلائل التي تجمعت لديهم تشير إلى ذلك ومواقع الإسرائيليين الإستراتيجية على تلك الجبهة تهيئ لنقاط المراقبة الإسرائيلية الرؤية حتى دمشق، والدبابات السورية تتقدم من دمشق ولكن رغم كل هذا لا يريد أحد أن يقتنع بقيام حرب، لكنهم رأوا أن أمن إسرائيل يجب أن تتخذ الاحتياطات له بالرغم من يوم العيد وتجتمع الأركان العامة في نفس الوقت الذي وصلت فيه غولدامائير إلى مكتبها حيث ترجو السفير الأمريكي أن يأتي لمقابلتها لتطلعه على الوضع ويؤكد لها السفير الأمريكي أنه لا يمكن أبداً توقع قيام هجوم من طرف العرب.

وبعد ساعة تدعو غولدامائير مجلس الوزراء . إذ أن الأركان العامة أصبحت واثقة من أن هجوماً سورياً على الأقل سيقع ويناقش المجلس إمكانية القيام بحرب وقائية لإيقاف تقدم الدبابات السورية باتجاه الجبهة، لكن أغلبية المجلس كانوا ضد هذه الفكرة لأن سمعة إسرائيل دولياً ليست محترمة جداً في الوقت الحالي وقد قاست في الفترة الأخيرة منذ أن قام سلاح الجو الإسرائيلي باختطاف الطائرة المدنية اللبنانية فوق بيروت وأحضرها إلى تل أبيب وإسرائيل لابد لها من أن تحسب حساب أميركا وأن لا تحرجها ولا يتوقع أن تؤيد الولايات المتحدة حرباً كهذه، ويعرف كل من غولدامائير وموشي دايان حتماً أنه لا يوجد أحد في العالم يمكن إقناعه بضرورة القيام بحرب وقائية، ولابد أن تلحق بها تهمة أنها تعكر السلام لهذا توضع هذه الفكرة

جانباً ويقرر المجلس دعوة جزئية قبل ظهر هذا اليوم ويدعو خمسة آلاف احتياطي ليهيئ للجيش فرص الصمود أمام الهجوم السوري المتوقع.

متحدث وزارة الخارجية الإسرائيلية يصرح: قبل الظهر تدل كل الدلائل على إمكان قيام هجوم وقد أخبرنا السفير الأميركي وبعض الدبلوماسيين الآخرين وأعطينا وعداً بهذه المقابلات أن لا نكون البادئين ورجونا الدبلوماسيين أن تقوم حكوماتهم بتحذير كل من حكومات دمشق والقاهرة من أية خطوة باتجاه الحرب، لكن أحداً في الحكومة الإسرائيلية لا يعتقد أو يصدق أن السوريين والمصريين سيبدأون الحرب. وحوالي الظهر تقتنع الأركان العامة الإسرائيلية بأن لم يعد هناك خطر في هذا اليوم، وحسب الخبرات الإستراتيجية العسكرية تقوم الحروب المفاجئة في الصباح الباكر وقبل طلوع الشمس للاستفادة من النقاط التالية:

- الهجوم في الصباح الباكر يعطي السلاح الجوي المهاجم فرصة تبلغ ١٣ ساعة للقيام بهجمات متواصلة، والبدء في الصباح يعطي السلاح الجوي فرصة الرؤية مما يتيح له توجيه ضربات محكمة في خطوط العدو.

- نقاط المراقبة المعادية تكون في الليل تعبة وتنتظر التبادل والمراقبون في الصباح يكونون تعبين ولم يكسبوا قسطاً وافياً من الراحة والنوم.

والأركان العامة الإسرائيلية تستفيد من خبراتها من حربي ٥٦ - ٦٧ وتطبقها حول إمكانية قيام الجيشين العربيين بالهجوم في عام ١٩٧٣، وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً يخففون درجة الطوارئ في الوحدات المتأخرة وما كانت القطعات المتقدمة في منطقة القناة والجولان لتعلم بالعصبية والقلق اللذين يسودان الأركان العامة في إسرائيل. وفي هذا الوقت تأكد لضباط الأركان أنه لن تقوم حرب في

هذا اليوم لكن الانفجارات الهائلة في قناة السويس أطاحت بخيال ضباط الأركان الإسرائيليين وكانت المفاجأة أن الحرب لم تبدأ في جبهة واحدة بل في جبهتين.

في ٦ تشرين الأول وفي الساعة الثانية بعد الظهر تتساقط القنابل في المستعمرات الإسرائيلية في منطقة الجولان أمام مواقع بقاطه والأحمدية، خمسمائة دبابة سورية تقتحم خطوط الهدنة وتتجه باتجاه مسعدة، ويبلغ تفوق السوريين في هذه المنطقة من الجبهة بنسبة عشرة إلى واحد وفي الجنوب يتجه الهجوم السوري إلى القلع ويحتل السوريون هذه القرية التي تبعد عشرة أمتار شمال بحيرة طبريا. وعند قرية العال تنحدر مرتفعات الجولان لتستوي مع البحيرة وكان هدف السوريين هو تشكيل كماشة على القوات الإسرائيلية التي لا تزال في القنيطرة ويعتقد السوريون أن هناك عشرين ألف جندي في منطقة القنيطرة. وخطة السوريين هي أن يحطموا الإسرائيليين في هذه المنطقة بثمانمئة مدفع من عيار ١٢,٢ سم حتى ١٥,٢ سم، ألف دبابة تقاتل في مساء اليوم الأول من الحرب في منطقة لا تتجاوز مساحتها ٥٠ كيلومتراً مربعاً، في الطريق من واد الأردن المؤدي إلى كفر نفاخ ينقل الإسرائيليون تعزيزات ويتراجع الإسرائيليون من شمال وجنوب القنيطرة لكن السوريين لا يتمكنون من إغلاق الكماشة على المدينة حيث يصل الاحتياطيون في الوقت المناسب إلى كفر نفاخ ويدافع الإسرائيليون باستماتة عن مواقعهم لأنه لا يوجد هنا مدنيون وجميع سكان المستعمرات المدنيون هم عسكريون. في نفس الوقت ويهيئون بمئات من التمرينات لصد هجوم سوري وكل مستعمر هنا حصل على تدريب عسكري، والدفاع في هذه المنطقة منظم لأن الإسرائيليين الذين استوطنوا هنا لا ينوون أبداً العودة بل الاحتفاظ بهذه المنطقة التي احتلوها وفي هذه الحرب ينوي السوريون تعليم

المستعمرين درساً آخر وأن ينتزعوا منهم اللذة والرغبة في استيطان هذه المنطقة، وفي منطقة الجادولية يستعمل السوريون سلاحهم السري الصاروخ أرض - أرض الروسي المصدر والذي يبلغ مداه ٤٠ كم ويحمل كمية متفجرة وزنها ٢٥٠ كم والحلف الأطلسي أعطى لهذا السلاح السري اسم (Frog – 7) والسوريون يقدمون قواعد إطلاق هذه الصواريخ إلى الخطوط الأمامية من الجبهة وتصبح مدن صفد وطبريا في مدى هذه الصواريخ ومعنى ذلك هو نقل الحرب إلى قلب إسرائيل، وأصاب الصاروخ الأول مدينة مجدل حامض ووقع هناك عشرة جرحى وفي كيوبتز جيفات يدمر صاروخ من هذا النوع في الليل المدرسة وبعض المنازل السكنية ولكن لم تقع إصابات لأن سكان هذا الكيبوتز ينامون في الملاجئ والتحصينات وكان السوريون قد استعملوا هذا السلاح في الأيام الأولى من الحرب ولكن بعد قيام السلاح الجوي الإسرائيلي في اليوم الرابع من الحرب بغارات على مدينة دمشق توقف السوريون عن استعمال هذه الصواريخ.

إذاعة إسرائيل تهدد العرب بمساوئ اليوم الأول من هذه الحرب وتخاطبهم بقولها: سنحول أيامكم إلى ظلام وسنريكم نجوم الظهر، وسنحطم جباهكم وأنوفكم ونلوثها بالوحل وقادتكم سوف يدفعون الثمن غالياً، سنحطم عظامكم. وموشي دايان باعتقاده أنه سينتصر حالاً ويلحق بالعرب هزيمة أخرى يسمي هذه الحرب باسم (يوم الغفران)، وفي الساعات الأولى للحرب كان في صفوف الجنود الإسرائيليين في الجولان رجال دين "رابين" يتنقلون من وحدة إلى أخرى وهم ينشدون الأناشيد العبرية ويصلون، مرتدين ملابس الصلاة فوق الملابس العسكرية ولتشجيع الجنود يحملون في أيديهم التوراة.

الشعور الجميل بالنصر

توقعت الأركان المصرية أن يبلغ عدد ضحاياها لليوم الأول عشرة آلاف قتيل. وقدر الروس هذا العدد بخمسين ألفاً ليخيفوا العرب من القيام بالحرب، لكن ضحايا اليوم الأول بما فيه عبور القناة لم يتجاوز حسب البيانات المصرية أكثر من ١٤٢ قتيلاً الله أكبر، الله معنا، كانت هذه صيحات الجنود المصريين، صيحات القتال وهم يعبرون جسور البنتون قوافل طويلة من المدرعات وناقلات الجنود كانت تنتظر دورها لعبور الجسور بكل نظام وانضباط، يبلغ عرض القناة عند الإسماعيلية ٢٠٠ متر، والدبابات المصرية كانت تتحرك بحذر فوق الجسور التي ترتعد تحت جنازيرها، حتى في اليوم الثاني من الحرب كان يخيم على الجسور ضباب اصطناعي ليحميها من قنابل الطائرات المعادية، وقد أصيب جسران من الجسور الخمسة في مساء اليوم الأول من الحرب بأضرار نتيجة غارات جوية استهدفتها ولكن جسور البنتون (Ponton) يتم تصليحها بسرعة وسهولة. يقدر عدد الدبابات التي عبرت القناة في الساعات الثماني عشرة الأولى من الحرب بـ ٥٠٠ دبابة وفي هذه الفترة تم تحرير منطقة من سيناء على الضفة الشرقية يبلغ عمقها حوالي ١٠كم وأصبحت من جديد في يد العرب، في هذه اللحظة بدأ المصريون يتوقعون الهجوم الإسرائيلي المعاكس بل ويتخوفون منه، حيث اكتمل تنظيم الوحدات الإسرائيلية وتم استعدادها، لواءان

مدراعان من الدبابات الإسرائيلية يتهيآن للقيام بهجوم معاكس بحوالي ٢٠٠ دبابة، تبدأ المعركة وتستمر ثلاث ساعات تنتهي بانتصار المصريين، اللواء الإسرائيلي المرع "٦٠" يباد ويتم أسر قائده العقيد عساف ياغوري ويستسلم مع ٢٥ دبابة سليمة من لوائه،المصريون يتذوقون وللمرة الأولى منذ عشرين عاماً معنى النصر، في المساء يقدم التلفزيون المصري الأسير الإسرائيلي العقيد عساف ياغوري لمشاهدي التلفزيون مما يمثل العنصر الحي للنصر. ملايين العرب يشاهدون من على شاشة التلفزيون الأسرى الإسرائيليين وسحنتهم طويلة، ذليلي النفس محطمي المعنويات، ملابسهم ممزقة هذه الصورة حررت المصريين من مركب نقص عميق حزّ في نفوسهم طويلاً، فبعد ثلاثة حروب ضائعة كان العربي ينظر للإسرائيلي النظرة التالية: الإسرائيلي نشيط، نظيف أنيق المظهر، ماهر دائماً ويعرف كيف يتصرف، يستلم زمام المبادرة في كل مناسبة. وقد فعل الإسرائيليون كل ما في وسعهم لتحطيم نفسية الإنسان العربي ويزيدون في مركبات النقص لديه وكان هدفهم من وراء ذلك ألا يفكر الإنسان العربي في يوم من الأيام أن يصبح على مستوى الإنسان الإسرائيلي.

وفي حرب حزيران ١٩٦٧ فقد الإنسان العربي كل شعور بالثقة بالنفس، في ذلك اليوم كان الجنود المصريون وسحنتهم محطمي المعنويات ذليلي النفوس، كثيراً منهم خلع حذاءه في الصحراء. ـ هكذا يقول عنهم الإسرائيليون - ليتمكنوا من الهرب بسرعة دون عبء ثقل الأحذية. بعد حرب حزيران الضائعة يشاع بأن جمال عبد الناصر قد أمر جنوده ألا يتمشوا في الشوارع باللباس العسكري لأن الشعب بات يكرههم بل ويبصق في وجوههم.

النصر رقم (١) في هذه الحرب كما قال الرئيس السوري حافظ الأسد أن الإنسان العربي تمكن لأول مرة أن ينفض عن كاهله الخوف، كان النصر في أنه كان لدينا الشجاعة أن نهاجم ونثبت في معركة. وأصبح العرب ينتظرون من العالم كله أن ينظر لهم نظرة أخرى، لقد بدأ العالم فعلاً يعطي الإنسان العربي مكاناً يختلف عما يعطيه له الإسرائيلي، وقال لبناني في حديث لي معه في ٦ تشرين الأول أستطيع الآن ولأول مرة أن أقول في العالم الخارجي وأنا مرفوع الرأس أنا عربي.

ويعترف بذلك الجنرال الإسرائيلي أهارون يارف بقوله: العرب يقاتلون، لا يمكن للشعب الإسرائيلي أن يتوقع نصراً سهلاً. ويبين اللواء المصري عز الدين مختار في اليوم الثالث للحرب خسائر العدو كما يلي: في اليوم الأول أضاع العدو الإسرائيلي ٢٧ طياراً في اليوم الثاني ٣٠ في اليوم الثالث ٢٤، دمرنا ١٢٨ دبابة وحطمنا ٢٥ موقعاً في خط بارليف (خط بارليف يمتد على طول قناة السويس وعند الكيلو متر ٤٣ يمتد بموازاة خط سكة حديد قنطرة - العريش وفي الشمال من نقطة الكيلو ٤٣ حديد قنطرة - العريش وفي الشمال من نقطة الكيلومتر ٤٣ مناطق مستنقعات تغطيها المياه غالباً.

وبنى خط بارليف على رأي الجنرال حاييم بارليف بعد حرب حزيران ١٩٦٧ وانتهى بناء الخط في عام ١٩٧٠ بعد أن قبل جمال عبد الناصر بإيقاف حرب الاستنزاف آنذاك. وكان بارليف يفسر خطه بما يلي: من هنا من خلف هذا الخط نجعل كل عدوان مصري مستحيلاً، كما يكون في نفس الوقت نقطة انطلاق دائماً لعبور القناة باتجاه الضفة الغربية. بنى الإسرائيليون في هذا الخط ٢٥ منطقة محصنة تبلغ عدة طوابق عميقة من الرمل ومحصنة بالإسمنت المسلح - واستعمل

الإسـرائيليون سـكك الحديـد لخـط حديـد سـيناء - غطـت رمـال كثيفة جداً هـذه التحـصينات وأحيطـت بألغـام مـن حولهـا، وخبـأ الإسـرائيليون في حفـر عميقـة احتياطي كبير من قنابل النابالم، وكان نظـام مـن الـدهاليز على طـول القنـاة يـربط هذه المخابئ ببعضها البعض لتغطي القناة بحرائق هائلة عندما يحاول المصريون عبـور القناة لتحرق المهاجمين. وكل موقع من هذه المواقع المحصنة كـان مـزوداً بالكهربـاء وأما الماء فكانت تنقل يومياً بالـسيارات مـن أمكنـة بعيـدة. الجنـود الإسـرائيليون يحبون الراحة والمتعة، كانت مواقعهم مريحة ولكن ينقصها موتورات تكييـف الهـواء لأن الحرارة مرتفعة جداً ولا تطاق في سيناء. وفي خط بارليف توجد دائمـاً حاميـة تتـألف مـن ٣٠٠ رجـل والمؤونـة كانـت تكفـي لأربعـة أسـابيع في الخـط الأول على القناة، لأنه في اعتقاد إسرائيل أن هذا الخط يقاوم كل هجوم مهما كان. وقد كلـف هـذا النظام في خط بـاريف الإسـرائيليين ٢٣٨ مليـون دولار واسـتفادة مـن جميـع دروس اسـتراتيجة التحصينات في التاريخ ليطبقوها في هذا الخط، وفي عـام ١٩٧٠ لم تحدث قذائف المدفعية المصرية خلال حـرب الاسـتنزاف أيـة أضـرار أو ثقـوب في جدران هـذه التحـصينات وحتـى في هـذه الحـرب لم تحـدث أضـرار تـذكر في هـذه التحصينات وقذائف المدفعية من عيار ١٥,٢ سم و٢٠,٣ سم كانـت تـثير غبـاراً مـن الرمل فقط حول هذه التحصينات من الإسمنت المسلح. ولكـن كـان لهـذا محاسـنه بالنسبة للمصريين إذ أن المراقبين بالخط لم يتمكنوا من رؤيـة شـيء نتيجة الأغبرة الرملية التي كانت تنتشر أمامهم. ويقول جندي إسرائيلي لقـد أصيبت تحصيناتنا بـشقوق بـسيطة في الجـدران والـسقوف ولكـن كنـا واثقين بأنـه حتـى وبإصـابات مباشرة لن تنهار ولن يحدث فيها أضرار جسيمة، لكن أسوأ مـن هـذا كلـه أننـا كنـا

ضائعين وحائرين لا نعرف ماذا نفعل تحت هول المفاجأة ولم نعد إلى أنفسنا حتى دخل الجنود المصريون التحصينات ولم يكن أمامنا إلا أن نرفع أيدينا ونستسلم وفي يوم ٩ تشرين الأول اعترف الإسرائيليون بأن قواتهم انسحبت باتجاه الشرق بعدما أخلت خط بارليف والعرب يحتفلون بنصرهم الثاني.

موشي دايان يحاول أن يقلل من معنى النصر العربي للإسرائيليين ويعلق على ذلك بقوله: في الواقع تحصيناتنا تشبه الجبنة السويسرية، كما في الجبنة السويسرية كان يوجد ثقوب أكثر مما يوجد جبنه.

خطة رئيس الأركان المصري اللواء سعد الدين الشاذلي لعبور القناة في هجومه كما يلي: كان يعتقد أن اجتياز القناة سيكون أصعب جداً من خطة الهجوم الألماني على إنكلترا عام ١٩٤٠، وكان يتوقع أن توقف النيران المكثفة من التحصينات الهجوم في منتصف القناة، وكان في الواقع لا يرى سبباً يمنعه من تصديق الإدعاء الإسرائيلي بأن تحصينات خط بارليف لا تقهر. حتى الأسبوع الأول الذي سبق بدء الحرب قال دايان عن خط بارليف أنه حصين مطلقاً ولا يمكن تخطيه أبداً. المصريون لم يستخفوا بخط بارليف بل هيأوا أنفسهم لهذا اليوم بكل دقة وعناية، تمرينات المصريين لعبور القناة بقيت سرية. كان معروفاً أن بعض المناطق في النيل كانت محرمة على المدنيين، فعند منطقة الفيوم قامت وحدات من الجيش الثاني والجيش الثالث ثلاث سنوات كاملة بتمرينات يومية مستمرة لعبور القناة وقال جنرال مصري من سلاح الهندسة لقد كان عندنا موديلات قليلة جداً عن طبيعة القناة والتحصينات الإسرائيلية وعليها تمرنا. ومن العجب أن هذه التمرينات بقيت سرية لم يدر بها الإسرائيليون.

تراجع الإسرائيليين من خط بارليف أجبرهم على تغيير خططهم الإستراتيجية. الجنرال الإسرائيلي (إسرائيل تال) عرض فكرة في الدفاع المتحرك ويعرف عنه بأنه كان دائماً عدو الدفاع الثابت، وفي محادثاته الخاصة اتهم زميله بارليف بأنه ماجينوت (نسبة لخط ماجينو) وأفكاره عن التحصينات أفكار قديمة تأخذ حساب المشاة فقط بعين الاعتبار ولا يفهم شيئاً من حرب الدبابات - والجنرال الإسرائيلي تال اختصاصي في حرب الدبابات وكان معروفاً عنه بعدائه لإستراتيجية خط بارليف - وتقوم فكرته على أن الدبابات تقوم بحماية الخطوط الدفاعية الأولى وأن الدبابات وحدها قادرة أن تتصدى للعدو المهاجم وتبيده، كما يمكنها أن تناور في المعركة حتى يتسنى للقوات الكبيرة الوصول إلى ميدان المعركة. وبدلاً من هذه الملايين الضائعة في بناء خط بارليف كان يمكن شراء مئات من الدبابات الحديثة وهي قادرة أن تصمد أمام الهجوم المصري، ولا تفيد فقط في التصدي للهجوم فقط بل تفيد جداً حتى في التراجع الإستراتيجي ويكون بذلك الخط الدفاعي المتحرك.. التحصينات تسقط في يد العدو، ولكن انسحاب وتقدم يتناسبان مع بعضهما أكثر في إستراتيجية الدفاع المتحرك، وبهذا يمكن للجيش أن يوفر له وللشعب ردود الفعل المعنوية في حالة سقوط خط تحصيني أحيط بهالة من العظمة والكبرياء. والجنرال إسرائيل تال كان قائداً لوحدة في أحد مواقع سيناء وبعد سقوط خط بارليف برهن على صحة فكرته وحولها إلى حقيقة.

موشي دايان يعترف اليوم بقوله كنت في عام ١٩٦٧ ضد التقدم وكانت القوات لديها الأوامر بالتوقف قبل القناة لكنه لم يكن في استطاعتنا أن نوقفهم عن التقدم وما كنت أرى أنه من الذكاء أن نثير مشاعر المصريين بوقوفنا أمام القناة.



العقل المفكر للهجوم المصري

في نهاية شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٣ اجتمع رؤساء أركان الجيوش العربية في القاعة الكبرى بمقر الجامعة العربية في القاهرة، كان المرء يشاهد كبار الضباط العرب في أروقة مقر الجامعة العربية بلباسهم الخاكي المزين بكوردونات من الذهب والفضة وشرائط حمراء على بنطلوناتهم وقبعاتهم المزخرفة، وأوسمة ونياشين عديدة تزين لباسهم هذا، هذه الأوسمة تمنحها الجيوش العربية لبعضها البعض، تتراوح أعمارهم ما بين الأربعين وخمسين سنة وهم يشكلون اليوم في العالم العربي الطبقة الأرستقراطية والنخبة السياسية، وفي جميع الجمهوريات العربية تقريباً يحكم ضباط كرؤساء دول، في القاهرة في طرابلس في الجزائر يتسلم ضباط من رتبة عقيد شؤون السلطة في البلاد، في الخرطوم يحكم لواء، في دمشق يتولى السلطة فريق. في بغداد مشير، في عمان ملك يفخر برتبته كمشير. هذه النخبة لها كلها هدف مشترك هو وحدة العرب جميعاً، ويعرف الضباط أنهم وحدهم القادرون على التغلب على العقبات والصعاب وما يقف من عراقيل تجاه هذا الهدف ولكنهم جميعاً لم يجدوا ولا حتى في الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة الطريق المؤدي إلى هذا السبيل، جاء الضباط العرب الكبار إلى القاهرة ليرسموا خطة إستراتجية الحرب القادمة

مع إسرائيل، في هذا الوقت كان المرء يسمع من سائقي التاكسي النكتة التالية: يسأل رجل آخراً هل سمعت النكتة الجديدة؟ فيجيبه بلى ضباطنا اجتمعوا وينوون التحضير للحرب! . بين الضباط المئة المجتمعين ضابط يتميز بالتفاؤل في هذا اليوم وعلى وجهه علائم البشاشة والسرور، إنه الفريق سعد الدين الشاذلي، رجل نحيف رقيق الطبع، شعره قصير، ويرتدي الزي العسكري المصري غير الأنيق بأناقة تامة وأكثر ما يلفت النظر به أسنانه الناصعة البياض. سعد الدين الشاذلي هو من أذكى وألمع الحاضرين في هذا المؤتمر وذكاؤه الثاقب يشع منه ويرى المرء ذلك بكل وضوح وهو يعرف كيف يوقظ العواطف إذ يقول: "يجب علينا متحدين بالصف والكلمة أن نعيد مجد العرب ونوقظه".

ولد الفريق الشاذلي عام ١٩٢٢ لكن يبدو عليه أنه أصغر سناً من ذلك.

وينحدر من عائلة مصرية أرستقراطية، دخل الجيش عام ١٩٤٠. وفي حرب فلسطين اكتسب خبرة في قيادة القطعات، في عام ١٩٥٢ لم يكن الشاذلي في عداد الضباط الذين كانوا حول جمال عبد الناصر وقاموا بالثورة، في عام ١٩٥٣ دخل الشاذلي سلاح المظليين وأجرى دورات خاصة في الولايات المتحدة في التكتيك والتكنيك لسلاح المظلات ثم درس بعد ذلك وحصل على اللسيانس في العلوم السياسية، شغل فترة قصيرة منصب ملحق عسكري في السفارة المصرية في لندن، في حرب ١٩٦٧ قاد لواء عسكرياً، ولا تروى بطولات عسكرية خارقة من عمليات للوائه في تلك الحرب لأن السلاح الجوي الإسرائيلي في ذلك الوقت كان قد قضى بسرعة على تحركات القوات المصرية وقضى على إمكانية القطعات من القيام بأية عملية عسكرية

استراتيجية، لكنه أبدى مهارة وكفاءة في الدفاع فكان الشاذلي من القادة القلائل الذين استطاعوا وبمهارة فائقة أن يعودوا بوحداتهم كاملة دون خسائر تذكر عبر سيناء إلى الضفة الغربية للقناة، وقد كان بعيداً عن وحدته في بداية الهجوم الإسرائيلي. ويروى أنه كان متخفياً بلباس بدوي قد مر عبر الخطوط الإسرائيلية في طريقه للبحث عن قواته التي وجدها وعاد إليها وقام بعمل خطة إستراتيجية منسقة للعودة بتلك القوات إلى مصر، فكانت السيارات تفترق في سيرها لتلتقي من جديد وترى فيما إذا كانت هناك تعديلات على الخطة لتفترق وهكذا... ولهذا السبب كانت الخسائر التي لحقت بوحدته قليلة. وما أن وصل إلى القناة مع جنوده حتى أمرهم بترك آلياتهم والسباحة للوصول إلى الضفة الثانية.

ومنذ ذلك اليوم يحمل الشاذلي حقداً كبيراً على الضباط المصريين الكبار أصحاب الكروش المنتفخة إذ كانوا قد أعطوا أوامر غير واقعية وغير عملية في نفس الوقت، ثم أصبح عضواً في لجنة قامت في عامي ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ بتطهير الجيش المصري من حوالي مئتي ضابط كبير من ذوي الكروش، ومنذ عام ١٩٨١ يرأس الشاذلي الأركان المصرية، واستطاع أن يجلب تأييد الرئيس المصري لفكرته التالية:

"نؤمن بناء رؤوس جسور على الضفة الشرقية ونتحاشى أن يلحق بنا سلاح الجو الإسرائيلي خسائر كبرى، وبعد أن نثبت أقدامنا على الضفة الشرقية نعلن عن استعدادنا للدخول في مباحثات لعقد هدنة، أما الدفاع الجوي فنتركه للصواريخ".

قال الشاذلي للسادات:

"من الأسهل على قواتنا أن تتقن العمل بالصواريخ من أن تتقن طائرات الميغ "٢٣".

ووثق السادات بالشاذلي الذي كان يأمل أن يصبح العرب من جديد رجالاً رافعي الرؤوس أمام العالم بقوله:

"وإذا لم يكن باستطاعتنا أن نحقق ذلك فحري بنا أن نموت بشرف".

في شهر أيار ١٩٧١ أجرى السادات تعديلاً في الأركان المصرية، واعتقل القائد الأعلى للقوات الفريق "محمد فوزي" ووجهت له تهمة الخيانة العظمى، وعين الفريق محمد أحمد صادق قائداً للجيش وأصبح الطريق حراً أمام سعد الدين الشاذلي لاستلام رئاسة الأركان.

مؤتمر رؤساء الجيوش العربية يبدأ بالعناق والقبلات على الوجنتين والمصافحة، هؤلاء القواد يعرفون بعضهم البعض مسبقاً من المعاهد العسكرية في القاهرة أو في ساند هورست "Sand Hurst" في إنكلترا حيث تلقى أغلبهم علومهم السياسية في هذه المعاهد.

شرب كثير من فناجين القهوة، الخدم يقدمون العصير على أطباق إلى داخل قاعة المؤتمر وفي مدخل القاعة كدست العمرات المزخرفة حيث تفرغ أصحابها لأعمال المؤتمر.

يوجد تحت إمرة هؤلاء القواد ٩٥٠ ألف جندي ما عدا الاحتياط وبالمقارنة فإن إسرائيل لديها ٩٥ ألف جندي والتي يمكنها خلال ٧٢ ساعة من خلال دعوة الاحتياط أن يصل تعداد جيشها إلى ٣٠٠ ألف جندي. وأقوى جيش عربي هو الجيش المصري والذي يبلغ ٣٢٥ ألف جندي. الإمارات العربية على الخليج العربي وسلطنة عمان لديهم أصغر الجيوش حيث لا يتعدى تعدادها بضعة آلاف، وفي حال وقوف جميع الجيوش العربية متحدة تجاه

إسرائيل فإن حظ هذه الأخيرة بإحراز أي نصر على العرب سيكون ضعيفاً جداً ولكن ذلك لم يتحقق حتى الآن. وما السبب في ذلك إلا أنانية الرؤساء والذين لم يقدموا على وضع جيوشهم أحياناً تحت إمرة ضابط من أي بلد عربي آخر إلا مع عدم الارتياح، ولهذا السبب فإن القيادات العليا لمجموعة من الجيوش لا تكون عادة فعالة، وفي حرب حزيران ١٩٦٧ وضع الملك حسين الجبهة الأردنية تحت قيادة مصرية، وكانت النتائج الوخيمة التي نعرفها.

الفريق سعد الدين الشاذلي استعرض في مؤتمر القاهرة أخطاء الجيوش العربية بصراحة تامة ودون أن يطعن في القادة الذين تسببوا في كارثة ١٩٦٧، رغم أن العديد منهم قد صرف من الخدمة وجيل جديد من الضباط استلم قيادة الجيش، هؤلاء الرجال يفكرون كالشاذلي الذي قوبلت كلماته الأولى بتصفيق حاد وكان منها: "نحن العرب أمة تتألف من ١١٠ مليون إنسان وذوي دخل سنوي يصل إلى ٢٦ مليار دولار، وعدونا أقل من ثلاثة ملايين نسمة ودخله السنوي لا يتعدى ٣.٥ مليار دولار، علينا أن نخجل من أنفسنا إذ أننا بالرغم من تفوقنا بالمال والرجال لازلنا حتى الآن ودائماً نخسر أمامه، نحن ننتج سنوياً بما يعادل ١٠٠ مليون دولار من الأسلحة، بينما تنتج إسرائيل بما يعاد ٤١٧ مليون دولاراً نحن لم نعقد العزم حتى الآن على البدء. بتحضير أنفسنا، نحن نتكلم كثيراً عن الحرب لكن لم ننجز شيئاً، إذا لم نود أن نقوم بأي إجراء فدعونا نستسلم، وإذا لم نكن على استعداد للاستسلام فدعونا نقاتل سوية.

الفريق الشاذلي لم يود أن يلقي خطبة يثير بها الحماسة إنما هو بدأ يحلل الإمكانيات ويستعرض الأخطاء التي وقعت بها الجيوش العربية، لقد حضر

المخطوطات والخرائط وكدرس جغرافي بدأت الخرائط تعلق والخطط الحربية تناقش على الصندوق الرملي، وعقيد من الأركان كان يفرد أثناء حديث الشاذلي الخرائط الواحدة تلو الأخرى، وأخذ الفريق الشاذلي يشرح مجرى خطوط وقف إطلاق النار والقوة العسكرية لكل من الطرفين والإمكانيات المادية، وإمكانيات شراء الأسلحة والمدد اللازمة لذلك.

ويعرب الجنرالات العرب عن إعجابهم بقولهم "لم يعرض أحد حتى الآن وبهذه الصراحة الوضع العربي ومن غير العادة أن نناقش الأمور هكذا".

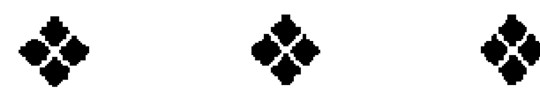
لا يقتنع الشاذلي بالإعراب عن الحماس فقط ولكنه يطالب بالعمل المشترك ويقسم في هذا المؤتمر الدول العربية إلى دول مواجهة ودول دعم، فدول المواجهة تشمل كلاً من مصر وسوريا والأردن والعراق وباقي الدول تكون المجموعة الثانية، وعلى دول المواجهة أن تخوض المعركة وعلى باقي الدول العربية أن تتحمل مسؤولية الدعم المادي من تمويل شراء الأسلحة كما عليهم أن يقوموا هم بشراء الأسلحة أيضاً ويضعون موانئهم وجميع الإمكانيات التي بيدهم في خدمة المعركة، ولهذا الغرض يجب أن تمحى فكرة الحدود وأن تشكل أمة واحدة وتعمل الجيوش العربية كلها سوية في المعركة المقبلة.

واقعية الشاذلي ألهبت العواطف، قادة الجيوش يقبلونه ويشدون على يديه معاهدينه على تقديم الدعم الفوري.

على الجميع أن يبدؤوا بعقلية جديدة، "الشاذلي على حق، يمكننا الانتصار ولكن إذا أردنا ذلك". وبحماس تتبرع إمارة أبو ظبي بمبلغ ٢٠ مليون دولار للتسليح للسوري والعربية السعودية تقدم ١٢ مليون دولار يتبع ذلك دفعات

أخرى، وتتلقى سورية في الأشهر التالية من الدول العربية المنتجة للبترول ٣٠٠ مليون دولار لتمويل شراء الأسلحة من روسيا، الكويت والعربية السعودية تمول التسليح المصري. الشاذلي يقول في نهاية المؤتمر: "إن قناة السويس تعتبر أكبر ممر مائي في العالم، ونحن على استعداد لعبوره، وسنعبره قريباً، وهذا ما حققه الشاذلي بعد تسعة أشهر.

ولكنه أقصي من منصبه لخطأ إستراتيجي بعد عشرة أسابيع من بدء الحرب.



العقل المخطط للدفاع

ربطت انتصارات الجيش الإسرائيلي في الحروب الماضية في نظر العالم بأسماء رجال معنيين، فاسم موشي دايان وانتصار ١٩٦٧ يرتبط الواحد منهم بالآخر، ولكن حرب يوم الغفران لا يجد في إسرائيل تشخيصاً كالسابق.

وفي المركز المقابل لرئيس الأركان المصري الشاذلي نجد في إسرائيل دافيد العازار كرئيس للأركان، إنه من مواليد ١٩٢٥ ومن مدينة سراجيفوا بيوغسلافيا، منذ عام ١٩٤٠ يعيش في إسرائيل وتنحدر عائلته من اليهود الشرقيين وقد نشأ العازار في كيبوتز بالقرب من مدينة حيفا، وعرف من سكان هذا الكيبوتز بأنهم من الاشتراكيين اليساريين (هاشومير عزائير "Hashomer Hazair").

ومنذ عام ١٩٤٦ أصبح دافيد العازار جندياً وشارك في جميع الحروب التي كان على إسرائيل أن تخوضها، في حرب ١٩٤٨ كان قائد مجموعة في فرقة المغاوير الرابعة وقاتل على طريق القدس لفك الحصار عنها ورفع في هذه الحرب إلى قائد كتيبة وأسندت له مهمة تدريب صف الضباط، وفي أواسط الخمسينيات أسندت إلى العازار رئاسة قسم الأبحاث والدراسات في الأركان العامة. في حرب حزيران ١٩٦٧ خاضها كقائد للجبهة الشمالية وفي حرب يوم الغفران يقودها العازار كرئيس للأركان.

داقيد العازار هو من نوعية الرجل القائد : إنه مزيج من الحزم والتفاؤل والطيبة كما أنه أهل الثقة، لباسه العسكري المفضل هو لباس العمليات والقميص ذو الأكمام المقلوبة، ويحب مهنته كعسكري، ولا يعتمد في منصبه كرئيس للأركان العامة على التفكير والمنطق والثقافة بل على قوة سلاح المدرعات، أحد مساعدي العازار يشبهه بالذئب الذي ينقض على فريسته يعضها ويتشبث بها، في حرب حزيران قاد الهجوم الإسرائيلي على مرتفعات الجولان، لقد كانت ألمع اللحظات في حياته العسكرية. ومن المعروف أن العازار اختصاصي دبابات والتكتيك الذي يتبعه هو الخرق المكثف مع الانتشار خلف العدو بعد هذا الخرق. ويقول : "يجب أن تقذف الضربة الأولى بالعدو من كفة الميزان لإجباره على اتخاذ وضعية الدفاع وبعد تلك الضربة يجب أن يشل تفكيره ويحاصر للقضاء عليه". وللعازار مبدأ عسكري هام : "إن الهدف المباشر للعمليات في الحروب الآلية يجب أن يكون تحطيم التركيب العضوي للجيش المعادي". هذا المبدأ يعود أصله "لارفين رومل". "Erwin Rommel".

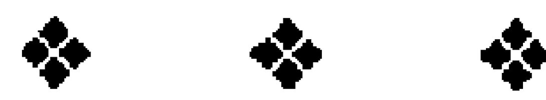
وأدافيد العازار خلق في القوات المدرعة مثلاً أعلى، إذ على الضباط الجدد أن يتبعوا طقوساً معينة، وقبل تسمية أحدهم ملازماً عليه أن يتسلق الطريق المؤدي إلى قلعة مسعدة في الليل وعلى أضواء المشاعل، يعاهد الضباط الجدد رؤساءهم وإسرائيل، رابطة الدم تعقد، ودافيد العازار ضابط ميال إلى الخيال. وقد اختيرت بشكل جيد قلعة مسعدة لهذا الاحتفال، إذ أنه في عام (٦٩ ميلادي) غنم القائد الروماني تيتوس "Titus" مملكة القدس اليهودية والتجأ الجنود الذين نجوا إلى مسعدة ودافعوا عن أنفسهم مدة سنتين، ولما لم يعد

بالإمكان الدفاع عن هذه المدينة انتحر الـ ٩٦٠ مدافعاً في اليوم الأول من عيد "باسا PASSAH" . وفضلوا الموت عن الأسر، امرأتان وخمسة أطفال عاشوا ذلك الحادث، قائد تلك القوات آنذاك كان يسمى اليعازار، والجنرال دافيد العازار يعجب بشجاعة "مقاتلي مسعدة هؤلاء ويجعل منهم المثل الأعلى لضباط المدرعات الإسرائيليين.

"دادو" بهذا الاسم يناديه زملاؤه في الخدمة يعطي صورة المحارب وخارج أوقات الخدمة وديعاً، في اليوم الثالث لحرب يوم الغفران يقول العازار وهو مليء بالتفاؤل: "إذا قمنا الآن بهجوم فعلي فإننا سنسحق المصريين". مركزاً حتى الآن على نوعية الجندي الإسرائيلي في القتال بقوله: "إن التدريب المصري لا يمكنه أن ينافسنا"حاييم هيرتزوك Chaim Herzog" الرئيس السابق للمخابرات الإسرائيلية يعين الناطق العسكري في الإذاعة الإسرائيلية - يعطي رئيس الأركان الحق في ذلك - في نشرة الظهيرة في اليوم الثالث من الحرب يقول "إن المرحلة الفاصلة في القتال لم تبدأ بعد ولكنها مسألة وقت فقط فعندما يصل جنودنا إلى الخطوط الأمامية ستكون النهاية السريعة".

ضابط إسرائيلي يعطي صورة عن الحرب في ذلك اليوم بقوله "بالنسبة لنا تشبه هذه الحرب لعبة الشطرنج بين لاعب ماهر وآخر مبتدئ يفاجئنا بلعبة بدائية وعلينا إلا أن ننتظر لنستعيد سيطرتنا على الموقف ثم نقضي عليه". رئيس الأركان الإسرائيلي يعتمد بصورة رئيسية على التكامل في العمليات الحربية بين سلاح المدرعات والسلاح الجوي، جبهتان تتقاسمان الجيش على الجبهة السورية وعلى قنال السويس يدور القتال، لقد تمكنت إسرائيل في

حرب حزيران ١٩٦٧ من تجنب هذا الوضع. آنذاك ضربت أعداءها العرب الثلاثة سورية ومصر والأردن الواحدة تلو الأخرى. هذه الإستراتيجية تمكن الإسرائيليون من تطبيقها آنذاك لأن الجيوش العربية لم تهاجم كما أنه لم يكن هناك أي خطر من قيام هجوم فعلي، في الساعات الأولى من حرب يوم الغفران يهدد التقدم السوري بحيرة طبريا، دافيد العازار يطبق التعليمات العسكرية التقليدية: لكسب الوقت يجب التخلي عن بعض الأراضي، الجبهة السورية تهدد بالخطر في الوقت الحاضر، بإمكان السوريين وبهجوم قوى على تلك الجبهة ومن خلال خرق بسيط في المنطقة المحتلة أن يصلوا إلى قلب إسرائيل وعلى العازار أن يمنع حدوث ذلك، لهذا لا يرسل تعزيزات على جبهة القناة وإنما يقوم بتركيز القوات على الجبهة السورية، إن عدم تمكن الأركان الإسرائيلية للقيام بهجوم معاكس على كلا الجبهتين والتركيز على الجبهة السورية يؤدي لخلق ظروف مواتية للمصريين إذ يستفيدون من ذلك بتحصين مواقعهم ومتابعة نقل الإمدادات على الجسور إلى الضفة الشرقية وهذا ما يقرر مسيرة الحرب.



يحيا الصاروخ السوفيتي سام ولتسقط قذارات العم سام

في اليوم الرابع للحرب يتغنى أطفال دمشق بهذه الجملة ويهللون للصاروخ أرض جو سام ٦ (SAM – 6) الذي يمكنهم أن يروافعاليته: "خط أبيض يتتبع طائرة فانتوم ويصدمها .. غيمة سوداء تسقط، غارة جوية فوق دمشق دون أي سابق تحذير الطائرات الإسرائيلية أصبحت فوق المدينة إذ أتتها من الشمال من خلف الجبال، الطيارون الإسرائيليون ينقضون بطائراتهم إلى ارتفاع منخفض وصدى ضجيج محركاتها المرتد من الجبل يزيد ذلك الضجيج حدة وقوة، وأصوات الانفجارات تمزق الهواء، بعد الانقضاض على الأهداف. طائرات الفانتوم تطير إلى ارتفاع شاهق، وفجأة برق يلمع وطائرة تحترق ساحبة وراءها غيمة سوداء وهي تهوي، وبعد لحظات تظهر مظلة في الهواء .. إنه الطيار. حصلت ومصوري على تصريح لمقابلة أول طيار إسرائيلي أسير في المستشفى العسكري في دمشق،

سؤال: كيف حدث إسقاطك؟

جواب: كنت أطير بطائرتي الميراج خلف طائرة الميغ وفجأة اهتزت طائرتي وتوقفت محركاتها، قذفت بنفسي من الميراج ولا أذكر أية تفاصيل أخرى.

إنه يود أمام عدستنا بأن يتوجه برسالة إلى والده في إسرائيل ويقول له:

"لست بحاجة لأن تشتري لي الحديد الذي طلبته منك للحاسب الإلكتروني، إلى اللقاء بعد الحرب"!. هل كانت تلك الرسالة إشارة إلى وحدته في إسرائيل؟. موظف من وزارة الإعلام السورية لا يعير ذلك أهمية ما بالرغم من أنه كان بإمكانه مصادرة معداتنا. طيار طائرة فانتوم لا يتصور بعد كيف تم إسقاطه يقول: سمعت.. بم. ووجدت نفسي خارج طائرتي. لقد أسقطت طائرات هؤلاء الطيارين من قبل الصاروخ أرض جو سام ٦، إنه السلاح المدهش في أيدي العرب.

تمكن الاتحاد السوفيتي من حفظ سر الصاروخ سام بصورة جيدة ولقد شوهد هذا السلاح وللمرة الوحيدة في استعراض أول أيار في عام ١٩٦٨ في موسكو ويبلغ طوله ستة أمتار وقاعدة إطلاقه هي سيارة مصفحة تحمل ثلاثة صواريخ.

إن صاروخ سام ٦ هو سلاح دفاعي جوي متحرك يبلغ مداه ٣٠ كم ويستعمل ضد الطيارات المهاجمة على ارتفاعات منخفضة، والأجهزة الموجهة به تبحث بصورة تلقائية عن الطائرة المعادية وتتبعها حتى ولو اخترقت جدار الصوت. جهازا رادار يوجهان جهاز الدفع وأجهزة البحث تكتشف الطائرة المعادية وترسل ذبذبة باتجاه الهدف الذي يعكسه من جديد، هذا الشعاع يتابع الطائرة والشعاع المعكوس يعطي في أجزاء صغيرة من الثانية لجهاز التوجيه الإلكتروني في قاعدة الإطلاق المعلومات عن الاتجاه والارتفاع وسرعة الطائرة فيقوم ذلك الجهاز بتوجيه الصاروخ أتوماتيكياً، وهذه الأجهزة الإلكترونية لا تحتاج مطلقاً لمساعدة الإنسان، الصاروخ يطير بسرعة تفوق سرعة الصوت والقوة الدافعة مؤمنة بواسطة الوقود الجاف وفي المئة متر الأخيرة ما بين الصاروخ

وهدفه يبدأ التوجيه الذاتي للصاروخ إذ يتتبع آنئذ الحرارة المنبعثة من محرك الطائرة. وإذا لم يرتطم الصاروخ بالطائرة مباشرة فإنه ينفجر بجانبها، وتستطيع شظاياه المتطايرة أن تصيب الأماكن الحساسة بالطائرة وتسقطها، وأحد الطيارين الإسرائيليين الذين قابلناهم يقول بأنه لم يشعر بأي ارتطام ضد طائرته ولم يسمع أي انفجار وكل ما يذكره أن الطائرة فقدت توازنها وتوقفت محركاتها، شظية من هذا الصاروخ أصابت ولا شك المحرك.

وللحصول على نتائج أفضل لهذا الصاروخ سام ٦ فقد ضوعفت قوة التوجيه الشعاعية للرادار، فعندما تعمل القوة الدافعة في توجيه الصاروخ الأول نحو هدفه تعطي الأجهزة المعلومات عن الهدف المقبل للصاروخ التالي، وعندما تفرغ قاعدة الإطلاق يمكن وبسهولة تجهيزها من جديد.

جرب الطيارون الإسرائيليون الهروب من هذا الصاروخ بالطيران على ارتفاع منخفض جداً وبسرعة تفوق سرعة الصوت ولكن لم يكتب لهذه المغامرة النجاح لخطورتها، أخصائيو السلاح الجو الإسرائيلي يودون بواسطة أجهزة إلكترونية من تخفيف خطر سام ٦ وذلك بمعرفة الذبذبة لشعاع التوجيه الذي يصطدم بطائرة الفانتوم لينعكس منها إلى قاعدة الإطلاق ويزودها بالمعلومات، عندها يمكن إبطال مفعول هذا الشعاع إلكترونياً ولكن هذه الذبذبة لم تكن معروفة لدى الإسرائيليين في بداية الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة.

يستخدم المصريون وبصورة جدية ميزة الحركة لهذا السلاح وينقلونه مع طلائع القوات المدرعة إلى الضفة الشرقية ويكفي المدى البالغ ثلاثين كيلومتراً من تشكيل مظلة تحمي رؤوس الجسور. عند مدينة القنطرة على القناة تبرز

طائرتا فانتوم من ضباب الصباح مع دوي هائل لتهاجم جسور البونتون Ponton، ثمانية قنابل تسقط في القناة خط من السحاب الأبيض الكثيف يصعد إلى السماء متتبعاً إحدى الطائرتين، الفانتوم تنفجر والثانية تتمكن من القرار. الطيارون الإسرائيليون يحذرون بأنهم قد كشفوا من قبل أجهزة رادار الصاروخ ويحاولون في أكثر الأحيان القيام بمناورات ومن تغيير الانعطاف بصورة مفاجئة ولكن سام ٦ يتبعهم في جميع مناوراتهم حتى يصيب هدفه.

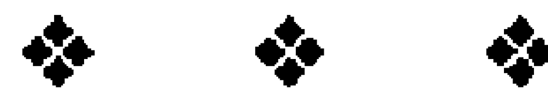
طائرات الفانتوم الإسرائيلية تواجه على قناة السويس شبكة دفاعية قوية، وصاروخ سام ٦ يصطاد الطائرات المهاجمة على ارتفاع منخفض، والطائرات المهاجمة على ارتفاع يتجاوز العشرة آلاف متر تقع في حقل نيران الصواريخ سام ـ ٢.

وتمكن الفنيون والطيارون الإسرائيليون من إيجاد نظام دفاعي ضد الصاروخ سام ـ ٢ ويشرح ذلك طيار ذو خبرة في هذا المجال بقوله: هناك جهاز في طائرتي يقوم بتحذيري عندما يتم اكتشافي من قبل رادار الصاروخ وذلك بعد اكتشاف ذبذبته البالغة ١٠ جيجاهرتز (GH Z 10) وعند الإنذار يتبقى أمامي سبع ثوان وأرى على شاشة الرادار الصاروخ وهو يتوجه نحوي، وإذا تمكنت من رؤيته في هذه اللحظة بعيني - إذ ينبعث عنه شريط دخاني برتقالي اللون - عندها تكتب لي النجاة، إذ أنقض من جديد نحو اليمين أو اليسار ويفقد جهاز البحث في مقدمة الصاروخ عندئذ أثر الطائرة المعادية ولم يعد له من هدف ما فيسقط من جديد باتجاه الأرض - إن رؤية هذا الصاروخ لا تتوفر إلا نادراً من قبل الطيار صاحب الحظ السعيد - .

شبكات الدفاع الصاروخية كثيفة، وسلاح الطيران الإسرائيلي في الأيام الأولى من حرب يوم الغفران فقد أكثر من نصف طائراته ويضطر للعمل على تعويضها من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، في دمشق يلمس الإنسان ضعف سلاح الجو الإسرائيلي إذ لم تعد تقترب من سماء المدينة أية طائرة، ويقول السوريون: "من ثمانية طائرات هاجمت دمشق اصطدنا سبعة منها، وهي الآن مجرد حطام يمكن رؤيتها على أطراف المدينة!".

القيادة العسكرية في دمشق تعرض في إحدى حدائق حي المزرعة أكواماً من حطام طائرات الفانتوم، جنود الجيش الشعبي يقومون بحراستها، رجل مسن ذو لحية بيضاء يأخذ قطعة من الحطام بيده، يبكي ويرقص ويغني لوطنه وجيشه ورئيسه.

حتى هذا اليوم لم يكن بوسع المواطن العربي أن يعتقد بإمكانية إسقاط طائرة الفانتوم التي يقودها الطيارون الإسرائيليون، لقد كانت الفانتوم مصدر خوف ورهبة وكأنها النقمة الإلهية.



ذراع إسرائيل الطويل

اللواء "أهارون باريف Aharon Yariv" يعقد مؤتمراً صحفياً في تل أبيب، لقد كان سابقاً رئيساً لسلاح المخابرات وقد عين الآن مستشاراً لرئيس الأركان دافيد العازار، ويود أن يشرح الحالة على الجبهة.

لقد عرف عن ياريف اتزانه وسرعة بديهته ولكنه في هذا اليوم في حالة يرثى لها، فاقداً لسيطرته على نفسه، يتكلم بصوت خافت، يعطي انطباعاً عن عصبية، يخبر مراسلي الصحف العالمية بالتراجع عن خط بارليف بقوله: "لم نعد نقف على قناة السويس كما لم يتم الهجوم المعاكس ولكن اللواء باريف لا يتطرق إلى السبب في هذا المساء ويتابع: "إن السلاح الجوي، ذراع إسرائيل الطويل، لم يعد باستطاعته الوصول إلى منطقة القناة، إن التقدم المصري عبر جسور البونتون لا يمكن إيقافه".

تتألف نواة السلاح الجوي الإسرائيلي من العديد من أسراب طائرة من طراز "F – 4 E" التي يطلق عليها اسم فانتوم "الشبح". وهي تصنع من قبل معامل مكدونالت اركرافت "Mcdonnel Airoraft Company in st. Louis Misswie"

في مدينة سانت لويس في مقاطعة ميسوري، وهي طائرة متعددة الأغراض صنعت لسلاح الجو الأميركي، كما باعت هذه الشركة منها إلى كل

من اليونان وإيران، وأنتج منها حتى الآن ٦ آلاف طائرة. كانت إسرائيل قد استلمت منها حتى بداية هذه الحرب ما يزيد عن ١٠٠ طائرة.

لقد حطمت طائرة الفانتوم الأرقام القياسية المعروفة حتى الآن في التسارع والارتفاع، كما تخطت من مزاياها وتعدد أغراضها جميع الطائرات المعروفة، إذ أنه بإمكانها أن تحمل ما وزنه ٧٢٥٠ كغ من القنابل والصواريخ، فللهجوم على أهداف أرضية بإمكانها أن تحمل ٤٠ قنبلة من وزن (١٠٠ ليبرة و٧٥٠ ليبرة)، و١٥ لغماً زنة ٦٨٠ ليبرة، و١١ قنبلة نابالم و٤ صواريخ جو - أرض من طراز "بيل بوب Bull pup" و١٥ صاروخاً لأغراض القتال الجوي.

يساعد الطيار في قيادة طائرته المعقدة حاسب وعقل إلكتروني يتولى القيادة بواسطة جهاز توجيه ذاتي، وجهاز إطلاق الصواريخ والقنابل يعمل بصورة أوتوماتيكية بعد أن يتلقى توجيهات جهاز الرادار للطائرة الذي يلتقط الهدف، ويرسل التوجيهات، والبحث من الهدف المعادي يتم بواسطة جهاز يستخدم الأشعة تحت الحمراء، كما أن هناك جهازاً يحذر الطيار عندما تقع طائرته في نطاق طائرة معادية عندها على الطيار القيام بالمناورات لتجنب نيرانها.

يبلغ ثمن طائرة الفانتوم مع تسليحها الكامل ٢٥ مليون مارك، وبرغم من جميع الأجهزة الإلكترونية المساعدة في طائرة الفانتوم فإن قيادتها تتطلب طيارين وملاحين ماهرين ويحتاج تدريسهم على هذه الطائرة أكثر من سنة، ويوجد لدى سلاح الجو الإسرائيلي حوالي ٤٠٠ طيار لهاذ الطراز من الطائرات ولا يمكن تعويض خسارة أي طيار بسهولة، وقد تم في الحرب العربية - الإسرائيلية الرابعة تعويض الطائرات المسقطة بساعات قلائل ولكن المشكلة العويصة كانت بتعويض الطيارين.

في حرب حزيران ١٩٦٧ كان يتسابق الطيارون والفنيون لتموين الطائرة بالمحروقات والذخيرة بأقصر وقت ممكن، وكانت طائرة الفانتوم تعود للجو من جديد في خلال دقائق معدودة، إذ كان يستغرق تموين الطائرة بـ ٧٥٠٠ ليتر من المحروقات ٥ دقائق، والخزانات الإضافية التي تتسع إلى ٢٢٧٠ ليتر كانت تعلق بعدة ثوان، ١٠ فنيين كانوا في خدمة كل طائرة وكان بإمكان الطيارين انتظار إشارة الانطلاق من جديد.

لقد توفر اليوم التالي من هذه الحرب جميع طواقم الخدمات والفنيين وغالبيتهم من الاحتياط ولكن لم تتبع نفس السرعة كما في الماضي، إذ كانت الخسائر فادحة، تقول الاستخبارات الأميركية بأن خسائر الإسرائيليين بلغت حتى اليوم الخامس من المعركة ٨٥ طائرة منها ٥٠ فانتوم. وللتعويض عن الخسائر الفادحة رأت قيادة السلاح الجوي أن توجه ضربات قاصمة إلى أسلحة الدفاع الجوي المعادية "هذا ما يأمل الإسرائيليون التوصل إليه" يقومون بتدمير محطة رادار لبنانية لاعتقادهم بأن هذه المحطة تنبه السوريين إلى الطيران المعادي، ولكن شبكات الرادار السورية من هذا الاتجاه كانت تكفي لكشف طيرانهم، ولم يغير تدمير محطة الرادار شيئاً من تلك الخسائر، فعلى الجبهة السورية تزداد كثافة شبكة الصواريخ، ولهذا تختار قيادة السلاح الجوي الإسرائيلي الآن المجال الجوي اللبناني بمهاجمة سوريا. وبدئ برؤية الطيران الإسرائيلي يومياً على ارتفاعات عالية في الأجواء اللبنانية وهي تتجه إلى حمص لتعود بعد دقائق من نفس الطريق إلى إسرائيل، وقد أراد هذا البلد الصغير في الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة البقاء على الحياد، ولم يتدخل

سلاحه الجوي كما لم يقم بحماية أجوائه الخاصة وأنه أقل عدداً ومهارة من السلاح الإسرائيلي. كما أن السوريين كانوا يتجنبون المعارك الجوية ومطاردة الطيران الإسرائيلي.

في ١٣ أيلول، ثلاثة أسابيع قبل بدء هذه الحرب قدم ذراع إسرائيل الطويل البرهان على تفوقه، إذ توجهت دورية مؤلفة من ثلاثين طائرة نحو الميناء السوري طرطوس الذي يبعد ٢٣٠ كم عن قاعدتها، في الساعة ١٤.٢٠ تحاول طائرات الميغ السورية التصدي لها وتفاجئ طائرات الفانتوم وتسقط واحدة منها، عندها تتخطى هذه الطائرات جدار الصوت والذي سمع صداه في مدينة بيروت، ويرتفعون عالياً وتصل هذه الطائرات الآن فوق مدينة حماة في وسط سوريا، سرب من طائرات الميغ ٢١ يطاردهم ولكن السوريين في هجومهم هذا لم يتمكنوا من إسقاط أية طائرة لكون الطائرات الإسرائيلية كانت في موقع قتالي أفضل وتسقط ٩ طائرات ميغ ٢١.

والطيار الإسرائيلي الذي أسقطت طائرته في البحر عند ميناء طرطوس تمكن من القفز بواسطة مظلته، وطائرة هيلكوبتر إسرائيلية تأتي بمحاذاة الساحل اللبناني برفقة طائرات مقاتلة لانتشاله، ٤ طائرت ميغ ٢١ تنتظر طائرة الهيلكوبتر ولكنها أسقطت جميعها، من قبل الفانتوم، وكانت نتيجة هذه المعركة الجوية أن أسقط الإسرائيليون ١٣ طائرة سورية مقابل طائرة واحدة لهم. ويعلم السوريون جيداً مع بداية الحرب أن سلاحهم الجوي أضعف من السلاح الجوي الإسرائيلي.

ذراع إسرائيل الطويل عليه أن يقابل في الجو الطائرات المقاتلة من طراز ميغ ٢١. وهي معروفة جيداً من قبل الطيارين الإسرائليين إذ تتميز بجذعها

الرفيع وأنفها الأسود المعوج، وبرغم من اختلاف الميزات لهاتين الطائرتين لا يتمكن الخبراء من التفريق بينهما جيداً في معركة جوية، إذ أن الغارة أو المعركة الجوية في هذه الحروب لا تستغرق الآن أكثر من ثوان معدودة، ودوي محركاتها لا يترك مجالاً لمعرفة من وإلى أين تطير تلك الطائرات.

طائرة الميغ ٢١ صممت من قبل الجنرال أوبرست ميكوبان ceneraloberst Artem I. Mikoyan" بعد الحرب الكورية، السلاح الجوي السوفيتي تشكلت لديه ذكريات سيئة مع طائرة الميغ ١٥ إذ أنها لم تكن على نفس المستوى مع الطائرات المقاتلة الأمريكية، لقد صمم الجنرال ميكوبان وعالم الرياضيات ميخائيل جوريفيش Mikhail curevich"، هذه الطائرة مع قوة صعود عالية، فقد كانت الطائرات المقاتلة الأميركية في حرب كوريا متفوقة لأنه كان باستطاعتها أن تحلق إلى ارتفاعات عالية وبتسارع هائل، لذا كان على طائرة الميغ أن تتمتع بهذه "المزية". ولم تملأ الميغ ٢١ في البدء رغبات السلاح الجوي لأن تسليحها لم يكن جيداً والتجهيزات الإلكترونية لم تكن حديثة فأدخل ميكوبان تحسينات عديدة على هذه الطائرة والتي كان عليها كشرط أساسي أن تكون صالحة للاستخدام في جميع الأنواء، كما لم يكن هناك بدّ من إدخال تعديل على تسليحها بعد أن جهزت بأجهزة إلكترونية حديثة وبدأت تتطور هذه الطائرة لتصبح في عداد الطائرات المقاتلة الجيدة، وقد تخلى مصمم هذه الطائرات عن استخدام الصفائح المعدنية التي تعيق التسارع الكبير للطائرة. واستعاض عن ذلك التصفيح الذي كان لتأمين الحماية اللازمة للطيار بجهاز إنذار ينبهه من

اقتراب طائرة معادية، ولكن مما يذكر أن مساوئ هذه الطائرة هو تسليحها إذا ما قورن بتسليح طائرة الفانتوم.

منذ أوائل عام ١٩٧٠ امتلك المصريون عدداً قليلاً من طائرات الميغ ٢٣ التي تستطيع الوصول إلى ارتفاع ٢٢ ألف متر. وهي مزودة بمحركين نفاثين وشكلها الخارجي يجعل من السهل التعرف عليها، في عام ١٩٧٢ انطلقت الميغ ٢٣ في جولة فوق سيناء يرافقها دوي هائل ينبعث عن محركاتها إذ كانت تطير بكامل سرعتها البالغة ٣ ماك، وقد أرسل سلاح الجو الإسرائيلي سرباً من طائرات الفانتوم وراء الميغ ٢٣ ولكنها لم تستطع اللحاق بها، وقدرة الفانتوم على المناورة والتسارع هي أقل من الميغ ٢٣.

ولكن ليس على الإسرائيليين خشية طائرات الميغ ٢٣ هذه لأن المصريين لا يملكون منها إلا عدداً ضئيلاً، وتشكل الميغ ٢١ عماد السلاح الجوي في البلدان العربية في بداية الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة.

ولكن خيبة أمل كبيرة واجهت السوريين والروس إذ أن سوريا كانت قد دفعت إلى المعركة بعدد من طائرات السوخوي Sukohi فكانت تسقط وبسهولة من قبل الدفاع الجوي الإسرائيلي.

ذراع إسرائيل الطويل، كان في حرب حزيران ١٩٦٧ ذا فاعلية جبارة لأن العرب كان لديهم قوات أرضية هائلة، أما سلاحهم الجوي فكان غير مجد وأبيد في الساعات الأولى من بدء الحرب من قبل السلاح الجوي الإسرائيلي، الفريق سعد الدين الشاذلي يأمر في حرب يوم الغفران جميع الطائرات

المتمركزة حول منطقة القناة بالعودة إلى داخل مصر وتمركز أغلب سلاح الطيران المصري في أسوان ومرسى مطروح، ولم يكن هذا السلاح في النصف الأول من الحرب ليشارك في المعارك والشاذلي يتصدى للذراع الجوي الإسرائيلي الطويل بصواريخ سام ٦. ولكون هذه الصواريخ لا تفرق بين الصديق والعدو، فلم يكن من المرغوب فيه وجود الطائرات المصرية في أجواء منطقة القناة وعند رؤوس الجسور، وكانت خطة الشاذلي تعتمد على تأخير دخول سلاح الطيران المصري في المعركة والاحتفاظ به سليماً ما أمكنه ذلك للمعارك النهائية الفاصلة سواء في حالة النصر أو الهزيمة.



موت في الجولان

يتلو عيد الغفران في إسرائيل عيد السقوط Sukkot عيد شكر القمح - في هذا العيد يبني الإسرائيليون خيماً من القش ومن أغصان سبعة أنواع من النباتات والأشجار: دوالي العنب وشجر التين والرمان والدراق واللوز والتمر، يستمر هذا العيد سبعة أيام، وحسب الأساطير يزور في كل يوم زائر من السماء نوعاً من هذه الأشجار وهذا الزائر يتناول الإفطار في الأرض مع الضيوف، موسى وإبراهيم ويعقوب وداود يأتون بأنفسهم إلى الأرض ليشاركوا في هذا العيد - في عام ٥٧٣٤ حسب التقويم اليهودي يبني عدد قليل جداً من هذه الخيم في إسرائيل، الناس في تل أبيب وحيفا والقدس وأريحا يستمعون لأجهزة الراديو في منازلهم، تقول غولدامائير: في هذه الأيام يسقط شبانٌ كثيرون من الإسرائيليين، والبرنامج العبري لإذاعة دمشق يعلن لمستمعيه حررنا جبل الشيخ، وهو يشكل الحدود بين سوريا ولبنان وارتفاعه ٢٨١٤ متراً.

كل يوم وفي أوقات معينة يشرح المعلق الإسرائيلي الجنرال هيوتزوك للمستمعين الحالة على الجبهة، في اليوم الأول من عيد السقوط يعد المعلق العسكري مستمعيه بالتغلغل داخل الجبهة السورية، ويتابع هذا الجنرال المثقف الواعي ليتحدث عن حيرة في صفوف السوريين وعن مصاعبهم في جبهتهم

الطويلة ويتابع بقوله إن تغلغلنا في الجبهة السورية يتضاعف في العمق وبجانب بحيرة طبريا تتقدم دباباتنا، والاحتياطيون في طريقهم إلى الجولان، وفي اعتقاد دافيد العازار رئيس الأركان أنه لابد وأن يتمكن الإسرائيليون من اختراق إحدى الجبهتين السورية أو المصرية ويرى أن الجبهة السورية تعتبر هدفاً أسهل من الجبهة المصرية وأن هجوماً مركزاً سوف يحطم السوريين. وقد تمركز الإسرائيليون في خنادقهم على بعد عشرة كيلومترات إلى الشمال الشرقي من القنيطرة، وهذا المكان هو أبعد مكان توصل الإسرائيليون من تمتين تحصيناتهم فيه ومن هنا تمتد سهول الجولان على مسافة خمسين كيلومتراً إلى دمشق، وعلى جانبي الطريق المؤدي إلى دمشق ترتفع الهضاب والسهل بين السلسلتين الهضبيتين حول هذا الطريق لا يتجاوز عرضه خمسة كيلومترات ويعرف دافيد العازار جيداً انه من الصعب عليه التقدم في هذه المنطقة وعليه أن يقهر الجيش السوري قبلها وهنا تتميز أكثر المناطق بوعورتها، ولا يمكن لدافيد العازار أن يقوم بعمليات دبابات شمال مدينة القنيطرة لكونها مليئة بالصخور وكأنها حواجز طبيعية ضد الدبابات ولم يستعمل السوريون في هجومهم هنا الدبابات بل قاموا بقصف مدفعي للتحصينات الإسرائيلية وحرروا ممراً في هذه المنطقة من أرضهم وعادوا إلى مجدل شمس وكانت قوات المغاوير تتقدم بهجمات مفاجئة وسريعة مستعملة البازوكا وخط الجبهة هنا مسنن وصعب ووضع الجبهة هنا في تغير مستمر.

وفي جنوب القنيطرة تقع المنطقة السهلية ومن قرية العال تمكن الإسرائيليون أن يتقدموا باتجاه الشرق بموازاة الحدود الأردنية لكن تقدمهم

هذا واكتسابهم للمناطق لم يحقق لهم نصراً ذا قيمة، وبإمكان السوريين وبكل سهولة أن يتخلوا بدون أهمية تذكر عن هذه المنطقة، ويشعر العازار بأنه يوسع الجبهة الإسرائيلية فيأمر قواته بالعودة من نفى، وفي هذه الأثناء يتضاعف ضغط السوريين جنوب الطريق الذي يمتد بين دمشق والقنيطرة ويتراجع الإسرائيليون حتى ممسية، وضابط دبابات إسرائيلي لم يشأ أن يبين اسمه يشرح الموقف على الجبهة السورية بشكل مبهم وغامض، ولكن ما يتحدث عنه كان أكثر غموضاً وهو برتبة عقيد ويقوم بقيادة الجبهة الشمالية بالنيابة ومقر وحدته هو في قرب كيبوتز "كينزاسار"، يقول وهو منحنٍ على خارطة للمنطقة: أعتقد وأنا على حق بأن هذا الطريق يؤدي إلى دمشق، ويتابع قوله ولا أمزح بذلك وإنما أقول هذا بصدق وإخلاص. سألت العقيد أمعنى هذا أنك تود التقدم إلى دمشق؟ فيجيبني بقوله: الجيش الإسرائيلي يريد أن يقوم بهجوم معاكس عبر الجولان وأن يتوغل في سوريا.

أما البريغادير جنرال أهارون ياريف فيقول: بدأنا خطتنا ولنري العدو أنهم ليسوا على قدر المزاج الذي بدؤوه وسوف نعلمهم ما يعني خرق الهدنة. سنصاعد الضغط عليهم، نطاردهم، سوف نعاقبهم بقدر ما في استطاعتنا.

وأما الجبهة السورية فيقوم على قيادتها اللواء مصطفى طلاس الذي يبلغ من العمر ٤٥ عاماً. إنه رجل ديناميكي صلب بعقل مفكر مبدع وهو في الوقت نفسه عسكري وسياسي وفي كلا هاتين الناحيتين عنده قوة الإبداع والتفكير والتجديد. كعسكري فهو مدافع صلب وقاس، وكسياسي فإنه يتقن حبك الأحداث من وراء الكواليس، وهو اختصاصي في حرب العصابات وخبرته ومعرفته في هذه الناحية

طبقها بنجاح في عراكه السياسي مما جعله يبقى في الجيش رغم الانقلابات العسكرية المتعددة، وحتى مجيء الرئيس حافظ الأسد للسلطة، لم يسبق لحكومة سورية قبله أن بقيت في الحكم لمثل هذه المدة ورغم أن السلطة منذ عام ١٩٦٣ في يد حزب البعث العربي، ولكن هذا الحزب منقسم على نفسه وكل جناح له نفس المفاهيم وتلتقي جميع الأجنحة تحت هدف واحد، تحقيق الوحدة العربية والاشتراكية والخلافات بين هذه الأجنحة لا تتعدى كونها خلافات شخصية وكل جناح يود أن يجلب السلطة إلى جانبه ويتمتع بها. وكل ضابط سوري يصل إلى رتبة عقيد فأكثر يفكر بهدف وحيد وهو أن يدخل قصر الرئاسة كحاكم وبطل الانقلابات السورية بأجمعها حتى الآن هو آمر سلاح المدرعات وهو نادراً ما يقوم بالانقلاب لنفسه إذ أن دوره يقتصر على مساندة الزملاء الذين كانوا يغرونه دائماً ويرغبوه بأفكارهم الانقلابية وفي حالة نجاح الانقلاب يسمي صاحبه نفسه رئيساً للبلاد ويقوم بتعديلات عديدة وخاصة في صفوف الجيش حيث يقوم باعتقال الضباط من قمة الهرم حتى العقداء ويزجهم في السجون أو يضعهم تحت الحراسة أو يحيلهم للمحاكمة حيث يحكم عليهم بالسجن وليس نادراً بالإعدام وإذا لم يشأ أن يكون قاسياً فيحيلهم إلى التقاعد أو يرسلهم للخارج كملحقين عسكريين ويحتل أماكنهم أصدقاء وأقرباء له كما يقومون بتولي السلطة المدنية كمحافظين، وتجمع بينهم وحدة الشمل والتفاهم حتى يخطر لأحدهم أن يبدأ المشاورات من جديد مع آمر سلاح المدرعات للقيام بانقلاب جديد إن رأى أن الوقت قد حان لذلك، وفي هذه الحلقة من الانقلابات السورية التي أصبحت من تقاليد هذا البلد كان رئيس الأركان دائماً يفقد منصبه ويتولى رئاسة الأركان

صديق مقرب لقائد الانقلاب الجديد الذي يبذل كل ما في وسعه وبجميع الإمكانيات أن يحافظ على مكانه. ولتهيئ حرب ضد إسرائيل لم يكن الوقت يسنح لأي رئيس أركان سوى التحضير لهذا الغرض، والصراع السياسي في سوريا كان العامل الرئيس في تضعضع الجيش السوري وذلك حتى أتى حافظ الأسد إلى الحكم في عام ١٩٧٠ وكان من العجب أن يستمر في الحكم حتى قيام الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة ومنذ عشرين سنة وحتى الآن لم يتمكن أي حاكم سوري من البقاء في الحكم كحافظ الأسد. واحتاج حافظ الأسد ومصطفى طلاس إلى وقت طويل ليركزوا السلطة وذلك على أساس شل المنافسين واستعملوا لتحقيق هذا الهدف خطة ذكية إذ كانوا يقولون إننا نهيئ للحرب ونحن مصممون على استعادة الأرض المحتلة ومن يتآمر ضدنا لا يعمل إلا لصالح العدو، وليس إلا خائناً لأن في ذلك تأخيراً وعرقلة لحركة تحرير الأرض المحتلة ويعرف الجميع أن عقوبة الخيانة العظمى هي الإعدام وبهذا يجعل حافظ الأسد ومصطفى طلاس من نفسيهما شخصين غير قابلين للإزالة ويقومان كضمانة للتحرير، ومن الطبيعي أنه لا يوجد أي ضابط يود عرقلة تحرير الأرض المحتلة ولهذا لا يوجد انقلاب أو فكرة بالانقلاب منذ عام ١٩٧٠ ولأول مرة في التاريخ السوري الحديث تتاح الفرصة لوزير الدفاع السوري ورئيس الأركان أن يفكرا ويهيئا الخطط اللازمة للقيام بحرب، ومصطفى طلاس يسافر كثيراً للبحث عن أسلحة جديدة وعندما تردد السوفييت في تقديم أسلحة كافية يسافر مصطفى طلاس وبدون سابق تحضير إلى الصين الشعبية وهناك يترك المصورين يلتقطون صوره وكتاب ماوتسي تونغ في يده وهذا ما جعل الروس أكثر استعداداً للبحث معه وأصبح المارشال غريتشكو وزير

الدفاع الروسي يأتي في زيارات منتظمة إلى دمشق وأصبحت روسيا تقدم الدبابات والمدافع المطلوبة إلى السوريين وفي حرب الجولان كان حافظ الأسد هو الذي يتخذ القرارات.

حافظ أسد من مواليد ١٩٢٨ والده فلاح، رغم ذلك كان لعائلته من الإمكانيات ما جعلها تدخل ولدها إلى المدرسة - دخول المدرسة لا يعتبر حتى اليوم في سوريا من البديهيات - وعائلة الأسد هي من الأقلية العلوية في سوريا والتي تبلغ حوالي ٤٥٠ ألف نسمة، والعلويون هم مسلمون ولكن المذاهب المختلفة في الإسلام تعود لطقوس تعرف عليها فيما قبل الإسلام، وغالبية السكان السوريين هم من أهل السنة وهم متسامحون جداً حتى للديانات غير الإسلامية وليس وجود حافظ الأسد كعلوي على رأس السلطة في سوريا إلا دلالة واضحة على هذا التسامح الديني في البلاد. وحافظ الأسد رجل، بدأ البياض يجد طريقه إلى شواربه وزوالفه، وهو يتكلم بلهجة علوية واضحة.

ولكن رغم كل هذا فالجماهير تحب هذا الرجل وعندما يظهر أمام عمال أو فلاحين أو مثقفين لا تتوقف الصيحات حافظ حافظ، والسوريون معجبون ببسالة هذا الرجل، وهو يسكن ببساطة في منتصف منطقة الفيلات في دمشق، متزوج ولديه خمسة أطفال ولا يترك مجالاً للتعرف على حياته العائلية الخاصة.

ومنذ عام ١٩٧٠ بدأ العسكريون يوجهون السياسيين المدنيين عكس ما كانت عليه الحال سابقاً وبدأت سوريا تحضر نفسها كلياً للحرب وتحرير الأراضي المقدسة وكان ذلك الهدف الأسمى للبلاد.

ولم يعتقد الرئيس حافظ أسد ووزير دفاعه يوماً ما بإمكانية الحل السلمي وكان مبدأهم أن ما أخذ بالقوة لا يمكن أن يسترد إلا بالقوة ومثلت الحرب الرابعة للأسد قضية شرف قومي وقال الرئيس في نهاية الحرب (الحرب أيضاً لا تجعلنا سعداء أكثر). حافظ الأسد ومصطفى طلاس الأخصائي في حرب العصابات يخططان الإستراتيجية على مستويين، الجيش النظامي يقوم بالعمليات العسكرية ويتقدم داخل الأراضي المحتلة، ومنظمات المقاومة الشعبية تقوم بعمليات تخريبية جماعية وفردية، تقاتل طلائع القوات المتقدمة، تهاجم قوافل التموين وتدمرها وفي حالة انكسار الجيش السوري عليها أن تقوم بالدفاع عن دمشق والهضاب المحيطة بالعاصمة وفي حالة سقوط هذه الهضاب عليها أن تدافع عن مداخل المدينة وفي داخلها وبذلك يتهيأ للجيش وقت كاف لتنظيم نفسه من جديد عند حمص أو حلب إذا احتاج الأمر ويعيد تجهيز نفسه من جديد بالأسلحة اللازمة من الروس. وهذا التعاون والتناسق في الدور المتبادل في الدفاع والهجوم بين الجيش والمقاومة عليه أن يبيد أو يستنزف الإسرائيليين، ومصطفى طلاس يعرف أن هذه الإستراتجية من شأنها أن تلحق بالبلاد خسائر كبيرة في الأرواح لكن إستراتيجيته هذه تنطلق من أن سوريا يبلغ عدد سكانها (٧) مليون نسمة، بينما لا تتعدى إسرائيل الثلاثة ملايين ويقول: إن سوريا ستقدم ضحايا كثيرة بينما إسرائيل ليس بإمكانها تقديم ذلك ويدعم مركز سوريا في هذه الإستراتيجية أن الاقتصاد السوري ليس حساساً كالاقتصاد الإسرائيلي إذ يمكن الاستغناء عن العمال ولا يجب أن يكونوا جنوداً ويلتحقون بالجيش كالجيش الإسرائيلي الذي عماده الاحتياط

فأغلب القوة الإسرائيلية في الجيش هم الاحتياط وتعتمد إسرائيل على كل إنسان لديها لاستكمال القوة الحربية لجيشها . والصناعة في سوريا ليست متطورة كما في إسرائيل ؛ ويقول : محاسننا في هذا الحساب هو تأخرنا و ٦٠٪ من سكان سوريا يقطنون الريف ويعملون في الزراعة لن تحل بسوريا المجاعة ولا حتى في حرب طويلة الأمد . المواد الغذائية ننتجها بأنفسنا ويقول وزير الاقتصاد السوري الدكتور محمد العمادي في هذا : إذا كان ولابد ولم يكن لنا الخيار فشعبنا متعود على الصيام ، وإذا قلت المواد الغذائية فكل منا يعرف كيف يدبر أموره حتى لو انعدمت الكهرباء كلياً فلا يعني ذلك استسلامنا ، ويذكر وزير الاقتصاد أنه كان في عام ١٩٦٠ في نيويورك عندما انقطع التيار الكهربائي لمدة ثلاث ساعات وحل بالمدينة ما يشبه الكارثة أو حالة الطوارئ وانهار كل شيء وأما في دمشق فليس عندنا مثل هذه المشاكل .

السوريون يقاتلون ببسالة وبعنف مستميتين في الجولان . وكانوا قد استولوا من أعلى مركز للمراقبة على جبل الشيخ ومن هنا من أعلى برج للمراقبة تعطى التعليمات للمدفعية السورية ، يتقدم الإسرائيليون بدبابات من نوع (باتون ـ Patton) وسنتوريون وقد أجرى على مدافع هذه الدبابات تعديل من قبل المهندسين الإسرائيليين حيث حل مدفع واحد من عيار ١٠,٥ سم مكان المدافع السابقة والذخيرة لهذه المدافع تنتج في إسرائيل وأدخل هذا التعديل حتى على الدبابات الروسية التي غنمها الإسرائيليون من حرب ١٩٦٧ وكان لهذه التعديلات التي أجريت محاسنها بالنسبة للجبهة السورية إذ لم يكن على سلاح التموين الإسرائيلي أن يزود الجبهة بأنواع متعددة من

الذخيرة - وهنا يتفوق الإسرائيليون بالتفكير العسكري كثيراً على العرب -، المدفعية المتقدمة في جبل الشيخ تغذي المعركة بنيران كثيفة، طلائع الدبابات العراقية تتقدم محاولة ضرب القوات الإسرائيلية في الطرف، الإسرائيليون يتوقعون النجاح في عملياتهم، سحبت وحدة دبابات سورية لتأخذ مكانها قوات جديدة وفي هذا الوقت من التعديلات في الجيش السوري تتقدم الدبابات الإسرائيلية والعراقيون يعيقون هذا التقدم، الدبابات المحترقة تنتشر على يمين ويسار الطريق التي تصل القنيطرة بدمشق، الخسارات كبيرة في كل من الجانبين، وقرأت على عدد من حطام الدبابات الإسرائيلية العبارات (تعيش غولدا، إلى دمشق) وغير ذلك، وعند القرية السورية سعسع يتوقف الهجوم الإسرائيلي المعاكس حيث يبدو أن الجبهتين قد بلغتا حداً مشتركاً من القوة ولا يمكن لفريق أن يتغلب على الآخر إلا في الإستراتيجية التي سيتخذها للمرحلة التالية، ورغم أن للإسرائيليين خبرة في كشف الثغرات الضعيفة في صفوف العدو لم يتمكنوا من العثور على أية ثغرة في خط الدفاع السوري لفتحها والتقدم منها.

وكان الإسرائيليون يتفادون الاصطدام المباشر بالدبابات بعد فشلهم في ذلك عند سعسع فالاصطدام عادة يؤدي إلى النجاح فيما إذا وجدت ثغرة ضعيفة في الصفوف الدفاعية المقابلة وما على القائد الحربي إلا أن يكتشف هذه الثغرة في الوقت المناسب ويستفيد منها حالاً وذلك بأن يزيد بالهجوم المكثف على هذه الثغرة ثم يحاول أن يتغلغل منها ويلتف على العدو من الخلف والمعروف عن الإسرائيليين أنهم من أمهر مقاتلي الدبابات في العالم، وقد بدؤوا يشكون

في مقدرتهم على إحداث مثل هذه الثغرة في خط الدفاع السوري ولا يصدقون ما يجدونه أمامهم من صلابة واستماتة في قتال السوريين، وعبر عن ذلك ضابط إسرائيلي كبير في حديثه لمراسل صحف فرنسي بقوله: كان حرياً على دافيد العازار أن يخرس وألا يعدنا بأن هذه الحرب ستكون أقصر من حرب حزيران ويتابع بقوله إن السوريين يقاتلون كالجن.

ويصف مراقب هيئة الأمم المتحدة النمساوي النقيب هوبرت روماوخ Hubert Romauch الوضع كما يلي: في اليوم الأول من الحرب تقدم السوريون مسافة ٣٥ كيلومتراً في المنطقة المحتلة، وعند الهجوم الإسرائيلي المعاكس تراجعوا عن هذه المنطقة وتجمد الوضع على الجبهتين، وأقسى المعارك دارت رحاها حول القنيطرة، وعادل تفوق الأسلحة الإسرائيلية قوة إرادة السوريين في الحرب والقتال، وقد ركز السوريون أسلحتهم المضادة للدبابات في النقاط الضعيفة في خطوطهم تجاه الإسرائيليين، وهذه الأسلحة عبارة عن صواريخ مضادة للدبابات تحمل من قبل المشاة وتوجه بواسطة شريط معدني يصل ما بين كل من قاعدة الانطلاق والقذيفة والمحور الذي في يد الجندي ويوجد على جناح الصاروخ ضوءان يرى الجندي الذي أطلقه ويستطيع بذلك من رؤية القذيفة وتوجيهها بدقة حتى تصيب هدفها وتبلغ سرعة القذيفة هذه ٣٠٠ كم في الساعة ولا ينفجر الصاروخ مباشرة عند إصابته هدفه وإنما يخترق تصفيح الدبابة ليصل إلى داخلها ثم ينفجر والمادة المتفجرة فيه تتألف من مادة المغنزيوم التي تحرق كل حي داخل الدبابة، ويحمل الصاروخ على قاعدة معدنية متحركة وهو سهل النقل والتركيب ويزن هذا السلاح حوالي ٢٥ كيلوغراماً

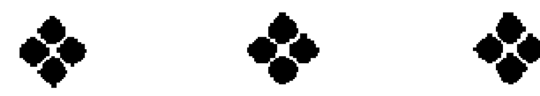
لذلك لا يمكن اعتبار هذا السلاح عملياً بالنسبة لجندي المشاة إذ أنه يعيق سرعة تنقله وأما محاولات تركيبه على سيارات الجيب فلم تكن هي الأخرى مجدية حيث تبين أن سرعان ما تباد سيارات الجيب قبل أن تتخذ وضعية القتال من قبل الدبابات الإسرائيلية، هذا ويمكن لهذا الصاروخ المضاد للدبابات أن يخترق تصفيحاً يبلغ عمقه ٧ سم بعد أن يتجاوز مسافة ٢٠٠٠ متر ويقول السوريون أنهم قد دمروا ما يزيد على مئة دبابة بهذا السلاح.

ولدى الإسرائيليين سلاح مشابه ضد الدبابات من صنع فرنسي صمم على مبدأ البازوكا، ورأس القذيفة يخترق تصفيحاً عمقه ٣٠ سم، أي أنه يستطيع اختراق الدبابات الروسية من موديل ت ٥٤ وت ٥٥، ويعلن الإسرائيليون أنهم قد استطاعوا بهذا السلاح من تحطيم أقوى نوع من الدبابات في العالم وهي الدبابة الروسية ت ٦٢.

الحالة في الجبهة متراجحة الكفتين ولكي يتمكن الإسرائيليون من تحقيق نصر ما عليهم أن يقوموا بضرباتهم في الداخل، طائرات الفانتوم الإسرائيلية تقوم بقصف الأهداف الاقتصادية داخل البلاد، ميناء اللاذقية عطلت أرصفته واحترقت في الميناء سفينتان تجاريتان الأولى يابانية والثانية يونانية، محطات الكهرباء في حمص وحماة ودمشق وتصاب إصابات مباشرة وتعطل، مصفاة بترول حمص تدمر تدميراً كاملاً ومن الغريب أن هذا الهدف الحيوي والغاية في الأهمية لم يحمى بصواريخ سام، الطائرات الإسرائيلية تأتي عن طريق البحر لتهاجم أهدافها المدفعية المضادة للطائرات في حمص تفتح نيرانها على الطائرات المهاجمة ولكن طائرات الفانتوم تتمكن من إفراغ قنابلها فوق

المصفاة بدون أية مقاومة تذكر، المصفاة ومستودعات البنزين فيها تتحول إلى غابة من النيران والدمار في المصفاة كان لدرجة أنه لم يعد من الممكن إصلاحها. والمدفعية المضادة روسية الصنع وقذائفها موجهة بواسطة الرادار وهي من عيار ٢,٣ سم وتطير بذبذبة قدرها (١٥,٥ GHz)، وتبدي هذه المدفعية فاعليتها في دمشق ولكنها لم تجد نفعاً في حمص.

الأركان العامة السورية تشعر مدى ما ألحقته هذه الغارات من أضرار وضعضعة في الجبهة، لقد بدأ الوقود للآليات المحاربة يقل وسوريا نفسها لا تنتج بنزين بل تستورده والمستودعات التي أقيمت في البلاد متفرقة وموزعة يصعب جمع الوقود وتأمينه بسرعة للجبهة، الحكومة تبدأ بتوزيع المحروقات للمدنيين بموجب بطاقات كانت قد أعدت قبل الحرب لهذا الغرض.



الغارة الجوية على دمشق

في الأسبوع الأول من الحرب العربية - الإسرائيلية يتصل بي هاتفياً مراقب من هيئة الأمم المتحدة ويسألني هل تريد وصفاً حياً وعياناً للغارة الجوية على دمشق؟ أجبته بلى، وقال لي إنني مراقب من مراقبي هيئة الأمم وسأكون بعد قليل في مكتبك وبعد نصف ساعة من هذه المخابرة التقينا ويصف لي هذا النقيب النمساوي فولفجنج هربرت روماوخ Wolfgange Hubert Roauch من مواليد مدينة سالتزبورغ ما شاهده بالغارة الجوية على دمشق، - ورغم أن من واجبه الحياد - إلا أن حنقه وغضبه على الإسرائيليين دفعه إلى ذلك، وبدأ قائلاً أنه سيتكلم ويظهر الحقيقة ولو كلفه ذلك صرفه من الخدمة في الجيش في بلده ويتابع بقوله يجب أن أتكلم لأنني أرى أن الحرب ضد المدنيين العزل إجرام لا يغفر ويصف النقيب ما أثار حنقه وغضبه فيقول: في اليوم الرابع للحرب وفي تمام الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق هاجمت طائرات الفانتوم الإسرائيلية العاصمة دمشق وكان هدفها المناطق السكنية في حي أبو رمانة حيث يقطن موظفو البعثات الدبلوماسية وقصفتها بثلاثين صاروخاً، ويؤكد بأنه لا يوجد في هذه المنطقة أي هدف عسكري أو محطة للرادار وكانت الطائرات تضرب بلا تفريق ولا هدف في هذه المنطقة ويروي ما رآه بعينيه قائلاً إن الطائرات

الإسرائيلية عادت بعد القصف وأخذت تطلق نيران مدافعها الرشاشة على السكان العزل الذين حاولوا اللجوء إلى المخابئ في منطقة الغارة وقتل بذلك وجرح المئات. إن عدد الضحايا غير معروف والحكومة السورية لا تصدر بيانات تتضمن عدد الموتى والجرحى في هذه الغارة. وفي اليوم التالي جرى البحث تحت أنقاض المنازل التي دمرت ووجد عدد من الضحايا. وقد أصدر مكتب هيئة الأمم المتحدة بياناً يتضمن عدد ضحاياها (مراقب نرويجي وزوجته في دمشق، وقد أنقذ أطفال سفارتي الباكستان والهند من تحت الأنقاض. والأبنية التي دمرت كانت عبارة عن منازل سكنية والمركز الثقافي الروسي ومدرسة للعميان والطرشان حيث قتل فيها ثمانية أطفال وجرح اثنا عشر. وفي حي المالكي أصيب مستشفى الشرق حيث قتل جنود جرحى كانوا يعالجون فيه كما احترق عشرة أشخاص في سياراتهم أثناء مرورهم في هذه المنطقة والمنازل في حي أبو رمانة الحديث مسلحة تسليحاً خفيفاً بالإسمنت المسلح، والجدران الخارجية لهذه المنازل مؤلفة من أحجار كبيرة تعطي انطباعاً بأن بناء البيوت متين جداً ولكن هذا مغاير للحقيقة، كما أن أساس المنازل هي الأخرى ليست متينة كما يجب لذلك فإنه عندما تصاب الأساسات تنهار المنازل بكاملها بطوابقها المتعددة وتسقط السقوف دفعة واحدة، واستخدمت الطائرات الإسرائيلية في غارتها الصاروخ الأميركي (Bullpop AGM 12) ويحدث انفجار هذا الصاروخ على بعد يتراوح بين ٣٠ و٤٠ متراً انفجارات في الجدران ومدرسة للعميان والطرشان لم تصب إصابة مباشرة بل نتج الدمار فيها من ضغط الانفجارات هذه، وكانت إسرائيل قد ادعت بالإغارة على أهداف

عسكرية في دمشق وربما كان هدف هذه الصواريخ هو وزارة الدفاع التي لا تبعد كثيراً عن هذه المنطقة ولا يمكن تصديق هذا الادعاء إذ أن الطيارين الإسرائيليين معروف عنهم عجرفتهم وغرورهم بأنهم دقيقون في إصابة الهدف، وقد أحضر أحد الطيارين بعد الغارة بقليل في سيارة جيب عسكرية إلى وزارة الدفاع فذكر بأن الطيارين الإسرائيليين لا يقومون بغاراتهم على دمشق برغبة لأن الخسائر كبيرة ولم يعترف بحقيقة مهمته بل آثر أن يلوذ بالصمت، ويعتقد هذا الطيار أن الصاروخ أرض ـ جو سام قد أحدث خللاً في طائرته فقذف بنفسه عندما تأكد من أنه لن يستطيع المناورة بها.

وأعلنت الأركان العامة السورية أنه قد أسقط أربع طائرات من الستة المغيرة، ونشرت الصحف السورية صورة لطيار إسرائيلي كانت جثته مفحمة وحول الطيار سلسلة من الحديد تربطه بالمقعد ووزارة الدفاع السورية تعلن بفخر أن الإسرائيليين يربطون طياريهم بالمقاعد حتى لا يغادروا طائراتهم من مجرد الخوف، ولم يؤيد ذلك ببرهان قاطع.

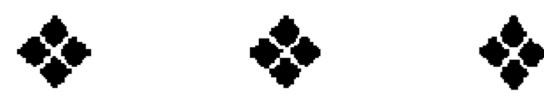
وعرض علينا السوريون في الأسبوع الأول من الحرب جرحى سوريين تمت إصابتهم بسلاح رهيب حيث كانت في أجسامهم كرات رصاصية صغيرة وكانت الجروح النسيجية فظيعة ولا تشفى إلا ببطء وهذه الكرات كانت تجلبها الطائرات الإسرائيلية ضمن قنبلة طولها ٢,٢ متر وتلقيها على تجمعات بشرية وعلى الأسواق وملاجئ الفلسطينيين وعند اصطدامها بالأرض ينفجر الهيكل وتتطاير منها ملايين من الكرات الرصاصية الصغيرة بقوة هائلة وبدائرة قطرها مئات الأمتار ومن لا يستطيع حماية نفسه لابد وأن يصاب بجروح، وتستعمل هذه القنابل ضد المدنيين

إذ لا مفعول لها ضد الجنود في سياراتهم ومدرعاتهم، وأغلب الجرحى من هذا السلاح يموتعون بسبب النزيف الدموي وأما الإصابات في الرأس بهذه الكرات فمعناه الموت حالاً وقد استعملت هذه القنابل ضد سوريا ودلتا النيل كما جاء في بلاغات وزارات الدفاع في كل من دمشق والقاهرة.

وكان للغارة الجوية على دمشق والقرى المحيطة بها صدى نفسي هائل، فالجندي السوري على الجبهة يصمد بكل قوة وشجاعة ولا يتراجع كما حدث في عام ١٩٦٧ ولا يهاب الأخطار ولكنه في اللحظة التي يشعر فيها أن مدينته في خطر يفقد الثقة وينظر إلى الوراء يريد أن يسرِع إلى أهله وذويه، وتبدو هنا بوضوح معنى الرابطة العائلية في الشرق إذ أن كل رجل يعتبر أن دوره هو حماية عائلته ويعتريه الشعور بأنه يجب أن يكون في أوقات المحن وسط أهله وذويه حيث يحتاجونه أكثر من أي وقت آخر، وتحدث هذه الغارة الجوية أثرها في الجبهة حيث بدأ ينتاب الجنود شعور بأن ذويهم لا يستطيعون التغلب على هذه المحن الصعبة دون رجالهم وكان هذا الشعور ملموساً في الجبهة، وبعد بضع ساعات من الغارة على دمشق شعر الإسرائيليون بالفرج حيث قل الضغط السوري على الجبهة الإسرائيلية، وأصبحت مهمة الضباط السوريين في الجبهة في الحفاظ على معنويات جنودهم صعبة وشاقة، وأخذ أكثر الجنود يرجون الحصول على إجازة للعودة لأهلهم ليروا فيما إذا كان قد حلّ بأحد منهم أذى، وأن يقوموا بدورهم في ترميم الأضرار التي لحقت بذويهم، وزاد هذا القلق لدى الجنود عندما راجت شائعات مفادها أن بعض الشباب قد أعفوا في هذه الأيام من الالتحاق بالجبهة في الجولان.

وتخطر للرئيس الأسد فكرة رائعة يستطيع بها إعادة الثقة إلى رجاله في الجبهة وكان ذلك أن أصدر قراراً مفاده: بأن كل جندي يقوم بواجبه في الجولان وبلا حدود يحصل على راتب مدى الحياة مقداره (٨٠ مارك) أي ما يعادل ١٢٠ ليرة سورية في الشهر كما نهيئ له ولأطفاله فرص التعليم أو التعليم المهني، وكان لهذا القرار صداه الكبير في بلد لا تتوفر فيه بعد تكافؤ الفرص للشباب ومستقبل الأطفال فيه غير مضمون وأصبح هذا القرار ضمانة لأطفال المحاربين على الجبهة، وغالباً لا تستطيع عائلات كثيرة تأمين تكاليف الدراسة الإعدادية لأطفالها، بعد صدور هذا القرار أصبح الجنود في الجبهة يتسابقون للقيام بواجبهم في المعركة والجندي البعيد عن الجبهة أصبح ينتظر بشوق التحاقه بها وأصبحوا يرون في هذا القرار أن تأديتهم واجباتهم على الجبهة خدمة غير مباشرة لذويهم وأفضل خدمة يمكن أن يقدموها لهم.

ومن ناحية أخرى فقد خدمت هذه الغارة الجوية على دمشق القيادة العسكرية السورية بصورة غير مباشرة حيث ضاعف الروس مساعدتهم العسكرية وبدأت تصل دمشق يومياً طائرات محملة بصواريخ سام، وتدمير المركز الثقافي الروسي زاد في غضب وحنق الروس على إسرائيل حتى أن يعقوب مالك السفير الروسي في الأمم المتحدة يغادر بغضب جلسة مجلس الأمن عندما يتقدم يوسف تقوا المندوب الإسرائيلي لمنصة الكلام فيصرخ يعقوب مالك في وجه المندوب الإسرائيلي (قتلة، مجرمون، قطاعي طرق،...) وكان قد ذكر المندوب السوفييتي أمام مجلس الأمن أن الإسرائيليين قد قتلوا ثلاثين دبلوماسياً روسياً، وطبعاً تبين فيما بعد أن هذه المعلومات نقلت للسفير الروسي كانت خاطئة إذ لم يقتل ولا روسي واحد في هذه الغارة على دمشق.



المال ـ عصب الحرب

عيون وزير المالية الإسرائيلي تدمع وهو يتحدث في مطار تل أبيب عن استعداد وكرم اليهود في أوروبا وأميركا بتبرعهم وتضحياتهم من أجل دولة إسرائيل. يقول بنحاس سابير وزير المالية: يهودا بدخل ضئيل يقدمون كل ما يملكون الكثير منهم يبحث عن أعمال إضافية ليقدموا دخلها ويتحدث سابير عن تفاؤل لا نصيب له من الصحة إذ يقول بالمال الذي يتبرع به يهود العالم سوف ننشئ بعد هذه الحرب اقتصاداً لامعاً وجباراً، مشاريع كنا قد أجلناها سوف نبدأ بتنفيذها الآن.

استطاع سابير أن يجمع حوالي مليارين من الدولارات في أوربا وأمريكا، ويهود أميركا وحدهم قدموا ٧٥٠ مليون دولاراً بالإضافة إلى ٦٥٠ مليون قدموها كقروض طويلة الأجل وعلقت جولدامائير على ذلك بقولها: أصدقاؤنا لن يتخلوا عنا في ساعات الشدة.

كل ساعة من الحرب كلفت إسرائيل عشرة ملايين من الدولارات وهذه الأموال كانت تنفق على التعبئة العامة بشقيها العسكري والمدني (الجيش، سلاح الطيران، مصاريف إضافية في حقل المواصلات لنقل الاحتياط) والعشرة ملايين دولار هي النفقات الجارية ولا تتضمن تكاليف شراء السلاح والذخيرة، فطائرة الفانتوم يتراوح ثمنها ما بين ١٨ و٢٥ مليون مارك وذلك تبعاً لتسليحها، لكن

إسرائيل في هذه الحرب لم تدفع ثمن الأسلحة والطائرات التي تلقتها من أمريكا كتعويض عما فقدته. في اليوم السابع من الحرب فرغت خزائن الدولة وكان قد كلف الأسبوع الأول لإسرائيل عشرة مليارات دولار وموازنة الدفاع الإسرائيلية تبلغ ثمانية مليارات من الدولارات، وإذا لم تحدث معجزة فإن ذلك يعني إفلاس دولة إسرائيل بصورة كاملة وقرض كبير في إسرائيل نفسها لا يؤمن مبلغاً كبيراً إذ أن الإسرائيليين أنفسهم مهتمون بالغلاء وارتفاع مصاريف معيشتهم اليومية وليسوا بوضع يمكنهم من تغطية نفقات الحرب، في اليوم العاشر للحرب يصدر مجلس نواب إسرائيل قراراً يفرض على الإسرائيليين تقديم قرض جديد لتأمين مورد سنوي للدولة يقارب ستمائة مليون مارك ويقول سابير: بهذا المبلغ كله يمكننا أن نطيل الحرب يوماً بعد يوم.

الحكومة الإسرائيلية تقرر أن تقوم بجباية ضرائب حرب وذلك بأن يدفع العمال ١٢٪ من دخلهم لخزينة الحرب، وفرض على شركات الاستثمار نسبة ٩٪ لكن جميع هذه الأموال كانت تكفي تمويل الحرب لبضع ساعات فقط، ورغم أن كثيراً من الإسرائيليين سحبوا أموالهم الموفرة في البنوك ليقدموها للدولة فقد بلغ مجموع التبرعات داخل إسرائيل ٣٠٠ مليون ليرة إسرائيلية وهذا المبلغ من وجهة النظر العسكرية كان لا يكفي لتمويل الحرب لأكثر من سبع ساعات ويتوصل سابير إلى الحقيقة التالية: وهي أن إسرائيل غير قادرة على تمويل هذه الحرب ويقول أنه على يهود العالم أن يتحملوا مسؤولياتهم، ويقوم بزيارة اليهود في الخارج وتعد المنظمات اليهودية في المدن الأمريكية لعقد اجتماعات يتحدث فيها سابير عن الأخطار المحدقة بإسرائيل ويقول: إذا لم تساعدونا فستكون هذه حتماً آخر حرب وسيكون هذا هو آخر اجتماع لي

بكم لأنه ربما لا يوجد بعد اليوم دولة تسمى إسرائيل، العرب غدروا بنا، هاجمونا في يوم عيد الغفران في أقدس يوم في السنة وغرضهم أن يطردونا من الأراضي التي نقدسها، أنتم يا يهود أميركا يمكنكم أن تمنعوا وقوع هذه الكارثة. ويطير سابير مع اثنين من مساعديه من مدينة إلى أخرى، التبرعات تتدفق وبرقية بالشفرة من السفارة الإسرائيلية في واشنطن إلى إسرائيل تفيد بأن مهمة سابير ناجحة، وحتى المواطنين الألمان اليهود يقدمون بتبرعاتهم وكانت وكالة الأنباء الألمانية Ap تذيع من بون ما يلي: يسأل مواطن ألماني يهودي من مدينة فرانكفورت السفير الإسرائيلي بن هورين قل لي ما عليّ أن أدفع ثم يرسل له شيكاً أبيض. ويبتسم السفير الإسرائيلي مجيباً سأضع المبلغ الذي أريده ويكتب على الشيك مليون مارك. وكان مجموع ما استلمته السفارة الإسرائيلية في بون من تبرعات خمسة عشر مليون مارك ويمكن بهذا المبلغ تمويل الحرب لمدة أربعين دقيقة وفي الأسبوع الثاني من الحرب قرر مجلس الشيوخ الأميركي تقديم قرض لإسرائيل بمبلغ مليارين من الدولارات.

أما الدول العربية لم يكن لديها مشاكل مالية في هذه الحرب: الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودي يقدم حالاً لكل من وزير المالية السوري وزميله المصري مليار دولار، وأمارة الكويت في الخليج ترسل ٢٥٠ مليون دولار والشيخ صباح السالم الصباح يقول هذه البداية وسوف نقدم كل ما عندنا، وأمارات قطر وأبو ظبي يحولون ٥٠٠ مليون دولار، العمال والموظفون الليبيون يتبرعون بـ ٢٥٪ من أجورهم ورواتبهم للحرب، معمر القذافي أعلن عن استعداده لتقديم جميع احتياطه المالي لمصر وسوريا ولكنه سرعان ما ينسى وعده هذا.

البلدان العربية المنتجة للبترول لديها في البنوك الأوروبية والأميركية مبلغ خمسة عشر ملياراً من الدولارات، الملوك والأمراء والرؤساء العرب يعلنون عن استعدادهم لتقديم جميع هذه المبالغ لأخوتهم المحاربين، وزير الإعلام السوري يقول حالتنا المالية على أحسن ما يكون، لأول مرة يتضامن العرب ويقفون صفاً واحداً، ويهود العالم ساعدوا إسرائيل في كل فترة حرجة مرت بها. وكلما كانت هناك حاجة لشراء أسلحة جديدة تبرعوا بأموال أكثر.

الملوك والأمراء العرب كانوا حذرين ومتريثين في الماضي وكان لديهم أسباب لذلك إذ أنهم لم يكونوا على ثقة من أن الأموال التي يقدمونها ستبذل فعلاً للمجهود الحربي.

الملك فيصل طالب بخطة حرب منسقة ومنظمة قبل أن يلتزم بتقديم دعم كبير وعندما اطلع الملك فيصل على خطة الشاذلي للحرب أعجب بها ومنذ ذلك الوقت لم تعد مصر تشعر بأزمات مالية، وفي نهاية الأسبوع الثاني للحرب يخفض العرب من إنتاج البترول وشحنه "حرب البترول تبدأ" ولكن هذه الحرب البترولية لم تكن دون نتائج على العرب أنفسهم فرغم رفع الأسعار المفاجئ نقصت الأموال التي كانت تتدفق على حساباتهم في بنوك لندن وجنيف ونيويورك. الرئيس المصري أنور السادات كان يرغب أن يقوم بحرب طويلة فيما إذا اضطر إلى ذلك والملك فيصل يحذره بقوله له: لمدة أقصاها ثلاثة أشهر ينفذ احتياطنا من المال، وبدون مال لا يمكننا إطالة الحرب ويبلغ احتياطي العرب من المال خمسة عشر مليار دولار، وفيما إذا أصر الروس على دفع ثمن الأسلحة نقداً فسرعان ما ينفذ هذا الاحتياطي.



أحد كبار الضباط الإسرائيليين يقول: هذا جيش آخر

لقد تعلم الضباط العرب كثيراً من عدوهم من ذلك أن الضباط ليسوا سادة والجنود عبيد لديهم، في حرب حزيران ١٩٦٧ كان الضباط المصريون يتخلون عن جنودهم وكانوا أول من يحاول النجاة بنفسه هارباً باتجاه القاهرة غير مهتم بمصير جنوده، في الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة كان التضامن في الجيش المصري بين الضباط وجنودهم لا مثيل له، بذلت الكلية العسكرية في القاهرة جهوداً جبارة في سبيل هذا الهدف وذلك بتغيير عقلية وكيان الضباط.

مقابلة مع وكيل مدير الكلية العسكرية في القاهرة

اللواء المصري يتحدث عن ذكرياته في مدينة شتوتغارت (المؤلف من مواليد هذه المدينة) ويسألني ما اسم ملعب كرة القدم الكبير في شتوتغارت Nekar أليس كذلك؟ ولم ينس أنه لم يكن يسمح لهم بالسير فوق هذا الملعب، إذ أنه كان عضواً في الفريق العسكري المصري لكرة القدم الذي اشترك بالمباريات العسكرية الدولية عام ١٩٦٤ في مدينة شتوتغارت في ألمانيا الغربية. ويتابع اللواء علي زوار قوله: كان ذلك قبل حزيران ١٩٦٧ ومنذ ذلك الوقت وللأسف لم يعد لدي الوقت للعب كرة القدم ويتابع ذكرياته الحلوة عن ألمانيا الغربية.

اللواء علي زوار وكيل مدير الكلية العسكرية في القاهرة طويل القامة بشوش دائماً وينحدر من عائلة غنية لقد أصبح ضابطاً لسببين. الأول: لأن ذلك كان تقليداً في عائلته والثاني إرضاء لميوله. وقد شارك في جميع الحروب ضد إسرائيل ولكنه كان يفضل دائماً أن يلعب كرة القدم، يقدم لنا جندي شوربة لم يكن طعمها ليوافق مذاقي وزميلي المصور الصحفي ولكن اللواء الذي لاحظ ذلك بادرنا مازحاً أنها من إعداد فتياتي وأرجو أن تنال استحسانكما وسيسرهن ذلك. وحتى اللحظة التي وصلنا فيها إلى مكتبه لم نكن نصدق بأنه

سيتم لنا فرصة زيارة هذه الكلية، لقد نلنا موافقة كل من وزارة الإعلام والأركان العامة وإدارة المخابرات على طلبنا الذي استغرق أياماً عديدة. في طريقه من مكتب إلى آخر وكان من الممكن لأي من هذه المراجع أن يرفض الطلب كما كان هناك خطر ضياعه في أي مكتب من المكاتب العديدة التي مر بها وألان نجد أنفسنا في الباحة الكبرى للكلية العسكرية وداخل الجدار المحيط بالكلية الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار، وتقع الكلية على الطريق الذي يصل بين القاهرة والمطار، هنا يعد الشباب للحرب ويهيئون لها، ويتلقى التعليم فيها حوالي أربعة آلاف طالب وجميعهم من حملة شهادة الدراسة الثانوية وهم من أبناء طبقة معينة وآباؤهم إما ضباط أو محامون، أطباء، ملاكون، وفي الواقع يستطيع كل مواطن تتوفر فيه المؤهلات أن يتقدم بطلب للالتحاق بهذه الكلية ولكن عدم مقدرة الطبقة الفقيرة من الدخول إلى المدارس نتج عنه أن يكون هؤلاء الطلبة من أبناء طبقة معينة، وشروط الانتساب للكلية قاسية جداً وخاصة في مواد الرياضيات واللياقة البدنية، وكثيراً من العائلات تنفق أموالاً كثيرة لإعداد أولادها لاجتياز فحص القبول لهذه الكلية ويدفعون نفقات تأهيلهم في دورات خاصة إذ أن هناك معاهد يقوم بإعداد طلبتها ضباط متقاعدون وتبلغ نفقات هذه الدورات التحضيرية (١٥٠٠) مارك وهذا المبلغ يعتبر هائلاً في مصر. ولكن التقاليد في مصر أن يكون أحد أبناء العائلة ضابطاً شرفاً لعائلته ويستحق جميع التضحيات. الملازم له مكانة محترمة كما يعني ذلك نوع من التفوق الاجتماعي للعائلة التي ينتسب لها، وبينما يتطاحن الألوية والعقداء على السلطة في البلاد العربية الأخرى، لا يقوم الضابط

المصري بهذا الدور حالياً. فمثلاً في العراق ينتمي قادة القطعات لأجنحة مختلفة لحزب البعث الحاكم ويكن هؤلاء الحقد لبعضهم البعض وكل منهم ينتظر الفرصة للإطاحة بزملائه، أما في سورية فقد أجل الإعداد للحرب هذا التطاحن إلى وقت آخر هذا ويعود الفضل إلى أنور السادات في إبعاد جيشه عن السياسة وكل ما يسمح به للجيش المصري هو تبني فكرة الوحدة العربية من الخليج إلى المحيط وأما الالتزام الحزبي فمحظور على أفراد الجيش وعبر السادات عن ذلك بقوله إن الجيش هو للقتال والدفاع عن الوطن وليس لاحتراف السياسة وقد كان قاسياً في تطبيق تعاليمه هذه ورأينا ذلك بإقالة وزير الحربية محمد أحمد صادق عندما بدأ يتدخل في السياسة والفريق شاذلي هو المثل الذي يتخذه السادات للضابط، إذ أن الشاذلي يتميز بالطموح العسكري فقط ومبادئه التي يدعو إليها في صفوف الضباط هي الإخلاص والشرف والأمانة والقتال من أجل الوطن.

سؤال طرحته على اللواء زوار هل يوجد في الكلية العسكرية دروس سياسية؟ يجيب سياستنا هي الواجب والشرف والوطن نعطي المقاتلين والجنود دروساً في الإخلاص والأمانة لقادتهم، الثقة بسلاحهم، الثقة بأنفسهم كمقاتلين وغير ذلك من دروس سياسية لا يوجد في كليتنا.

واستطعنا أن نحضر درساً في التعليم على الأسلحة ولاحظنا ظاهرة رئيسية في التدريب العسكري استمدت من التعاليم العسكرية الروسية وتعتمد هناك كأساس وهي أن المعارك يجب أن يرافقها دائماً صراخ المقاتلين، رأينا كيف يصعد الطلاب الضباط الدبابات ٥٤ 54 – T وهم يطلقون صيحاتهم وبنفس

الصراخ يغادرونها وكان كل ما يقوم به الطالب مرفقاً بالصراخ سواء بإغلاق برج الدبابة أو بتهيئة المدافع للقصف، هذه الصرخات غير المفهومة رأينا جزءاً من التدريب العسكري وهو ما من شأنه أن يقوي العزيمة والصلابة والشجاعة وتشبه صيحات الجنود المصريين صيحات الروس في هجماتهم في الحرب العالمية الثانية وكثيراً من الألمان الذين كانوا على الجبهة الشرقية لا تزال مرسومة في مخيلتهم هذه الصيحات ويتذكرونها جيداً.

وقد تسنى لي في هذا اليوم أن أرى الأسلحة الرئيسية التي يتم التدريب عليها في الكلية وهكذا تسنى لي أن أطلع على قسم كبير من الأسلحة التي استعملت في هذه الحرب باستثناء الأسلحة الإلكترونية. جميع السيارات والمدرعات روسية المصدر، هاون م ٣٨ من عيار ١٢,٢ سم يبلغ مداه ثمانية كيلومترات ويطلق ستة قذائف في الدقيقة، مدافع ميدان ت ١٢ من عيار ١٠ سلاح جبار ضد أهداف متحركة وضد الدبابات، مدفع م ٧٦ من عيار ١٣ سم مداه من ١٠ إلى ٢٠كم ويطلق ما بين ٥ إلى ٦ قذائف في الدقيقة قاذفات صواريخ طراز م ٥١ و ب م ٢٤ يستعملان ضد التجمعات الكثيفة ومداهما يتراوح ما بين ٦ و٧كم.

وقد قام طلبة الكلية أمامنا بعرض لحرب الصحراء، وأهم سلاح يستعمل فيها هو الدبابات ت ٥٥ ولونها التمويهي يشبه لون الرمال مما يؤمن لها حماية جيدة في الصحراء، والمصريون يخبئون الدبابات داخل حفر مغطاة ومموهة، والهجوم بالدبابات يحميه المشاة الذين يتقدمون الدبابات وإلى الجانبين

والمزودين بالمدافع المضادة للدبابات كما يوجد في مقدمة الدبابات عجلات فولاذية ضخمة مهمتها تفجير الألغام التي قد توجد على طريقها، وعلى ما يظهر أن تعاليم رومل وخبراته في حرب الصحراء تطبق في الجيوش العربية، ومن الآثار التي لاحظتها على الرمل لابد وأن هذه التمارين تجري باستمرار هنا.

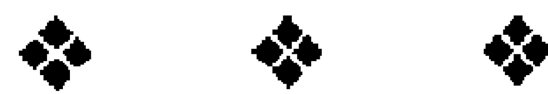
الحرب تكشف عن نقاط ضعف كبيرة في الجيش المصري إذ أنه يصعب على الضباط المصريين في الجبهة أن يتحللوا من سيطرة الأسس والمبادئ التي تعلموها في الكلية العسكرية وينقصهم ذلك التلاؤم مع حاجات المعارك المتبدلة والظروف الجديدة التي تنشا خلال المعركة فما تعلموه في الكلية يرون أنه يجب عليهم تطبيقه بحذافيره وهذا ما لم يُعتنِ به في الكليات العسكرية العربية، وخطأ فاحش في حرب ١٩٦٧ يبرهن لنا على ذلك:

في ذلك الحين تهيأ الدفاع الجوي المصري في تدريباته على فرض أن الطائرات المعادية عليها أن تأتي من الشرق أو من الشمال أي من إسرائيل مباشرة أو عن طريق البحر إلا أنه حينما قامت الغارات من الغرب وعلى خلاف ما كان متوقعاً فقد دبت الفوضى والحيرة والقلق في أجهزة الدفاع الجوي المصري وبدت مشلولة تماماً ولم تؤدِ دورها. ومثال آخر من الحرب الحالية أن عبور الإسرائيليين لقناة السويس ووصولهم إلى الضفة الغربية كان من المفروض أن يوقف في الساعات الأولى ويقضى عليه ولكن سبب هذه الكارثة يعود إلى أن أحد قادة القطاعات المصرية في تلك المنطقة لم يعطِ للعبور الإسرائيلي الأهمية اللازمة.

وللأسف نرى هنا أن سعد الدين الشاذلي لم يتهيأ له الزمن الكافي لأن يخلق في ضباطه زمام المبادرة والتفكير المبدع من وحي المعركة وما يطرأ على

مجراها من تغييرات ولكن مع كل ذلك فإن قابليتهم لأن يتعلموا كان بجد ذلك نجاحاً ملموساً في الفترة ما بين الحربين، ومن حسنات الشاذلي أنه استطاع أن يزيل الشعور بالتمييز الطبقي في صفوف الجيش وخاصة لدى الضباط وفي الوقت نفسه أراد لهم أن يشعروا وعن حق بأنهم نخبة مثقفة في المجتمع. أسأل اللواء زوار عن شخصيات يقتدي بها الطلاب الضباط فيجيبني صلاح الدين ويتابع قوله ليس صلاح الدين الحاكم المراوغ ولكن صلاح الدين المحارب والذي حرر القدس من الصليبيين ويختتم زيارتنا اللواء علي أبو زوار بقوله: بعد حرب حزيران ١٩٦٧ فقد جيشنا ثقته بنفسه وقد واجهنا مشاق جمة لإعادة الثقة بالنفس إلى جنودنا وضباطنا من جديد والأصعب كان أن نقنع الجندي المصري بأن الإسرائيليين ليسوا آلهة.

وأعتقد أنه لازال على الجنيش المصري أن يحدث تعديلات كثيرة في عقلية وتكوين الجندي المصري ففي درس لطلبة الكلية باللغة العبرية سأل اللواء أحد الطلاب أمامنا لماذا نتعلم اللغة العبرية؟ فيجيب الطالب: حتى إذا أسرنا إسرائيلياً أن نفهم منه ماذا يريد، أترك هنا للقارئ مدى الحرج الذي ألم باللواء المصري وخجله على هذا الجواب وبعد فترة من الصمت ما لبث اللواء أن صحح للطالب هذا الجواب وبعنف قال هذا خطأ فإذا أسرنا إسرائيلياً يجب أن نعرف لغته لنكون على استطاعة من استنطاقه والحصول منه على معلومات تفيدنا.



حيرة الملك

يذيع الملك حسين على نفس الكرسي الذي كان عليه في عام ١٩٦٧ عندما اعترف بالهزيمة الكبرى آنذاك، كرسي العرش أحمر بني ويحمل تاجاً ذهبياً، حسين بلباس ضابط يشرح بصوت جهوري الأسباب التي دعته لأن يدخل الحرب يقول: عندما تدور الحرب حول فلسطين فأنا أول من يدخلها، وكنت في شهر آب ١٩٦٧ قد أعلنت أمام هيئة الأمم المتحدة أن على إسرائيل الخيار بين احتلال أراضينا أو السلام ولكن لا يمكن لها أن تحلم باحتلال أراضينا والسلم في آن واحد وحذرت آنذاك من الأخطار التي تكمن في هذه المنطقة وأقول بكل صراحة أننا لازلنا بعيدين عن السلم وقد يكون العكس هو الصحيح فلربما كانت إسرائيل اليوم لتغير موقفها حقاً وإذا كان ذلك فعليها أن تتصرف بسرعة وقبل فوات الوقت.

هذا المقطع من خطاب الملك في المقارنة بين مساوئ ومحاسن الدخول في الحرب تعبر عن الحيرة لدى الملك. في اليوم الأول من الحرب ألح الضباط الأردنيون على الملك للدخول في المعركة وحجتهم في هذا الطلب عبروا عنها بقولهم: لقد هزمنا في حرب ١٩٦٧ وعلينا أن نمحي هذا العار وأن نعيد شرف الضابط الأردني والآن تبدأ ساعة المجد والشرف للجندي العربي وعلينا أن

نشارك في هذه الساعة التاريخية ونعمل على استعادة الشرف الضائع ولا يمكننا أن نقف مكتوفي الأيدي متفرجين، وكلما وصلت أنباء جديدة عن انتصارات من القاهرة ودمشق كلما نفذ صبرهم وضاقوا بالانتظار ويقولون العرب ينتصرون ونحن نجلس في بيوتنا لكن الملك حائر في تصديق هذه الأنباء وكان يخشى أن تكون كبلاغات اليوم الأول لحرب ١٩٦٧ ولكنها في الوقت نفسه تغريه للدخول في الحرب. ويرجو الرئيس السادات الملك حسين أن يقوم بواجبه الذي وعد قبل أربعة أسابيع بأن يعيد انضمام الجيش إلى الجبهة العربية وكان على الأردن بالتعاون مع سورية أن يفتح الجبهة الشرقية وهو بعد وعده هذا أعيد ضمه إلى حلقة القادة العرب، فمنذ خريف ١٩٧٠ كان الملك منبوذاً من قبل السادات والأسد ولم يكن أحد منهما ليقبل التكلم معه بل قد تناسوا وجوده، والرئيس الليبي معمر القذافي أعلن عن استعداده، لدفع مليون دولار مكافأة لأي ضابط أردني يقتل الحسين وتجرأ أحد الضباط للقيام بهذه المحاولة ولكنه أعتقل قبل التنفيذ وأغلب الرؤساء العرب ينتظرون أن يسقط الملك حسين ولكنه استطاع أن يبقى للآن رغم الانعزال والمقاطعة، وقد جلب حسين لنفسه غضب وحقد الرؤساء العرب عندما ضرب الفلسطينيين في خريف ١٩٧٠ ومنذ ذلك الحين لم يعد للفتح والجبهة الشعبية أي وجود في الأردن بعد أن كانت هاتان المنظمتان دولة ضمن دولة وكادت أن تفوق في سيطرتها سلطة الملك نفسه إذ كانت هاتان المنظمتان تحكمان أجزاء كبيرة من الأردن ولم يبق آن ذاك لحسين سوى الجيش الذي له أن يعتمد عليه، وقد كان هدف الفلسطينيين في الأراضي المحتلة أن يحولوا عمان إلى هانوي عربية وأن ينطلقوا

في حربهم الشعبية لتحرير فلسطين والأراضي المحتلة من عمان، ولم يكن هدف فتح الإطاحة بنظام الحكم وإنما الحصول فقط على الحرية التامة لمقاتليهم، ولم يكن في تعبير ياسر عرفات شيء من الذكاء والحذر عندما قال: يستطيع الملك أن يحكم إذا تركنا أن نفعل ما نريد ولا يتدخل في أمورنا، وكانت المنظمات الفدائية ترسل فدائييها عبر الحدود للقيام بعملياتهم في الأراضي المحتلة دون أن يكون للملك أو لجيشه سلطة على تحركاتهم أو علم بها مما دفع إسرائيل أن تقوم بعمليات انتقامية ضد الجيش والمدنيين وغالباً في وادي الأردن، وحاولت قوات الملك بوحي منه أن تتعرض للفدائيين وتمنعهم من عبور نهر الأردن وتعتقلهم، وحدث أول صدام بين الفدائيين وقوات الجيش عند قرية جونيه حيث سقط لأول مرة فدائيون في اشتباك مع الجيش الأردني.

ولم يكن الضباط الأردنيون آن ذاك على استعداد للتعرض للفلسطينيين الذين كانوا وحيدين في قتال العدو المشترك، ولكن الضباط أثيروا بغطرسة وعجرفة عرفات وجورج حبش اللذين شعرا وكأنهما ملوك في عمانٍ وزاد من غطرستهم أنهم أصبحوا يصدرون جوازات سفر خاصة بهم ولوحات لسياراتهم تختلف عن اللوحات الأردنية وأصبح الفدائيون يقومون بمهمات إدارية وتنفيذية ومهمة الأمن في العاصمة وعند ذلك نفذ صبر الجيش والملك.

وعندما بدأت حركة التحرير الشعبية اختطاف الطائرات المدنية قال الملك حسين أن هذا عار علينا وأصدر آن ذاك أوامره بطرد الفدائيين من عمان ثم من الأردن، ويعود الملك من جديد السلطة الوحيدة في بلده لكنه بعمله هذا أثار حقد وغضب الحكام العرب ولم يكن بنظرهم حتى عام ١٩٧٣ سوى سفاح

عمان والمسؤول عن مقتل عشرين ألف فلسطيني، ولم يعد له اعتبار إلا بعد أن وعد بأن يشترك الجيش الأردني من جديد في تدعيم الجبهة الشرقية ولكن الملك لم يكن صادقاً في وعده وإنما وجد في ذلك خدعة سياسية ينهي بها غضب وحقد حكام دمشق والقاهرة وليتمكن من العودة إلى المجال العربي ويخرج من عزلته الطويلة هذه، ولا يرى هناك أي خطر من انتقاد السادات والأسد إن هو لم يبر بوعده ويقول لقواد جيشه لن نتدخل مرة أخرى ضد إسرائيل ولن أحيد عن رأيي هذا إلا عندما أرى أن هناك تصميماً تاماً وإستراتجية شاملة وتخطيطاً عاماً للدخول في حرب مضمونة النجاح مسبقاً، ولا أريد التورط في مغامرات جديدة إذ أن الملك سبق له أن دفع الثمن غالياً في المغامرة مع إسرائيل، الذي صدق الانتصارات المصرية التي أعلن عنها جمال عبد الناصر في بداية حرب حزيران ١٩٦٧ ودخل الحرب رغم أنه لم يكن ضمنياً قانعاً بالمشاركة بها، لقد أعلن المصريون يومها أن تل أبيب تحترق، السوريون أعلنوا تحريرهم لمناطق كبيرة من فلسطين مما جعل حسين يرى أن الفرصة مناسبة للمشاركة في ضرب إسرائيل ولكن الواقع أن الحرائق لم تكن تلتهم تل أبيب ولكن الجيش المصري كان قد بدأ الانسحاب من سيناء والسوريون أضاعوا مناطق جديدة وكان حسين ضحية لهذه الأنباء غير الصحيحة.

في حرب حزيران ١٩٦٧ كانت هناك خطة عربية شاملة وقيادة موحدة وكان رئيس القيادة الفريق محمد فوزي ووكيله في الأردن الفريق عبد المنعم رياض وقد كانا المسؤولين المباشرين لتلك الخسائر الكبرى التي لحقت بالأردن آنذاك بسبب أخطائهم القيادية فقد كان الفريق عبد المنعم رياض يومها يجهل طبيعة المناطق

الجبلية الوعرة في الضفة الغربية لنهر الأردن، يضاف إلى ذلك أن كلاً من الفريق فوزي والفريق رياض كانا يتباحثان في خططهما الحربية بواسطة الهاتف، ويقول الملك: كنا هيأنا أجهزة اتصال حديثة جداً للقيادة المشتركة ولكن للأسف أن هذه الأجهزة بقيت في القاهرة ولم ينته تركيبها في ذلك الحين.

ونتيجة لحرب حزيران ١٩٦٧ كان ضياع الضفة الغربية بمدنها: نابلس، الخليل، بيت لحم، جنين، وانتقلت القدس بكاملها ليد إسرائيل، وضياع القسم العربي مؤلم جداً للأردنيين خاصة ولكل مسلم عربي بصورة عامة لأنها مدينة مقدسة لدى المسلمين وصخرة المعراج والمسجد الأقصى يشكلان مع الكعبة في مكة أقدس المقدسات الإسلامية ومن هذه المدينة ورد القرآن أن النبي محمد قد أصعده الملاك جبريل إلى السماء ليريه جنات الخلود، القدس هي ثالث الحرمين وهي بالنسبة للمسلمين أقرب مكان للسماء على الأرض، ولكنها في نفس الوقت مدينة مقدسة لكل من اليهود والمسيحيين أيضاً لكونها مركز دياناتهم ففيها حائط المبكى وطريق الآلام ومعبد دافيد. وكان اليهود قد منعوا على أثر تقسيمها في عام ١٩٤٨ من زيارة مقدساتهم في القسم العربي ولكنهم وصلوا إلى تلك الأماكن بواسطة الحرب في عام ١٩٦٧. ويعرف الملك حسين جيداً أن الإسرائيليين لن يتخلوا بشكل ما عن حائط المبكى ويتركوه تحت إدارة الأردنيين أو غيرهم ولكن واجبه باعتباره من سلالة الأسرة الهاشمية أن يعيد المدينة المقدسة إلى أيدي العرب، ولا يود أن يذكر يوماً ما في التاريخ أنه الحاكم الذي أضاع القدس ولم يستردها، ويجب أن تعود القدس ولو بصورة جزئية مدينة عربية وإذا لم يكن ذاك عن طريق الحرب فليكن عن طريق السلم بواسطة الجهود السياسية الماهرة.

فوجئ الملك حسين بالحرب العربية - الإسرائيلية الرابعة خاصة وأنه لأيام خلت كان في القاهرة حيث التقى بالسادات والأسد ولم يسمع أية كلمة منهما بهذا الخصوص، ولم يكن وعده السابق بالاشتراك في الجبهة الشرقية إلا لقناعته بأنه لن تكون هناك أية حرب، وفي اليوم الأول للحرب ألح السوريون والمصريون على الأردن الدخول لأن نجاحها يتوقف على فتح الجبهة الأردنية إذ يفرض ذلك على إسرائيل أن تبعثر قواتها عندما تفتح عليها جبهة ثالثة، ويستمر صمت حسين ٢٤ ساعة قبل أن يتصل بالرئيس السادات ليقول له أنه قد فوجئ بقيام الحرب ولم يكن مستعداً لها ولذلك فإنه يرفض فتح جبهة ثالثة ويعد أن يرسل ما يستطيع من قوات عسكرية أردنية للمساهمة في الحرب.

ويبلغ عداد الجيش الأردني ٧٢٨٥٠ جندياً وهذا عدد هائل لبلد يبلغ تعداد سكانها ثلاثة ملايين نسمة[1]، وعماد سلاح الجيش الأردني هو سلاح الدبابات ويوجد لديه منها ٤٠٠ دبابة وقد زودته الولايات المتحدة بدبابات من طراز م - ٤٧ - وم - ٤٨ لكن الضباط الأردنيين غير راضين عن هذه الدبابات لأن أجهزتها معقدة جداً وصيانتها تحتاج إلى أخصائيين أمريكيين لعدم توفر الأخصائيين الأردنيين لهذا النوع، ويفضل الضباط عليها الدبابة البريطانية سنتوريون وشيفتن وخاصة لبعد مدى مدافعها، ونقطة الضعف في الجيش الأردني أنه لا يملك سلاحاً جوياً، فقد سلاحه الجوي في حرب ١٩٦٧ إذ دمر آنذاك على الأرض، وبين الحربين قدمت الولايات المتحدة ١٥ طائرة من طراز ستار فايتر

1 يبلغ تعداد سكان إسرائيل ثلاثة ملايين تقريباً ولكن يبلغ تعداد جيشها ٣٠٠,٠٠٠ جندي.

starfighter ولكن ماذا بإمكان خمس عشرة طائرة أن تفعل في حرب حديثة وماهي الانتصارات التي يتوقع منها أن تحصل عليها، والقاعدة في الحرب في الشرق الأوسط هي التنسيق بين كل من سلاح المدرعات والسلاح الجوي، وماذا يفيد سلاح المدرعات بدون أن تؤمن له الحماية الجوية ولهذا السبب ولضعف سلاح الجو الأردني لم يشأ الملك أن يعيد كارثة حرب حزيران ١٩٦٧ حينما أباد السلاح الجوي الإسرائيلي سلاح المدرعات في الجيوش العربية.

يبلغ طول الجبهة الأردنية ٤٠٠ كيلو متراً من العقبة على البحر الأحمر وحتى مدينة إربد على الحدود السورية ويشكل وادي الأردن أهم منطقة إستراتيجية في هذه الجبهة ويبلغ طوله حوالي مئة كيلو متر، ويقوم على نهر الأردن الذي يبلغ عرضه ١٥ متراً، جسران هما جسر دامية الذي يصل عمان بنابلس، وجسر اللنبي الذي يقع على طريق عمان ـ القدس، ويقع على ارتفاع ٣٧١ متراً تحت سطح البحر، ووادي الأردن منخفض جداً بشكل قوي. ولا يتجمع الجيش الأردني حول خط الهدنة إذ تقع غالب معسكراته إلى الشمال الشرقي من العاصمة عند مدينة المفرق، وفتح الجبهة الأردنية يعني أنه على المدرعات أن تتجه إلى وادي الأردن، وفي منعطفات الطريق بين مدينتي السلط والكرامة تكون الدبابات الأردنية هدفاً سهلاً ولقمة سائغة لسلاح الجو الإسرائيلي وأن أية خطة للهجوم باتجاه القدس أو أريحا عبر جسر اللنبي غير واردة البحث لدى الأركان الأردنية، بينما يصلح الطريق من المفرق إلى إربد وباتجاه معان أكثر من غيره رغم أن الطريق غرب إربد لا يفسح المجال أمام العربات المدرعة للمناورة وذلك لضيق هذا الطريق بالقرب من إربد، كما أنه يصعب على القطعات التحرك ليلاً لأنه على سائقي المدرعات

اجتياز عقبات ومنعطفات كثيرة وهذا لا يمكن أن يتم إلا في النهار، كما أن أي عطل يطرأ على إحدى العربات المدرعة لابد وأن تكون نتيجته إقفال الطريق في وجه القافلة، وبدون تفوق جوي لا يمكن لأية خطة هجومية أن تصيب حظاً من النجاح في ظل هذه الظروف.

والجيش الأردني لا يملك صواريخ أرض ـ جو تساعده على حماية أجوائه وتعوض نوعاً ما عن ضعف السلاح الجوي، وكانت إنكلترا قد زودت الأردن بصواريخ أرض ـ جو من طراز تيجر ـ كات (Tiger – Cat) والتي كانت حتى باعتراف الشركة المنتجة شورت بروترز (Short Brothers) لا تصلح إلا ضد الطائرات السريعة جداً، وليس لهذا النوع من الصواريخ تلك المحاسن والتفوق الإلكتروني التي تتميز بها صواريخ سام ٦ (SAM – 6) وهذا الصاروخ البريطاني يمكن لجندي واحد أن يوجهه إلى الهدف ويتتبع الجندي سير الصاروخ باتجاه هدفه ويمكن له توجيهه بواسطة نظام خاص موجود في قاعدة إطلاقه هذا إضافة إلى التوجيه الذاتي لهذا الصاروخ بواسطة ذبذبات لاسلكية توضح الهدف للصاروخ.

ولا يكفي هذا السلاح لوحده من تشكيل نظام دفاعي جوي متكامل يسمح للجيش الأردني بتحدي سلاح الجو الإسرائيلي، لذلك يرجو الملك حسين الملك فيصل أن يرسل السلاح الجوي السعودي لمساعدة الأردن، والمملكة العربية السعودية تملك سلاحاً جوياً فعالاً عماده الطائرات المقاتلة البريطانية من طراز لا يتنغ (Lighthing) ولكن الطائرات الجاهزة للقتال لم يكن ليتعدى عددها عشرين طائرة وأغلب طياري هذه الطائرات لازالوا يتدربون على استخدامها وهذا ما يجعل

من المستحيل على سلاح الجو السعودي تقديم المساعدة المطلوبة، الضباط الأردنيون يضغطون على الملك رغم جميع العقبات والظروف التي سبق شرحها لأن يدخل في المعركة ويقول هؤلاء الضباط أنه مهما كانت النتائج فالقتال هو أشرف من متابعة المعركة عن بعد، وكان حسين قد أنذر بطريق غير مباشر من قبل السفير الأميركي في عمان دين براون (Dean Brown) من القيام بعمل ما، وللسفير الأميركي وزنه لدى الملك حسين إذ أن الولايات المتحدة تضمن استمرار قيام المملكة الأردنية بواسطة مساعدتها المالية لها منذ أن أوقفت الدول العربية مساعداتها للأردن، فبعد حرب الإبادة التي قام بها حسين ضد الفلسطينيين أوقفت الكويت والمملكة العربية السعودية وليبيا مساعداتها المالية السنوية والتي كانت تبلغ ١١٢ مليون دولار، وعندما ساء الوضع المالي في الأردن وأوشكت الأوضاع أن تنهار في عام ١٩٧١ أعلنت الولايات المتحدة الأميركية عن استعدادها للقيام بوفاء ديون الأردن ومنذ ذلك الوقت ينقل دين براون إلى واشنطن قائمة برغبات الأردن، إلا أن الولايات المتحدة لم تقم بتقديم الطائرات للملك حسين رغم رجائه وطلبه المتكرر والمستمر والذي كان نصيبه دائماً الرفض من قبل واشنطن رغم أنهم كانوا يدفعون ثمن الدبابات والأسلحة البريطانية التي كانت تشتريها الأردن، ولا عجب في ذلك إذ أن أميركا ترى أن مهمة سلاح المدرعات هي حماية الملك ونظام حكمه ضد المحاولات الانقلابية أو التخريبية من الفلسطينيين وضد أطماع توسعية سورية ومن مصلحة الولايات المتحدة أن يستمر وضع الأردن كما هو عليه وأن يبقى حسين على رأس الحكم لاعتقادها بأن وجود رجل واقعي ومعتدل مثل حسين يخدم الاستقرار في المنطقة أكثر من استلام

الفلسطينيين السلطة في هذا البلد ، وكانت أميركا تخشى دائماً من قيام انقلاب فلسطيني في الأردن يطيح بالملك خاصة وأن ما يزيد على نصف سكانها هم فلسطينيون ، وبالدبابات يمكن دائماً القضاء على أية حركة سورية الاتجاه من هذا النوع داخل مخيمات الفلسطينيين ، وسلاح الدبابات كان له الفضل في إنقاذ النظام الملكي والملك عام ١٩٧٠ .

في ٦ تشرين الأول ١٩٧٣ حضر السفير الأميركي إلى القصر الملكي لزيارة حسين ، ولكن الملك لم يكن هناك فالتقى بمستشاره وقام براون بإبلاغه أنه تلقى إشعاراً من واشنطن مفاده أن الولايات المتحدة تعمل كل جهدها لتضمن عدم قيام إسرائيل بأية عمليات عسكرية ضد الأردن وللمحافظة على حسن سير العلاقات المشتركة الأردنية ـ الأميركية تنصح الولايات المتحدة الملك حسين ألا يتدخل في أية عمليات عسكرية ضد إسرائيل ، وكان رأي السفير أن الحرب لن تطول وستنتهي كما انتهت الحروب السابقة بالهزيمة للعرب ، وعلى الأردن أن تعلم بأن أميركا ليست على استعداد لأن تقوم بتسليح الجيش الأردني من جديد في حال خسارته ، ويؤسف السفير جداً أن تضيع الأردن مناطق جديدة في نهاية الحرب إن هي شاركت بها .

وبعد مضي أسبوع على الحرب لم يعد باستطاعة حسين أن يبقى متفرجاً ، أنباء الانتصارات لم يعد يشك بصحتها ، المصريون على الضفة الشرقية وقد تخطو خط بارليف ومركزهم متين جداً ، الحرب لم تكن حرباً خاطفة كحرب حزيران ١٩٦٧ ، الجندي العربي استعاد ثقته بنفسه استعاد شرفه وكرامته ، الملك حسين يجد أن عليه المشاركة الآن ويخبر الملك السفير براون بقراره هذا

ولكنه يرجو السفير الأميركي أن يتفهم موقفه قائلاً أنه إذا لم يتدخل الآن فإنه سيخسر ثقة جنوده، ولن يعتبروه ملكهم وسيسقط من أعينهم كرجل بل سينظرون له نظرة جبان، وهو يحتاج جداً إلى ثقة جيشه فهم عماد حكمه ولا يستطيع الاعتماد على غيره كما عليه أن يعطيهم الفرصة للمشاركة في انتصارات هذه الحرب وإلا ضاع حكمه في الأردن وإلى الأبد.

وقد جرى إخبار إسرائيل بالطرق الدبلوماسية برغبة حسين وحيرته في نفس الوقت، ولم يكن لدى دافيد العازار قابلية لفتح جبهة ثالثة عليه ويكفيه ما أمامه من مهام شاقة وصعاب على الجبهتين ويعطي وعده أن يترك الأردن بأمن وسلام ولن يكون غاضباً جداً فيما إذا اشترك حسين ببعض العمليات العسكرية، وعن طريق واشنطن يخبر الملك بأن إسرائيل لن تكون غاضبة جداً عن نيته في الاشتراك في العمليات.

حينها يبدأ حسين وبكل حذر خطواته للاشتراك في الحرب ولكن في جو كبير وهائل من الدعاية، فتعلن أجهزة الإعلام (بدأنا منذ قيام الحرب في التعبئة العامة، جنودنا اتخذوا أماكنهم على الجبهة الأردنية أطول جبهة مع إسرائيل، بانحناء أمام شهدائنا أمام ضريح آبائنا وأجدادنا يدخل جنودنا المعركة، نحن نتقدم إلى الجبهة السورية، قواتنا تعلن عن وقوع ضحايا وجرحى في صفوفها لكن الأحياء منهم يقومون بواجبهم خير قيام ويرفعون شرفنا عالياً). ويرى حكام مصر وسوريا في هذه الدعاية أنها تعوض أعمالاً بأقوال. ويعبر تشكيل مدرع واحد فقط الحدود السورية عند مدينة الرمثا باتجاه شيخ مسكين ونوى ويضع نفسه تحت تصرف القيادة السورية ويعرب عن استعداده للقتال.

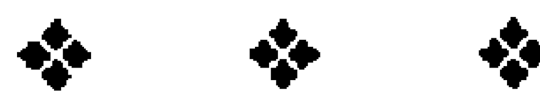
وتقوم الملكة عالية بالحملة الدعائية في الأردن وهي الزوجة الثالثة للملك حسين، وكانت سابقاً موظفة في قسم العلاقات العامة للخطوط الجوية الأردنية، وهي فتاة مصرية، رياضية، درست في نيويورك. وتستخدم الملكة ذكاءها وجميع إمكانياتها في خدمة هذه الحملة الدعائية وأخذت تدعو الشعب للتبرع بالدم وجمع المعونات لعائلات الضحايا كما أسست جمعية لمساعدة ودعم المجهود العربي، وقد ظهرت الملكة عالية على شاشة التلفزيون أكثر من زوجها الملك. كما قام المسؤولون بعمان بفرض نظام التعتيم وطلب إلى السيارات أن تدهن أضواءها، كان الغرض من ذلك إيهام الشعب وفرض جو الحرب وكأن الأردن يأخذ احتياطاته ضد غارات جوية يعرف حسين جيداً بأنها لن تحدث، كما قام التلفزيون الأردني في هذه الأيام بعرض أفلام عن مدينة القدس والمسجد الأقصى.

القوة المدرعة الأردنية تشارك فوراً في القتال وتصطدم مع الإسرائيليين عند قرية رافد، ولم تحصل على أية انتصارات ولكنها حالت دون تقدم الإسرائيليين في هذه المنطقة، وفي نهاية الحرب كان عدد ضحايا الأردنيين ما بين ٤٠ قتيلاً وجريحاً ولم يذكر أي بيان عسكري عربي البطولات الأردنية حتى أن إسرائيل لم تورد أي ذكر للخسائر الأردنية ولم يكن لقوات حسين البدوية من نصيب كبير في ساعات المجد التي أحرزتها الأمة العربية.

يلتحق الملك حسين بالمصريين حالاً بقبول الهدنة التي أعلنت في ٢٢ تشرين الأول ولم يعد ليعبر عن انزعاجه من عدم معرفته مسبقاً بقيام الحرب. ورئيس وزرائه يقول أهدافنا في الحرب توصلنا إليها، كنا دائماً نريد بأن يقوم الأردن بتطبيق مقررات الأمم المتحدة واحترامها.

وفي نهاية الحرب كان الاقتصاد الأردني يعاني بعض الأزمات والمملكة تعاني نقصاً في الطاقة الكهربائية وتستورد حاجتها من البترول من المملكة العربية السعودية، وكانت تحصل على حاجاتها من البترول عن طريق الأنابيب التي تمر من أراضيها إلى الموانئ اللبنانية وذلك في منطقة تفرع الأنابيب عند مدينة الرزقا، وفي بداية الحرب بدأت السعودية تخفف من إنتاج البترول ومن ضخه في الأنابيب حتى أنها أصبحت جافة، إذ كانت تخشى السعودية من أن تصاب الأنابيب في منطقة الجولان مما يؤدي إلى خسارة ملايين الليترات من البترول، وقد عانى الأردنيون من هذه الأزمة ولم تعد تستطيع الحصول على البترول من الأنابيب. وتحاول وزارة الاقتصاد يومها أن تحصل على البترول عن طريق مينائها الوحيد العقبة الذي لا يبعد سوى مئات الأمتار عن الميناء الإسرائيلي إيلات، ولكن لم تتجرأ أية ناقلة بترول على المرور إلى هذه المنطقة الخطرة جداً، وتقدير الملك حسين كان في موضعه إذ كان يعبر عنه بقوله: إن بلدنا سريع الشلل ووضعه الجغرافي لا يؤهله للقيام بالحرب.

والملك الذي هو في نفس الوقت قائد للجيش يأمل أن يلعب دوراً هاماً بعد نهاية الحرب وقد قامت اتصالات مع إسرائيل وكان السفير الأمريكي يحرص أن تدوم هذه العلاقات وأن لا تنقطع حتى أن الاتصالات المباشرة كانت واردة إذ أن للملك قصراً في العقبة عند البحر الأحمر وقريب جداً من المنطقة الإسرائيلية وغالباً ما يتواجد الملك هناك "حتى يقوم برياضة التزحلق على الماء!".



الإسرائيليون يعبرون القناة

أمام الكنيست وبصوت مخنوق تقول غولدامائير: ليس لدي الشجاعة أن أعزي عائلات الضحايا وذويهم، ولا تقابل كلمتها بالتصفيق وتتابع بقولها إن هذه الحرب مصيرية بالنسبة لنا وللشعب الإسرائيلي بأجمعه. وكان الحزن مسيطراً على جو هذه الجلسة، لكن غولدامائير تعطي بريقاً من الأمل بقولها في هذه اللحظة التي أتكلم فيها إليكم تقوم قواتنا بعمليات عسكرية على الضفة الغربية للقناة.

الثغرة بين الجيشين الثاني والثالث المصريين عند الكيلو متر ٩٠ يكتشفها الإسرائيليون ويقوم كل من سلاح المدفعية والسلاح الجوي بقصف مركز عليها ليحطم القوات والدبابات المصرية فيها، وتتصاعد الأغبرة الهائلة من الرمل، وفي هذه المرة كان ذلك من فعل الإسرائيليين ليهيئ لعمليتهم التمويه والتغطية وبدون أن يلاحظهم المصريون تتقدم الدبابات الإسرائيلية من نوع باتون وكادت تصل إلى القناة عندما اكتشفها المصريون الذين لم يتبينوا الهدف من هذه الخطة وأنه هجوم معاكس بل اعتقدوا أنها من نوع العمليات الانتحارية، وعندما تعرفوا على خطر هذه العملية كان قد حلّ الظلام حيث يصعب آنذاك التفريق بين الدبابات الصديقة والعدوة ولكن رغم ذلك تقوم

معركة بمساعدة القذائف الضوئية التي كانت تقذف من طائرات الهيلوكبتر، وعند الكيلومتر ٩٨ تصل وحدة دبابات إسرائيلية مع مطلع الفجر إلى القناة فتكشف المدفعية المصرية نيرانها على هذه المنطقة غير أن المصريين لم يأتوا بقوات إلى المنطقة المقابلة على الضفة الغربية، وكانت قيادة الجيش الثالث لا تعتقد بعبور الإسرائيليين للقناة بل تعتبره مستحيلاً وغير معقول. ولم يتمكن المصريون من قطع الخط الواصل بين هذه الوحدات بمؤخرتها بل استمر التموين والإمدادات طول النهار وعند حلول الظلام يحضر الإسرائيليون باخرتين نهريتين لعبور القناة وبواسطة رافعات أنزلتا إلى الماء وحتى الصباح كانت هاتان الباخرتان قد عبرتا القناة عشرين مرة وبمطلع الشمس كان ٧٠٠ جندي مشاة إسرائيلي مع عشرين دبابة على الضفة الغربية ويختبئون في الحفر التي أعدوها ولم تكن المدفعية في الساعات الأولى من الصباح قوية على هذه المنطقة ويصرح فيما بعد قائد عسكري مصري بقوله إننا لم نود إيقاع أضرار في قرية كفر زوار، ولكن في الحقيقة أن القيادة العسكرية المحلية ظنت أن القوة العسكرية هي من قواتهم واستغربوا المعارك النهارية التي لا معنى لها.

كانت مهمة طلائع هذه القوة الإسرائيلية هي تدمير مواقع صواريخ سام ليتسنى لسلاح الجو الإسرائيلي على الأقل القيام بأمان بعمليات في هذه المنطقة من القناة، واختصاصيو الإلكترون في تل أبيب ينتظرون على أحر من الجمر الحصول على بطارية سام - ٦ كاملة وبجميع أجهزتها وقاعدتها المتحركة ليبحثوا عن سر الصواريخ، وفي اليوم الثالث من عبور القناة تنقل بطارية كاملة لصواريخ سام -٦ والتي كان قد غنمها الإسرائيليون أمام مطار فايد، الآن فقط ثلاثة أيام

من العبور تبدأ المدفعية المصرية في تركيز نيرانها على رأس الجسر عند قرية كفر زوار ولكن لم يكن لها أن تعيق إقامة جسور في هذه المنطقة حيث تعبر مائتا دبابة و ١٥٠٠٠ جندي وفي اليوم الثالث من بدء عملياتهم العسكرية على الضفة الغربية كان الإسرائيليون يسيطرون على منطقة يبلغ عرضها ٢٥ كيلو متراً حيث دمرت وغنمت جميع بطاريات الصواريخ في هذه المنطقة والسلاح الجوي الإسرائيلي توفرت له حرية عمل كاملة في هذه المنطقة.

في تل أبيب يقول الجنرال أوزيسي نافيكس Uzis Navkis العملية تسير على ما يرام، لقد قطعنا الطريق بين الإسماعيلية والسويس، في هذه المنطقة تعمل قواتنا الجوية بكل حرية ويضيف: الآن أصبح كل شيء على ما يرام وكما كان في الحرب الماضية ثم يبين الجنرال تفوق الطيران الإسرائيلي ضد طائرات الميغ المصرية بقوله في عشر دقائق سقطت خمس طائرات ميغ من السماء لقد دخل الآن سلاح الجو المصري المعركة ليعوض ضياع الصواريخ ولكن بدون نجاح، ويبدي الجنرال عن إعجابه بالمنطقة هناك قائلاً: إن المنطقة هناك خضراء مشجرة، إنها حقاً حديقة وليست كمنطقة شرق القناة.

وقائد عملية العبور الجريئة هذه هو الجنرال آريل شارون Airl Sharon، وتحت الأشجار على الضفة الغربية يلتقي شارون مع دايان للتباحث في الوضع، وكان شارون قد أصيب بجرح في رأسه ويبدو عليه التعب، لقد كانت مخاطر كبيرة وآريل شارون يحقق لإسرائيل النصر الأول في هذه الحرب، والجنرال دافيد العازار يصرح في اليوم الرابع عشر للحرب بأن هذه هي البداية وسننقل كل قواتنا الآن إلى غرب القناة ونعلق على هذه العملية آمالاً كبرى وسنحول الحرب الآن إلى نصر لم يكن يتوقعه أحد.

الآن فقط يتضح للقيادة المصرية الخطر، المدفعيون في الضفة الشرقية يحولون فوهات مدافعهم إلى الغرب، ويتقدم من القاهرة احتياطيون إلى الجبهة، لا يوجد عدد كاف من الدبابات على الضفة الغربية وسعد الدين الشاذلي يسحب بعض الوحدات من الضفة الشرقية رغم كل ذلك لا يجد التقدم الإسرائيلي أمامه عقبات تذكر ويحولون تقدمهم إلى الشمال باتجاه بحيرة التمساح وإلى الجنوب باتجاه البحيرات المرة ويقع في أيديهم مطار فايد وجميع مستودعات البترول والذخيرة فيه وبذلك تتحسن حالتهم التموينية.

الجنرال شارون يود أن يحول هذا النصر الإسرائيلي الأوّل إلى نصر كلي كبير وكانت خطته تهدف إلى السيطرة على كامل الضفة الغربية وبهذا يفرض الحصار على الـ ٧٠٠,٠٠٠ جندي مصري على الضفة الشرقية، وإذا ما تحققت خطته هذه فسوف يصبح أكبر بطل إسرائيلي في هذه الحرب. وهو يبلغ من العمر ٤٥ عاماً، طموحه لا حد له ويأمل بالوصول إلى رئاسة الأركان وكان يهيئ نفسه طوال حياته العسكرية لهذا المنصب، وكانت خيبة أمله كبيرة عندما أسندت رئاسة الأركان لدافيد العازار وترك شارون الجيش قبل شهرين من بدء الحرب، وكان موشي دايان ضد إسناد منصب رئاسة الأركان لشارون لأنه بالرغم من شجاعته وجرأته عصبي متهور في تصرفاته، يندفع في اتخاذ قراراته بسرعة وبدون تفكير، وشارون هو الذي احتل ممر المتلا في سيناء في حرب ١٩٦٧ وتقدمت وحداته بعد ذلك إلى القناة، ويتقدم دائماً وحدته في سيارة جيب مكشوفة، إلا أنه لا يتمتع بصداقات كثيرة في صفوف زملائه العسكريين، وهو غير دبلوماسي لا يزن كلماته وما يفكر به يصرح عنه غير عابئ بنتائج ذلك، وقد رفض كثير من قواد القطعات التعاون معه لهذا السبب.

ولكن الآن عندما بحث دايان عن قائد عسكري للتقدم إلى القناة أجمع الجميع إلى أن شارون هو الرجل الأهل لهذه المهمة. ويمتاز بالثبات والصلابة، والجرح الذي أصيب به في رأسه لم يمنعه من أن يستمر في مهمته وقد أعجب به جنوده جداً كيف أنه ربط رأسه دون أن يتوقف عن الاستمرار في عمله العسكري، وعند عودة موشي دايان من الضفة الغربية قال: من العبث أن نغش بعضنا البعض، إذا توج عملياً هذا بالنصر فسيكون الثمن غالياً.

يتقدم المصريون مرتين بهجوم دبابات معاكس إلى هذه المنطقة ولكنهم في كلا المرتين منوا بخسارات فادحة وانسحبوا، وسعد الدين الشاذلي يأخذ على نفسه بأنه قد أخطأ التقدير في غرض العملية الإسرائيلية وكان رأيه أن أهم عمل هو تقوية التحصينات على الضفة الشرقية وهذا الخطأ في رأيه هو الذي مكن الإسرائيليين من عبور القناة، وإسرائيل مستميتة في أن لا يتحول نصرهم هذا إلى هزيمة، وغولدامائير وموشي دايان هم في أشد الحاجة إلى نصر ما.

أمام حائط المبكى في القدس شباب وبنات يغنون ويرقصون في يوم عيد سحات تورا Simhat Torah والراقصون عددهم ضئيل لأن أغلب الشباب من أعمارهم هم في الجبهة، ولكن في الواقع لم يكن هناك بالفعل جو عيد يخيم على إسرائيل، وكان الناس في القدس وإسرائيل عامة قد صدموا بنتائج هذه الحرب، هذا البلد في حالة غيبوبة لقد ضاع إيمانهم واعتقادهم بأنهم لا يقهرون.

في المدن لا يرى المرء سوى الشيوخ والنساء والأطفال، المخازن مغلقة وأصحابها هم الآن إما طيارون أو سائقو الدبابات أو مشاة في إحدى الجبهتين الجولان أو السويس حتى المواصلات العامة ضعيفة جداً وباصات المواصلات

ايجد Egged ينقلون الجنود إلى الجبهة، المقاهي فارغة وأغلب دور السينما مغلقة، المواد الغذائية في الحوانيت متوفرة ولم يفكر أحد الآن بنظام الإعاشة غير أن البيض كان قد فقد لعدة أيام.

وحتى الآن يسود نظام التعتيم ليلاً، النوافذ وأضوية السيارات معتمة، وفي الشوارع لا توجد أنوار ونادراً ما يوجد فيها أناس، والمستشفيات في القدس - تل أبيب - بئر السبع -... ترسل الأمهات إلى بيوتهم بعد مضي ٢٤ ساعة على ولادتهم لأن المستشفيات في أشد الحاجة للأسرة لاستقبال الجرحى.

بعد الصدمة يأتي الغضب، جنود - طلاب - عمال يتساءلون: لا نفهم كيف يتأخر نصرنا[١] هذه المدة الطويلة وبكل هذه الجهود التي وضعت لتحقيقه؟ وكانت تروى في القدس في يوم عيد سمحات توراه القصة التالية: زوجة الجنرال شارون تشاهد صورة زوجها في الصحف وهو مضمد الرأس. فتتصل بزوجها هاتفياً وتقول له كان حرياً بك أن تضع الخوذة على رأسك فيجيبها كلا.. إنني لا أحتاج للخوذة هنا الآن بل سأحتاجها عندما أعود لأكُسر بها بعض الرؤوس في تل أبيب، تعرفين من أعني.

1 إشارة إلى العمليات العسكرية على الضفة الغربية للقناة.

إسرائيل تخسر أصدقاء لها في الأمم المتحدة

دمشق مدينة الجبهة يأتي إليها ضيف دولي، حافظ الأسد يترتب عليه في هذه الظروف أن يقضي وقتاً كبيراً مع ضيف الدولة عيدي أمين الذي حضر ليؤكد للعرب بأن أفريقيا معهم في كفاحهم ضد الصهيونية، في لباسه العسكري المزخرف بالأوسمة والنياشين يؤكد بأن قوات أوغندا ستحارب إلى جانب العرب "جيش أوغندا يبلغ تعداده (٩٠٠٠) رجل وعماده في التسليح سيارات مدرعة لا يتعدى عددها أصابع اليدين، بريطانية من طراز فريت سزكوت R Freet Soout وأما السلاح الجوي فلا وجود له" ولحافظ الأسد أن لا يعير أهمية للمساعدة العسكرية التي يعد بها عيدي أمين ولكنه يعلق أهمية على الدعم السياسي الإفريقي.

عيدي أمين كان في بدء حياته السياسية صديقاً لإسرائيل ولكنه كمسلم اقتنع فيما بعد بأن كيان إسرائيل لا يرضى الله عنه، وبكل قسوة وعنف طرد المستشارين العسكريين من بلده وقد قال عندما طردهم أن إسرائيل كانت تهدف إلى تسميم مياه نهر النيل لتقتلنا جميعاً في أوغندا والسودان ومصر، لقد أفشلت مخططهم هذا بعون الله نحن المسلمين علينا أن نقف صفاً واحداً أمام هذا العدو الخبيث. الرئيس الأوغندي يقطع العلاقات الدبلوماسية مع

إسرائيل ويربح بذلك صديقاً غنياً وهو الرئيس الليبي معمر القذافي وحين يتعرض لأزمات مالية تسارع ليبيا لعونه. في الواقع ليس للمرء أن يأخذ عيدي أمين بشكل جدي ولكن نجد أن أغلب رؤساء الدول المتخلفة يفكرون مثله.

في مؤتمر دول عدم الانحياز الذي عقد في الجزائر في بداية شهر أيلول ١٩٧٣ والذي لم تكن إسرائيل ممثلة فيه، صوت المندوبون بلا استثناء على قرار يطالبها فيه بالانسحاب من الأراضي المحتلة بلا قيد ولا شرط، والعرب كانوا صاحبي الكلمة في هذا المؤتمر، السادات وعرفات قوبلا بالتصفيق، الملك فيصل بالإجلال والتقدير، معمر القذافي بالإعجاب، وهذا المؤتمر كان أكبر مؤتمر من نوعه وقد أجمع المندوبون على أن إسرائيل والولايات المتحدة هم أعداء الشعوب الحرة ويحاولون أن يبقوا على الاستعمار، إسرائيل أميركا والاحتكارات العالمية يحاولون مجتمعين أن يحكموا العالم ولم يوضح المؤتمر من هو الأقوى ومن الذي يتسلط على الأخر أمريكا أم إسرائيل، ولم تكترث حكومة إسرائيل بهذه الموجة من عداء دول العالم الثالث لها "أو على الأقل تظاهرت بذلك أمام العالم"، وخريف عام ١٩٧٣ لم يشهد نشاطاً دبلوماسياً لإسرائيل للحفاظ على أصدقائها القدامى وكسب أصدقاء جدد، كما أنها لم تكترث لما قام به فيديل كاسترو من تناسي الوجود الإسرائيلي أمامه.

عشر دول أفريقية قامت بقطع علاقاتها مع إسرائيل بعد أن طرد عيدي أمين السفير الإسرائيلي من بلاده ومنذ بدء الحرب الرابعة العربية ـ الإسرائيلية لم تعد دول رواندا، داهومي، فولتا العليا، غينيا الإستوائية لتعترف بإسرائيل وزائير كانت قد استدعت سفيرها من إسرائيل قبل يومين من اندلاع الحرب.

في المقر الرئيسي للأمم المتحدة في نيويورك يشعر المرء بانعزال إسرائيل ورغم أنه كان واضحاً أن العرب هم الذين بدؤوا الحرب لا يوجد أحد في هذه المنظمة الدولية غير الولايات المتحدة يقف إلى جانب إسرائيل، وفي مناقشات حادة في هيئة الأمم المتحدة كانت إسرائيل تتهم دائماً بأنها قد بالغت في سياستها الاحتلالية تدوس حقوق الإنسان وجميع مقررات مجلس الأمن بأقدامها والجو في القاعة الكبرى لهيئة الأمم المتحدة محموم جداً ضد إسرائيل وكان مندوب إسرائيل الدائم لدى الأمم المتحدة يوسف تقوا يواجه صعوبات جمة في إلقاء خطابه وبكل غضب يترك منصة الخطابة ليعود إلى مكانه ويهز المندوب الأميركي رأسه قائلاً: لو كانت إسرائيل قد بدأت الحرب بغارة جوية على القاهرة، لما كنت أتصور أن يكون غضب المندوبين على إسرائيل يمكن أن يبلغ درجة من الحدة أكثر مما هو عليه الآن.

في تشرين الثاني ١٩٦٧ وبعد حرب حزيران قرر مجلس الأمن الدولي أنه على إسرائيل أن تنسحب من الأراضي المحتلة، ولم تهتم إسرائيل في يوم من الأيام بهذا القرار، العرب كانوا يقولون أن إسرائيل تتحدى الرأي العام العالمي وتسخر منه. وجميع دول عدم الانحياز ودول الكتلة الشرقية كانوا يؤيدون العرب، إسرائيل تطالب بمفاوضات مباشرة مع كل من مصر وسوريا والأردن، والعرب يرفضون مبدأ هذه المفاوضات المباشرة ويطالبون إسرائيل أن تبدي أولاً عن استعدادها للتخلي عن الأراضي المحتلة ولو أنها فعلت فلربما كان لمثل هذه المباحثات حظ من النجاح، وإسرائيل لم تبدِ أية استجابة لهذا الطلب.

هيئة الأمم المتحدة ترسل مبعوثها السفير السويدي غونار يارينغ إلى الدول المعنية في الشرق الأوسط بمهمة إيجاد نقطة انطلاق لحل المشاكل، الإسرائيليون لم يهتموا بالمبعوث ولم يجاوبوا يارنينغ على أسئلته. وفي هيئة الأمم المتحدة ينقص أصدقاء إسرائيل يوماً بعد يوم وساد الرأي أن إسرائيل لا تريد بأي شكل السلم في المنطقة.

إن إعلان عدد كبير من الدول الغربية حيادها إثر نشوب الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة يثير غضب إسرائيل وحقدها، رئيس الوزارة الأسترالية غوغ وايتلام Guogh Whitlam يرفض أن يدين العدوان العربي، إسبانيا وإنكلترا وإيطاليا يصرون على الحياد ولا يسمحون للولايات المتحدة بنقل أسلحة لإسرائيل عبر أجوائهم، ألمانيا الغربية تسير على نفس الطريق، رئيس الوزارة البريطانية إدوارد هيث يمنع توريد الأسلحة للشرق الأوسط مما يثير غضب الضباط الإسرائيليين لأنهم يعتمدون بشكل أساسي على بريطانيا في استيراد قطع الغيار والذخيرة لدبابات السنتوريون البريطانية الصنع وهي تشكل عماد سلاح المدرعات الإسرائيلي كما أن لهذا الغضب سبباً آخر وهو أن بريطانيا تورد أسلحة للملكة العربية السعودية التي تعتبرها غير مشتركة في الحرب ويستمر إمداد السعودية أثناء الحرب بالأسلحة والذخيرة البريطانية ولم يعر رئيس الوزراء البريطاني أهمية لاشتراك ألف مقاتل سعودي على الجبهة السورية ويستمر في تسليح السعودية وأبو ظبي والكويت وعمان.

وينجح السادات بالتكتيك السياسي البارع ويقنع العالم بأن العرب لا يريدون أكثر من استعادة أراضيهم المحتلة خلال حرب ١٩٦٧ ولا يهددون

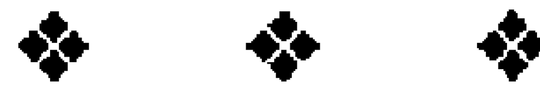
كيان إسرائيل، وكان المصريون ينادون منذ عام ١٩٦٧ بحل سلمي عادل وكان لذلك أثره على مواقع العديد من دول العالم، وتسارع نيجيريا بعد الهدنة لقطع علاقاتها بإسرائيل وحجتها في ذلك هي أن إسرائيل تقف الآن على الضفة الغربية للقناة وبذلك يبلغ عدد الدول الإفريقية التي قطعت علاقاتها مع إسرائيل سبع عشرة دولة، غانا والسنغال يتبعون نيجيريا في خطواتها.

ليبولد سيدار سنغور Leapold Sedar Senghor رئيس جمهورية السنغال يقول للسفير الإسرائيلي في باريس في الأسبوع الثاني من الحرب: إن قواتكم على الضفة الغربية للقناة، أي في أراض إفريقية لذا فنحن الإفريقيون أعداؤكم، وتتحول هذه الجملة إلى حقيقة مرة بالنسبة لإسرائيل حيث يقطع الإمبراطور هيلاسيلاسي إمبراطور أثيوبيا الذي كان أعز صديق لإسرائيل جميع علاقاته معها، وكانت إسرائيل تتصور أن أثيوبيا هي عبارة عن رأس جسر لها إلى إفريقيا. وكانت كل من مصر والسودان تتخوفان من أن تتخذ أثيوبيا كقاعدة لسلاح الجو الإسرائيلي ينطلق منها للإغارة على سد أسوان.

عيدي أمين يود صادقاً أن يرسل جيشه وعدداً من المتطوعين إلى مصر وسوريا، وفي ١٠ تشرين الأول يتكلم في مدينة اينتبه Entebbe الأوغندية أمام حشد من مئات الألوف ويقول: ثلاثة ملايين رجل قد أعلنوا عن استعدادهم للقتال ضد إسرائيل سنكافح مع إخواننا العرب كتفاً إلى كتف. ويبذل السفيران السوري والمصري في أوغندا جهوداً لإقناع عيدي أمين بالعدول عن خططه في نقل الجنود والمتطوعين إلى مصر وسوريا ويطمئنونه بأنه ربما يتم ذلك في وقت متأخر. ويبرق عيدي أمين إلى السادات قائلاً: إنني

لآسف جداً أننا لا نقف صفاً واحداً الآن على الجبهة كالحلفاء في الحرب العالمية الثانية لننتصر على العدو المشترك.

وعقلية عيدي أمين بالنسبة لنا نحن الأوروبيين غريبة ويصعب علينا فهمها، وتأثيره على السياسيين الإفريقيين بالغ جداً، رئيس وزراء نيجيريا يتصرف حالاً حينما تصله برقية من عيدي أمين يقول له فيها أتوجه لك بنصيحة طيبة جداً وهي أن تطرد السفير الإسرائيلي. كما أنه ينقل صوراً غير واقعية عن الوضع على الجبهة عند عودته من دمشق إذ يقول لزملائه الرؤساء الإفريقيين العرب يقفون على مشارف تل أبيب لقد رأيت ذلك بعيني.



الهدنة الأولى

مجلس الأمن يطلب في يوم الاثنين ٢٢ تشرين الأول ١٩٧٣ إلى الأطراف المتحاربة أن :

١ - يوقفون أطلاق النار ويتوقفوا عن إجراء أية عملية عسكرية.

٢ - بعد وقف العمليات العسكرية أن يبادروا إلى تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ .

٣ - البدء في الدخول في مفاوضات هدفها إيجاد حل سلمي وعادل للمنطقة.

ويعلن الإسرائيليون بعد دقائق من صدور هذا القرار عن مجلس الأمن بقبولهم للهدنة بشرط أن تقوم دول لم تكن مشتركة بهذه الحرب مثل العراق والفلسطينيين بقبول هذا القرار. وبعد ظهر يوم الاثنين ٢٢ تشرين الأول يذيع راديو القاهرة هذا البلاغ : إن الرئيس السادات درس بكل إمعان قرار مجلس الأمن الدولي الذي يوصي بقيام هدنة خلال اثنتي عشرة ساعة والبدء في تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر في ٢٢ تشرين الثاني لعام ١٩٦٧ ، بيان اليوم يتضمن الدعوة بمحادثات لإيجاد حل سلمي، الحكومة المصرية توافق على دعوة مجلس الأمن الدولي. ويشكل هذا البيان بالنسبة للرئيس المصري نصراً لأنه في الواقع لم يكن ليطلب أكثر من ذلك في خطابه الذي ألقاه في ١٦

تشرين. انسحاب القوات الإسرائيلية من المناطق المحتلة ثم بدء المباحثات حالاً حول حدود مضمونة لإسرائيل.

سوريا وافقت على قبول قرار مجلس الأمن في صباح ٢٤ تشرين الأول وحتى ذلك الوقت كانت منظمات الحزب تبحث الموضوع وتقيد الحكومة السورية موافقتها على هذا القرار بالحفاظ على حقوق الشعب الفلسطيني. حكومة بغداد تعبر عن غضبها على قرار كل من مصر وسوريا بقبول قرار مجلس الأمن الدولي وتقول أنها لم تشترك في مشاورات بهذا الخصوص وأنها سمعت بهذا النبأ بعد أن أصبح حقيقة واقعة والعراق كان دائماً وفياً للقضية العربية ونحتفظ لأنفسنا بالحق والحرية أن نعلن للجماهير العربية بالحقيقة الكاملة دون أن نبالي لما يقوله الغير، والقيادة العليا للقوات المسلحة العراقية تقرر في نفس اليوم سحب قواتها من سوريا. الدول العربية التي كانت متضامنة أثناء الحرب تبدأ من جديدي في خلافاتها بعد الحرب.

في الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الاثنين ٢٢ تشرين الأول يصل وزير الخارجية الأميركية إلى مطار اللد حيث يستقبله وزير خارجية إسرائيل آبا إيبان، كلمة الترحيب القصيرة التي كان مقرراً إلقاؤها صرف النظر عنها، تدابير الأمن والحراسة كانت قوية، المتفرجون على أرصفة المطار كانوا يحيون كسينغر ويرون فيه واحداً منهم لأنه يهودي، يتوجه كسينغير حالاً لمقابلة غولدامائير للقيام بمباحثات معها والتي تقول له: إن وضعنا العسكري يتحسن من ساعة إلى أخرى وحققنا في الليلة الماضية انتصارات هامة في جبل الشيخ، ويشرف الإسرائيليون الآن على سوريا ولبنان، مواقعنا العسكرية الآن على جبل الشيخ أفضل مما كانت عليه قبل ٦

تشرين، وتعد غولدامائير بأن تعطي الأوامر مساء هذا اليوم للقوات الإسرائيلية للالتزام بوقف إطلاق النار فيما إذا التزم بذلك المصريون والسوريون أيضاً، وما يلبث كيسنغر أن يتطرق إلى الموضوع الرئيس لزيارته وهو تخلي الإسرائيليين عن الأراضي المحتلة للعرب. وكان قرار مجلس الأمن يطلب إلى الأطراف المعنية أن تقوم بتطبيق قراره رقم ٢٤٢ والذي يتضمن انسحاب إسرائيل من المناطق المحتلة إلا أن هناك خلافاً في تفسير مضمونه إذ أنه كان قد أعد باللغتين الفرنسية والإنكليزية والنص الفرنسي ينص بكل وضوح على أن الانسحاب يجب أن يتم من المناطق المحتلة، بينما كان النص الإنكليزي يتضمن مناطق المحتلة وبهذا يحتمل هذا النص معنيين في آن واحد الأول جميع المناطق المحتلة والثاني بعض المناطق المحتلة. وإسرائيل تريد أن تفسر ذلك بأنه عليها التخلي عن بعض المناطق المحتلة وليس عن جميع المناطق المحتلة متشبثة بذلك النص الإنكليزي فقط وبناء على ذلك تقول إسرائيل نحن مستعدون للتباحث في التخلي عن بعض المناطق ولكن غير مستعدين للتخلي عن جميع المناطق وكانت تطالب منذ حرب ١٩٦٧ بمفاوضات مباشرة مع العرب لهذا الغرض، أما الرجوع عن جميع الأراضي المحتلة فموضوع غير وارد فيه وكان هذا موقف إسرائيل يوم كان ليفي اشكول رئيساً للوزراء وفي هذه الأيام أيضاً ورئيسة الوزراء هي غولدامائير.

قبل حرب حزيران ١٩٦٧ كان عرض إسرائيل بين الأردن والبحر لا يتجاوز ٢٥ كيلومتراً عن الحدود الأردنية ولو استطاع العرب يومذاك أن ينشئوا جبهة في المنطقة لكانوا شطروا إسرائيل إلى قسمين وهذا الخطر لا تفكر إسرائيل في يوم من الأيام أن تقع تحت رحمته من جديد.

إن قبول إسرائيل لقرار مجلس الأمن تاريخ ٢٢ تشرين الأول ١٩٧٣ يعني صراحة أنها مستعدة للتخلي عن الأراضي المحتلة ولكنه سرعان ما يبدأ النزاع من جديد حول مضمون القرار رقم ٢٤٢، مناطق محتلة أو المناطق المحتلة والدبلوماسية الإسرائيلية تلعب بكل مهارة بالنصين دون أن تعير مقدمة القرار أي انتباه حيث جاء في مقدمة كل منهما أنه لا يجوز مطلقاً اكتساب أراض بواسطة الحرب، والإشارة إلى مقدمة القرار يمكن أن يخصم الجدال حول مدلول النص الإنكليزي. وتخبر مائير كيسينغر أنه من الممكن القيام بالمفاوضات لكن الانسحاب الكلي موضوع غير قابل للبحث ويتضح لكيسينغر صعوبة المفاوضات المقبلة، وكان قد غادر موسكو قبل ظهر ذلك اليوم إذ علم هناك أن روسيا تؤيد السادات سياسياً بلا حدود ـ والسادات كان قد حصل على ضمانات خطية من بريجنيف بذلك ـ وقد أدلى بتصريح قبل مغادرته المطار الروسي فنيكوفو Wnukowo في الساعة العاشرة وعشرين دقيقة جاء فيه: نعلق آمالاً كبرى في أن هذا القرار، قرار مجلس الأمن، سوف يتحول إلى حقيقة سياسية وسوف نساهم مساهمة فعالة بإيجاد حل لمشكلة الشرق الأوسط. وكان كيسينغر قد مكث مدة ٣٩ ساعة في موسكو بناء على دعوة وجهت له من الاتحاد السوفيتي الذي بادر بالقيام بخطوات مشتركة مع الولايات المتحدة في السعي نحو حل سلمي، وقد بدأ محادثاته مع بريجنيف بعد ساعتين من وصوله إلى موسكو واستمرت المباحثات ساعتين واستؤنف من جديد في جلسة العشاء، وأوضح الروس لكيسينغر أن إسرائيل لن يسمح لها أن تضرب وإلى الأبد عرض الحائط بقررات هيئة الأمم وأن تعتبر مجلس الأمن

وكأنه غير موجود بالنسبة لها ويجب أن تجبر إسرائيل على احترام القرارات الدولية ويرد كيسينغر بقوله إن تغطرس العرب قد ضاعف في تعقيد المشاكل وإسرائيل مستعدة للمباحثات منذ زمن بعيد. ويجيبه بريجنيف بأن العرب مستعدون للتفاوض وهذا ما لمسه كوسيغين خلال زيارته للقاهرة ما بين ١٦ و١٩ تشرين الأول حيث قابل في هذه الزيارة الرئيس السادات خمس مرات.

قبل بدء كوسيغين زيارته للقاهرة بيومين كان الوضع العسكري المصري قد أصبح حرجاً، ففي الضفة الشرقية لم يعد يحرز المصريون على انتصارات بينما استطاع الإسرائيليون من بناء جسر على الضفة الغربية ويرى الروس أن تغلغل الإسرائيليين قد أصبح حقيقة واقعة وأنه لا يمكن وقف هذا التغلغل، وأخذت موسكو تخشى هزيمة عربية جديدة وهذا يعني خسارة معنوية ثانية لروسيا، "الأسلحة الروسية تخسر الحرب" وعلى روسيا أن تساعد العرب. ويحاول السادات أن يقنع كوسيغين بقوة معنويات الجنود المصريين في الوقت الذي يجد كوسيغين أن هدنة سريعة تنقذ الوضع وتنتشل بصورة خاصة الجيش المصري الثالث من كارثة أكيدة وتقدير كوسيغين للوضع العسكري دلّل على صحته إذ أنه كان قد أحضر معه صوراً التقطها القمر الصناعي الروسي والتي توضح التقدم الإسرائيلي السريع على الضفة الغربية باتجاه الشمال والجنوب، وكان الروس قد أطلقوا قمرين صناعيين قبل بدء الحرب بأسبوعين مما هيأ الفرصة للسياسيين والعسكريين الروس من تكوين فكرة واضحة عن سير الحرب.

كما أن كوسيغين كان قد أحضر معه مشروعاً كاملاً للهدنة وللوقت الذي يلي الهدنة وأوضح المشروع للسادات كما يلي:

١ ـ يوقف الطرفان العمليات العسكرية وتجبر إسرائيل على إخلاء المناطق المحتلة ما عدا بعض تعديلات طفيفة على الحدود .

٢ ـ تقوم قوات دولية بمراقبة خطوط الهدنة .

٣ ـ تضمن كل من روسيا والولايات المتحدة سلامة الحدود التي يتفق عليها في محادثات السلام .

وما كان السادات ليعترض على هذا المشروع وقد أخبره كوسيغين بأن الولايات المتحدة على إطلاع على الغرض من زيارته للقاهرة وعلى المشروع الذي يحمله حيث استلم الرئيس نيكسون نسخة عنه ، ويعلن السادات عن قبوله للمشروع الذي يجب أن يكون نقطة انطلاق لحل المشاكل في الشرق الأوسط هذا ولم يأت أي ذكر للفلسطينيين في مشروع كوسيغين وكذلك من إعادة حقوقهم ، ووجهات نظر الروس والأمريكيين تتفق على أن الأراضي المحتلة التي ستتراجع عنها إسرائيل يعود إليها الفلسطينيون إذ أنهم غادروها في عام ١٩٦٧ وأما حقوق الفلسطينيين في الأراضي المحتلة قبل عام ١٩٦٧ فلم يرد لها ذكر إطلاقاً ولازال هؤلاء اللاجئين يعيشون حتى هذا اليوم في مخيمات تنتشر في كل من الأردن وسوريا ولبنان ، ولم ير السادات أن يؤخر هذه الفرصة للبدء في محادثات السلام بطلبات معقدة حول هذا الموضوع .

ولا يرى المرء في كوسيغين ذلك الدبلوماسي الماهر ويكون المرء عنه انطباعاً بأنه رجل عادي طبيعي ، والحكام العرب يشعرون معه بأنهم أمام رجل لا يتفوقهم فكرياً أو حضارياً ويقفون معه على قدم المساواة ولكن يزعجهم في كوسيغين أنه عبوس دائماً لا يعرف الضحك إلى وجهه سبيلاً ولكن الآن في

مباحثاته في القاهرة لا يوجد أي مجال لحديث تتخلله التعليقات الضاحكة فالموقف جدي لدرجة بالغة ومن مزايا كوسيغين الكبرى أنه يستمع لمحدثيه بكل صبر في الوقت الذي يعرف فيه عن السادات رغبته في أن يتكلم دائماً. هذا وقد استطاع أن يجد في زيارته للقاهرة نقطة بدء يستند على أساسها كل من كوسيغين وبريجينيف خطتهم بالنسبة للمستقبل.

كسينغير لا يتمتع ولو بساعة واحدة من الراحة حين يخبره مساعده جوزيف سيسكو في منزله في والدروف تاورث Waldorf Twoers في نيويورك هاتفياً بأن الجيوش العربية تقوم في هذه الدقائق بالهجوم على إسرائيل وكانت هذه المخابرة بتاريخ ٦ تشرين الأول وفي تمام الساعة السادسة صباحاً حسب توقيت نيويورك وبدأ كسينغير حالاً اتصالاته الهاتفية مع السفير أناتولي دوبرينين Anatoly dobrynin في واشنطن ومع مجموعة من وزراء الخارجية العرب الذين كانوا حينذاك في نيويورك لحضور اجتماعات هيئة الأمم المتحدة وحاول أن يمنع قيام الحرب خاصة وأنه لم يمر بعد على استلامه لمنصب وزير خارجية الولايات المتحدة أكثر من أسبوعين وسياسته ذات هدف واحد هو الانفراج في العالم والتعايش السلمي بين الشرق والغرب.

والحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة قد تعوق تحقيق هدفه هذا، فإلى جانب العرب يقف الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة تشعر بواجبها تجاه إسرائيل، والاصطدام المسلح في الشرق الأوسط شأنه أن يجر الولايات المتحدة وروسيا لعمليات عسكرية ورأى كسينغر أن الوقت قد حان للدفاع عن سياسة السلام وحماية هذا الهدف ومع مرور الزمن ستبين قيمة هذه السياسة على الصعيد

الدولي واعتبر كسينغر أن هذه الحرب تهدد سياسته السلمية وعليه أن يدافع عنها ويجد الحل للمشاكل التي تعترضها.

يعمل كيسينغر بمعدل لا يقل عن عشرين ساعة يومياً يقضيها في مباحثات ومنقاشات، وزواره في الطابق السابع في مبنى وزارة الخارجية الأميركية هم السفير الإسرائيلي Simcha Dinitaz ووزير الخارجية المصرية الزيات وسفير روسيا دوبرينين ووزير خارجية العربية السعودية وممثلي الإمارات العربية في الخليج، وقد استقبل الرئيس نيكسون وزراء خارجية الجزائر ومراكش والسعودية العربية والكويت بحضور كسينغر وكان عمر السقاف وزير الخارجية السعودية المتحدث في المناقشة مع نيكسون باسم الثماني عشرة دولة عربية ويعد نيكسون أن يبحث عن طريق لتحقيق السلام في الشرق الأوسط وبنهاية المقابلة عبر عمر السقاف عن رأيه بأن كيسينغر الذي توصل إلى إيجاد حل للسلام في الفيتنام وهو الرجل الصالح لإيجاد الحل السلمي لمشكلة الشرق الأوسط، ولا يزعج العرب كون كيسنغير يهودياً أن يقوم بهذه المهمة، وكان كيسينغر على أتم الاستعداد لبدء المحادثات في موسكو.

ولكون الولايات المتحدة تقدم مساعدات هائلة لإسرائيل بشكل يمكن أن يؤدي إلى إلحاق هزيمة جديدة بالعرب قال الروس لكيسينغر لن نترك الفرصة مطلقاً لحدوث هزيمة عربية جديدة ولإذلالهم ونحن أيضاً سنقدم كل ما باستطاعتنا في هذا المجال وكان بريجنيف يود أن تتوصل الأطراف المعنية إلى هدنة سريعة لإنقاذ الجيش المصري الثالث المهدد بكارثة محققة وكسينغر كذلك كانت له رغبة قوية في الوصول إلى حل سريع ولإيقاف المعارك وكان

يرى في هذه الحرب تهديداً مباشراً لسياسته القائمة على التعايش السلمي وهكذا يتفق الروس والأميركان على هدف واحد .

غولدامائير تقول : عندما يتفق الأميركان والروس لا يبقى أمامنا متسع من الوقت للمناورة ، مجلس الأمن أعلن أمره بوقف القتال وعلى إسرائيل أن تقبل بهذا القرار ولا يمكن لها أن تعمل ضد الرغبات الأمريكية ، لكن غولدامائير تحتاج لعدة ساعات من الوقت إذ أن العازار رئيس الأركان طلب منها مهلة قصيرة يستطيع خلالها أن يفتك بالجيش المصري الثالث . وتتصل غولدامائير هاتفياً بنيكسون وتطلب إليه أن يرسل هنري كيسينغر إذ يوجد عدة مشاكل ونقاط تود بحثها معه ، ويصل وزير الخارجية الأميركية تل أبيب ولكن إسرائيل كانت قد قبلت بالهدنة قبل وصوله بقليل إذ أن الرئيس نيكسون طلب إلى السفير الأميركي كينيت كايتنغ Kenneth Keating الإلحاح على إسرائيل إعلانها لقبول الهدنة وبالسرعة الممكنة .

الإسرائيليون يطأون الأرض الإفريقية

القيادة العليا للجيش الإسرائيلي تعلن للرأي العام في الساعات الأولى لعملية احتلال الضفة الغربية أن هدفها تدمير مواقع الصواريخ ولكن في الحقيقة كانت ترمي القيادة الإسرائيلية إلى هدف أكبر وبغاية الطموح ألا وهو إبادة الجيش المصري الثالث الذي يحتل على الضفة الشرقية للقناة من الكيلومتر ٩٥ حتى الكيلومتر ١٦٠ بقوة قدرها ٢٠٠٠٠ جندي وما يزيد على ٢٠٠ دبابة، وفي ١٧ تشرين الأول يتحرك ٢٥٠٠٠ جندي إسرائيلي و٥٠٠ دبابة من رأس الجسر عند فايد يساراً نحو السويس، أما الهجوم باتجاه الإسماعيلية فقد أوقفه دافيد العازار لأن القوات ليست كافية لاحتلال الضفة الغربية بكاملها، وفي الجنوب هناك هدف نفسي ومعنوي هو مدينة السويس وبعد معارك عنيفة وخسائر كبيرة يحتل الإسرائيليون الضفة الغربية للبحيرات المره، خمسة أيام متوالية يهاجم الإسرائيليون المواقع الدفاعية المصرية التي وصلها الإنذار في وقت متأخر مما لم يكن بوسعها أن تتصدى بشكل فعال للهجوم الإسرائيلي وفي ٢٢ تشرين الأول وصل الإسرائيليون إلى قرية جنيفا وبهذا تم قطع الطريق الذي يصل بين السويس والقاهرة والأسوأ من ذلك أن الجيش المصري الثالث ليس لديه الإمكانية لإيقاف الزحف الإسرائيلي.

دافيد العازر يهدف إلى أن يقلب دفة الحرب هذه على طراز معركة ستالينغراد إلى نصر إسرائيلي هائل، والخطة الهجومية لاحتلال الضفة الغربية بين البحيرات والإسماعيلية كانت جاهزة ومهيأة منذ زمن بعيد لدى الأركان العامة الإسرائيلية وقد أجل تنفيذ هذه الخطة إلى وقت تسمح به الظروف الدولية وذلك بقصد تحطيم القوة المصرية بكاملها، كما كان القصد منها أيضاً إنقاذ إسرائيل في لحظات حرجة أو في معارك فاصلة لتغيير كفة الحرب، وهذه الخطة أطلقت عليها الأركان العامة المصرية: اسم "عملية الإسماعيلية" وكان يجب أن يسبقها مرحلة أولى وهي التمكن من الضفة الشرقية كلها للقناة والتي لم يحسب الإسرائيليون حساب ضياعها من أيديهم.

فتح الثغرة في الجبهة المصرية والتقدم منها إلى الضفة الغربية كلفا الإسرائيليين خسائر كبيرة لكنه نجح رغم ذلك، والإمدادات الإسرائيلية تعبر الجسور عند قرية كفر زوار، والمشهد كان هو نفسه قبل عشرة أيام إذ كان آناك عبارة عن عملية عبور المصريين إلى الضفة الشرقية، الدبابات والعربات المدرعة ومدافع تنقل ببطء وحذر عبر الجسور إلى الضفة الغربية والشرطة العسكرية تتولى تنظيم عبور هذه القافلات التي يتلوها سيارات التموين بالوقود والذخيرة والماء والمواد الغذائية، وباصات شركة النقل الإسرائيلية ايجيد Egged تنقل المشاة وكان فرح وسرور الجنود الإسرائيليين لا حدود له وكانوا يهتفون ويصرخون "نحن في إفريقيا" والتقدم يبلغ مضيق البحيرات المرة عند الكيلومتر ١٣٥ وعلى الضفتين من القناة يتقدم الإسرائيليون. في صباح ٢٢ تشرين الأول يتلقى الجنرال آريل شارون ما يثير استغرابه وغضبه في آن واحد وهو الأمر الذي

يطلب إليه فيه أن يوقف إطلاق النار في مساء ذلك اليوم بعدما قلبت الحكومة الإسرائيلية بالهدنة، وكان الأمر ينص على ما يلي: أن تحاول القوات في الساعات القليلة المتبقية التقدم ما أمكن نحو الجنوب، ويعطي شارون أوامره للخمسمائة دبابة بالتقدم. التفوق الجوي وزمام المبادرة هو الآن في يد الإسرائيليين بعدما دمرت جميع بطاريات صواريخ سام ـ ٦ بين الإسماعلية وقرية جنيفا أصبحت الممرات الجوية آمنة لطائرات الفانتوم ولكنه رغم التنسيق بين السلاح الجوي والمدرعات لم يتمكن الإسرائيليون من الاستيلاء على أراض واسعة لأن الصواريخ المضادة للدبابات تمكنت في هذا اليوم من تدمير خمسين دبابة إسرائيلية. الجنرال شارون يحاول أن يزيد في حركة وحيوية الهجوم ويأمر بالهجوم المكثف بموازاة خط الحديد جنيفا ـ السويس لكن الجبهة تتفكك وتنتشر نحو اليمين والساعات المتبقية لا تتيح للإسرائيليين إتمام عملية الحصار حول الجيش المصري الثالث، أما الضباط وصف الضباط والجنود الإسرائيليون فقد كانوا جميعاً من رأي واحد وهو حاجتهم لبضع ساعات أخر لتحقيق النصر الكامل في مهمتهم هذه ويقولون "لماذا نقف الآن وأمامنا الليل وهو يكفينا لأن نحرز النصر كاملاً ونستولي على مدينة السويس". والجنرال دافيد العازار يعطي أوامره بأن تبقى القوات في حالة استعداد بقوله قد نحتاج إلى الهجوم في كل وقت وذلك لكي يتجنب التصريح عن عزمه وتصميمه على متابعة الهجوم ويقول لقد كنا ناجحين في عملياتنا ولكن النصر لم يكن كاملاً.

في تل أبيب وفي القدس يعلم الناس في الأيام الأخيرة القليل من الهجوم المعاكس الإسرائيلي في إفريقيا، والجنرال هرتزوغ المعلق العسكري في الإذاعة

والذي يتحدث يومياً مرتين إلى الشعب لم يذكر شيئاً من تفاصيل الوضع ويكتفي بقوله إن هناك معارك كبرى طاحنة يدور رحاها ويتحدث عن مناورات باهرة لفرق الدبابات. جريدة هآرتز Haaretz تكتب الوقت لم يحن للتحدث عن أنباء كبرى والحرب لا زالت مستمرة طالما فرضها علينا الروس والسوريون والمصريون، وتعلن أنباء الساعة السابعة للإذاعة الإسرائيلية في صباح ٢٢ تشرين الأول خبر وقف إطلاق النار بعد أن كان مجلس الوزراء قد اجتمع في الليل ليبحث بطلب الرئيس نيكسون بوقف القتال أما عن الأمم المتحدة فلم تأتِ الأنباء بأية إشارة لها، الناس فرحون بهذا النبأ وذوو الجنود كانوا ينتظرون بفارغ الصبر مرور الاثنتي عشرة ساعة المتبقية لموعد بدء وقف القتال ليبقى أبناؤهم على قيد الحياة ويبدأ الإسرائيليون في الإطلاع على حقيقة مؤلمة لهم وهي أن الحرب قد كلفتهم ضحايا كبيرة ومع مرور كل يوم يزداد عدد العائلات التي يخيم الحزن عليها لفقدها أبنائها، والصحف تبدأ في نشر صور الأسرى في سوريا ومصر التي وزعتها وزارات الإعلام في دمشق والقاهرة على وكالات الإعلام، وأمهات تبحث عن صور أبنائها ونساء عن صور أزواجهن وكل يأمل أن يكون ذووهم المفقودون في عداد الأسرى ومراكز البحث عن المفقودين تعمل ليلاً نهاراً والأنباء عن القتلى والأسرى تتجمع ببطء وتبلغ إلى ذويهم، وحتى ساعات وقف إطلاق النار لم يكن للوحدات الوقت الكافي لإعداد القوائم بأسماء المفقودين والقتلى لديهم.

الطيور الجارحة والكلاب التائهة في الصحراء تجد كفاية لها من الغذاء إذ تنتشر بين محطات قطار فايد وجنيفا جثث القتلى من مصريين وإسرائيليين

ورائحة تفسخ الجثث تملأ الجو. الطرقات ممتلئة بدبابات محترقة وعربات محطمة، خوذ، قطع ثياب وكتب وعلب محفوظات تنتشر على جانبي الطريق وامتداده هذا الطريق الذي حاول فيه المصريون في ٢٢ تشرين الأول التصدي للزحف الإسرائيلي. وفي المعسكرات حول فايد يجمع الإسرائيليون الأسرى المصريين وتحولت سينما المنطقة إلى مستشفى يقوم به الأطباء الإسرائيليون بإسعاف الجرحى، الأسرى غير المصابين ينقلون في باصات شركة إيجد وفي سيارات أخرى إلى سيناء، قافلات الأسرى لم تكن محمية والإسرائيليون والأسرى المصريون يتبادلون الحديث ويصافحون بعضهم البعض ولم يكن هناك مظهر من مظاهر الحقد بين الطرفين ملموس في هذه الساعات ولم تكن القرى في منطقة القتال قد أصيبت بأضرار بالغة والفلاحون المصريون يمتطون الحمير خلف الجبهة ذاهبين إلى حقولهم وكأن شيئاً لم يحدث ولا يدرون أنهم قد أصبحوا الآن تحت الحكم الإسرائيلي ويشكرون الجنود الإسرائيليين الذين يساعدونهم في جمع أبقارهم وبعد منتصف الليل كان الهدوء يخيم على الجبهة ولكن الإمدادات تستمر تحت جنح الظلام عبر الجسور إلى الضفة الغربية التي كانت قوية بشكل حيث أن المدرعات والسيارات لدى عبورها لم تكن تحتاج إلى ترك مسافة فيما بينها بل كانت على العكس من ذلك مزدحمة ومتراصة في عبورها لهذه الجسور ولم يكن الجيش الإفريقي[1] الإسرائيلي ليعاني صعوبة في الحصول على التموين إذ أنهم استولوا على مستودع هائل للذخيرة في

1 التسمية التي أطلقت على القوة الإسرائيلية على الضفة الغربية للقناة.

فايد ، وقبل منتصف الليل يبلغ قواد القطعات الإسرائيلية عن قصف متفرق للمدفعية المصرية حيث يحاول الجيش الثالث المصري أن يجبر الإسرائيليين على التراجع باتجاه الشمال.

في الصباح الباكر من يوم ٢٣ تشرين الأول تتحرك الدبابات الإسرائيلية من جديد ويقول آرون : سوف نصفي الآن الحساب وما أن حل المساء حتى كانت القوات الإسرائيلية قد وصلت إلى ميناء عنابيه على خليج السويس والآن قطعت جميع الطرق المؤدية للجيش الثالث ، عشرون ألف جندي تم الآن حصارهم في مدينة السويس والضفة الشرقية المقابلة ولا يمكن إمدادهم بعد اليوم . ودافيد العازار يقذف بالسلاح الجوي إلى المعركة والذي لم يعد له أن يخشى صواريخ سام ـ ٦ التي تم تدميرها ولم يعد هناك أية قاعدة للصواريخ بين جنيفا والسويس والجيش الثالث يفقد الغطاء الجوي ، طائرات الفانتوم تهاجم بدون انقطاع الدبابات المصرية في هذه المنطقة ، والأركان العامة المصرية تأمر السلاح الجوي بالدخول في المعركة لكن طائرات الميغ الأقل مستوى وفاعلية من الفانتوم يسقط منها ٤٠ طائرة في هذا اليوم ٢٣ تشرين . والجنرال العازار يتابع من الجو بطائرة هيلكوبتر تقدم قواته وكان يهدف في هذا اليوم إلى تحقيق النصر الكبير ، نصراً يعيد للجيش الإسرائيلي ثقته بنفسه ، أجهزة الإعلام الإسرائيلية تتحدث عن النصر ، والجنرال هيرتزوغ المعلق الإسرائيلي يكشف النقاب عن السر الكبير وفي نفس الوقت تلتزم أجهزة الإعلام المصرية الصمت ويحاول المسؤولون المصريون أن يقللوا من شأن هذا الهجوم المعاكس ولكن الناس يشعرون في هذا اليوم أن المعركة قد قربت من العاصمة حيث

كان يسمع في القاهرة أصوات نيران المدفعية المشتركة في المعركة، ومحافظ القاهرة يأمر باتخاذ الإجراءات اللازمة للدفاع الجوي.

ليلة القدر تنهي عند الإسلام شهر رمضان وفي هذه الليلة كان على الرجال المصريين من مواليد ١٩٤١ حتى ١٩٥٢ أن يسجلوا أسماءهم لدى حزب الاتحاد العربي الاشتراكي الذي يبدأ الآن في التهيئة للحرب الشعبية وتسليح الشعب ويحذوا المصريون حذو مخطط وزير الدفاع السوري مصطفى طلاس لكن الوقت كان متأخراً لهذا الغرض واللجان تبدأ بعقد الاجتماعات وإلقاء الخطب ولكن السلاح لم يكن موجوداً فالسادات لم يجرؤ على تسليح الشعب وخاصة الطلاب لأنه كان يخشى أن يجلب له ذلك مزيداً من المتاعب والمسدسات الرشاشة في أيدي الطلبة قد تؤدي إلى عواقب وخيمة في القاهرة وفي ٢٣ تشرين الأول يرفض الرئيس توزيع الأسلحة وبرأيه أنها حرب جيوش والجيش المصري لا ينقصه جنود ونصف الجيش المصري الذي يبلغ تعداده نصف مليون جندي يتمركز في منطقة الجبهة على القناة والنصف الآخر يتمركز في دلتا النيل.

في مساء يوم ٢٣ تشرين الأول يتفق القائد المصري والقائد الإسرائيلي في منطقة الجيش الثالث على وقف إطلاق النار ولأول مرة ومنذ سنين يتكلم ضباط من الجانبين مع بعضهم البعض ليبحثوا في تفاصيل الهدنة وكانت أصعب مشكلة هي قضية تمويل الجيش الثالث بالغذاء والماء ويصرح ناطق إسرائيلي بأنه لا يوجد خطر محدق بجنود الجيش الثالث بخصوص الماء والغذاء، وموشي دايان وزير الدفاع الإسرائيلي يقدم مساعدة إنسانية للمحاصرين إذ يسمح بتموين الجيش الثالث بالمواد الغذائية كما تنقل طائرات الهيلكوبتر

الإسرائيلية في تل أبيب الدم للجيش الثالث لمعالجة جرحاه، كما فرض الجنرال حاييم بارايف على الجيش الثالث الانسحاب من المنطقة المحاصر بها على أن يترك أسلحته وراءه لكن القائد العسكري المصري لمنطقة القناة يرفض هذا العرض. وتقول غولدامائير في تل أبيب أن قواتنا في الأرض الإفريقية قوية وبإمكانها القيام بأي هجوم ونحن الذين نقرر الآن نتيجة المعركة.

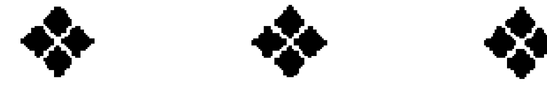
تقوم مصلحة البريد الإسرائيلية بعد الهدنة بإقامة المواصلات السلكية واللاسلكية على الضفة الغربية وتربط المنطقة بشبكة الهاتف الآلي الإسرائيلي المباشر ويتمكن الجنود من الاتصال بذويهم وعائلاتهم في الوقت الذي لم يعد فيه للجيش الثالث أي اتصال بالقيادة العامة في القاهرة ويكتشف الإسرائيليون أن المصريين قد تفككوا في نطاق هذا الجيش ولم تعد لهم قيادة مركزية قوية إذ أصبحوا يستسلمون بالمئات لأنهم لم يعودوا يتلقون أوامر القيادة العامة.

بعد بداية الهدنة الثانية يقرر مجلس الأمن ما يلي: بالإشارة إلى القرار رقم ٣٣٨ تاريخ ٢٢ تشرين الأول والقرار رقم ٣٣٩ تاريخ ٢٣ تشرين الأول يسجل مجلس الأمن عمليات خرق الهدنة ويعلن عن خيبة أمله بأن مراقبي هيئة الأمم المتحدة على الجبهتين لم يكن باستطاعتهم أن يقوموا بعملهم حتى الآن. ويطلب من جديد الالتزام التام بالهدنة وان يعود الطرفان إلى أماكنهم التي كانوا عليها في الساعة ١٦,٥٠ حسبت التوقيت المحلي في يوم ٢٢ تشرين الأول، ويقرر المجلس إقامة وحدة دولية تحت إمرته دون أن تحوي جنوداً تابعين للدول الأعضاء الدائمين الخمسة في مجلس الأمن ويرجو من الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة باتخاذ الخطوات اللازمة وخلال ٢٤ ساعة

لتحقيق هذا الغرض، كما يرجو منه أن يخبر مجلس الأمن بانتظام عن تطورات الموقف وعن تطبيق القرارين ٣٣٨ و٣٣٩ ويطلب من جميع الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة أن تقدم المساعدة في تطبيق هذه القرارات ويكرر تأكيده على عودة القوات المتحاربة إلى أماكنها التي كانت تحتلها في الساعة ١٦,٥٠ حسب التوقيت المحلي في يوم ٢٢ تشرين الأول. لكن غولداماثير تقول: ليس من الممكن معرفة الخطوط في ذلك الوقت الذي حدده قرار مجلس الأمن، بينما تقول مصر أن تحديد ذلك يمكن أن يتم عن طريق الصور التي تقدمها الأقمار الصناعية الروسية والأمريكية لكن الدولتان الكبيرتان روسيا والولايات المتحدة لا تقدمان هذه الصور وإذا كان على إسرائيل أن تنفذ مطالب مجلس الأمن فيترتب عليها أن تتراجع عن المنطقة بين السويس والكيلو ١٤٠ وهذا ما معناه أن يعود الاتصال بين الجيش الثالث وباقي القطعات المصرية ويعود الاتصال بين السويس والقاهرة ولكن إسرائيل لا توافق على الانصياع لقرار مجلس الأمن وطلبه هذا.

في ٢٦ تشرين الأول يحاول المصريون خرق الحصار وإلى الشمال من مدينة السويس تهاجم الدبابات المصرية. ووحدات هندسية تبني جسراً ضيقاً للمشاة ليحاولوا الانسحاب لكن سرعان ما يحطم الإسرائيليون هذا الجسر، ولم تكن محاولة خرق الحصار من قبل المصريين محاولة جدية لأنها كانت من تخطيط إحدى القطعات المحاصرة وليست خطة من الأركان العامة. ورئيس الجيش المصري الثالث اللواء عبد المنعم وازن طلب من جميع وحداته التي تمكن الاتصال بها لاسلكياً أن تتقيد تقيداً تاماً بالهدنة وكان يعد نفسه للاتفاق مع

اللواء الإسرائيلي أبراهام آدم وستكون نتيجة هذا الاتفاق سياسية بحتة إذا كانت النتيجة الأسر أو الانسحاب بكامل الأسلة، وفي القاهرة ينظر الرئيس السادات بتفاؤل لمصير الجيش الثالث ويقول: ألاقي صعوبات هائلة بضبط أعصاب قواد القطعات، ويعترف الإسرائيليون أنفسهم بأنهم يقفون على أقدام ضعيفة ويقول المصريون يمكننا بكل سهولة إبادة الإسرائيليين لأنهم يقفون بين جبهتين ففي الشرق جنودنا في مدينة السويس وإلى الغرب من القوات الإسرائيلية تقف اكبر قوة ضاربة مصرية وإذا أراد الإسرائيليون الحرب من جديد فليبدأوا وسوف نخنقهم.



فرصة وقف إطلاق النار

الرئيس السوري حافظ الأسد يتحدث في التلفزيون لمدة نصف ساعة ويقول:

سمعت من الراديو نبأ قبول مصر لوقف إطلاق النار - في المقاهي والمقاهي الشعبية التي يشرب فيا الناس الأراجيل يستمع الشعب وأفراد المقاومة الشعبية لخطاب الرئيس وينتظرون منه شرحاً لماذا أوقف إطلاق النار؟ - حافظ الأسد يحمل الرئيس المصري السادات المسؤولية ويتابع قوله السادات أكد لي أن لديه ضمانة من الاتحاد السوفيتي بأن الإسرائيليين سوف ينسحبون من جميع الأراضي المحتلة ويقول الأسد لابد من تجريب هذه الضمانة ولا يخفي في خطابه تشاؤمه من أن تؤدي المفاوضات إلى نتيجة، مما يثير القلق في صفوف المستمعين ويقولون إذن لماذا قبلنا بوقف إطلاق النار؟ وفي هذه اللحظات الحاسمة يعترف حافظ الأسد لشعبه أنه لم تحرر أية قطعة من الأراضي المحتلة ولازالت الجولان في يد العدو ولكنه يشجع شعبه ويصبره بقوله: لم نتمكن من تحرير أرضنا بعد لكننا حررنا أنفسنا من الخوف، حطمنا القيود وحررنا أنفسنا من مركبات النقص ويمكننا الآن أن نرفع رأسنا عالياً ولن نحنيه بعد الآن إلا أمام الله والشهداء.

وكان يخيم على الناس في دمشق جو من الكآبة والحزن ويغادر أفراد المقاومة الشعبية المقاهي وأماكن التجمعات حيث استمع الناس إلى خطاب

الرئيس وهم حزينون حتى أنهم يعرفون أن العدو قد استولى على مناطق جديدة وأن الإسرائيليين يقفون الآن على بعد ٤٠ كيلومتراً من العاصمة. نتائج محزنة ومؤلمة يتساءلون لماذا إذن سلح شعبنا؟ لماذا تقدم مئة ألف لصفوف المقاومة الشعبية؟ ويرى الناس في دمشق أن جيشهم لازال سليماً حتى تمر السيارات المحملة بالجنود يومياً عبر شوارع المدينة باتجاه الجبهة وكانت المدينة قد هيأت نفسها للدفاع ووزير الدفاع مصطفى طلاس كان قد هيأ خطة للحرب الشعبية والجميع على يقين بأن الإسرائيليين كان يمكن إبادتهم في حرب طويلة تستمر أسابيع أو أشهر بعد أن وزعت على الشعب البنادق الأوتوماتيكية سريعة الطلقات من طراز (Ak -47)، وبنهاية شهر رمضان يبدأ الناس في التعرف على حقائق الحرب كما تسري إشاعة في دمشق مفادها: أن لواء مدرعات سوري بكامل رجاله والذي يبلغ تعداده ستة آلاف قد أبيد في الجولان وما كان بالإمكان إنقاذه. ويبدأ الشعب في الحديث عن خسائر الجيش الذي لم يكن ليعلن عن خسائره ويزداد القلق بين صفوف الناس وفي المناقشات والأحاديث التي تدور في الأسواق والشوارع الضيقة تحاول أن تنال من شأن رئيس الدولة وتظهر للوجود التحزبات الدينية. ولكن الغضب والحقد على المصريين يزداد يوماً بعد يوم لأنهم قبلوا بالهدنة ويقول شباب المقاومة الشعبية لو أننا دخلنا الحرب وحدنا بدون المصريين، لكنا أسياد أنفسنا وكنا نقرر ما علينا فعله دون أن يؤثر على قرارنا موقف الآخرين.

والأركان العامة السورية كانت متفهمة موقف العراقيين بسحب قواتهم من الجبهة ولهذا يجهز الحزب "حزب البعث العربي الاشتراكي" نفسه ويرسل مئات من

أعضائه للمدن والقرى لإلقاء الكلمات وشرح الموقف للشعب ويقول الخطباء الآن بدأ مجدنا وجدنا أنفسنا ما قاله الأسد نفسه في حديثه في التلفزيون، ويقول الآن وبعد أن حررنا أنفسنا، تبدأ مرحلة جديدة مرحلة التخطيط وجمع القوى وبعد ذلك نضرب من جديد ويشبه أعضاء الحزب الشعب بأنه كالأسطورة التي تقول بأن الروح التي توضع في زجاجة ويغلق عليها ما يلبث الغطاء أن يطير وتنطلق الروح وتكبر وتكبر إلى ما لا نهاية، والعدو سوف يتعلم أن يخافنا.

حزب البعث العربي: يعني ولادة الأمة العربية من جديد وهو حزب الدولة. ومن أهداف الحزب توحيد الوطن العربي من وحي تاريخه ومجده الماضي من الخليج إلى المحيط ويقول الحزب أنه بعد إتمام هذه الوحدة تتهيأ للوطن العربي قوته المادية والروحية وعندها يبدأ ممارسة نصيبه في التقدم والحضارة في العالم، ويشكو البعث من أن عقلية الشعب العربي لازالت تعاني من ثمانمائة عام من الإرهاق والاستعمار والعبودية فقد حكمها الأتراك ثم الإنكليز والفرنسيون وبعدهم جاءت الاحتكارات الرأسمالية واحتكارات البترول العالمية"، وتفوق الإسرائيليين هو آخر مظاهر هذا الاستعمار وبدء ميلاد الأمة العربية من جديد، يبدأ عندما نبرهن للعالم أننا لسنا دون الإسرائيليين. كل هذه النقاط كانت محور الدعاية الحزبية في الأسبوع الذي تلا وقف إطلاق النار وقد كان مهماً جداً للرئيس الأسد ووزير دفاعه أن يكسبا تأييد الشعب لأنهما بغير هذا التأييد يمكن أن يتعرضنا لخطر محاولات انقلابية فلربما يتشكل في هذه الحالة لدى قائد سلاح المدرعات القناعة بأن هناك رجلاً آخر له من المؤهلات ما يمكنه من تصريف الأمور بشكل أحسن،

واستطاع حافظ الأسد ومصطفى طلاس قبل الحرب أن يبعدا عن أنفسهم كل شك وكل محاولة انقلابية إذ كان شعارهما آنذاك من يقف ضدنا هو ضد تحرير الوطن ومازال هذا المبدأ شعارهما بعد نهاية الحرب.

بعد نهاية شهر رمضان ينتظر المسلمون أول هلال للقمر الذي يعني بدء عيد الفطر والذي يستقبله الناس بسرور بعد الصبر الطويل والامتناع عن الطعام والشراب في شهر رمضان، وفي هذه السنة تختصر الاحتفالات الرسمية على الصلاة في المسجد الأموي، ويحاول حافظ الأسد بهذه المناسبة أن يجس نبض الناس ليعرف فيما إذا كان الشعب يرغبه رئيساً له فيجتاز السوق الضيق المؤدي للمسجد على الأقدام في الساعة السادسة والنصف صباحاً وإلى جانبه كبار الضباط وأعضاء الحزب وعلى بضعة أمتار خلفهم أعضاء الوزارة وكان سوق الحميدية مكتظاً بآلاف من الناس المتجهين إلى المسجد الأموي، وكان حرس الرئيس يلاقون صعوبات جمة في فتح الطريق بين الناس لحافظ الأسد الذي كان يحاول التبسم في هذه الظروف الحرجة وكانت الصيحات تتعالى حافظ حافظ وكان يرد على هذه الصيحات والإعجاب الجماهيري برفع يده محيياً بكل بساطة وقد سمع حافظ الأسد في الساعات الحرجة من الحرب ما كان يدور بين الناس إذ كانوا يقولون: أنه لمن حسن حظنا أن يكون على رأس السلطة رجال بسيطون مثلنا كحافظ الأسد وأنور السادات وليس رجالاً فوق العادة وأنصاف آلهة كجمال عبد الناصر.

حافظ الأسد في لباسه الخاكي المتواضع ينحني للصلاة في المسجد الأموي في دمشق ووزير الأوقاف يلقي كلمة الوعظ ويقول: سوف ننتصر أو نموت، نقسم

بذلك ونعلق ثقتنا بالرئيس حافظ الأسد، سورية تكتب أعز صفحة في تاريخها الطويل شهداؤنا أثبتوا عن بطولات خارقة، الله سوف ينصرنا، ويعيد الوزير القسم والثقة بالرئيس ثلاث مرات لتتلو، صيحات الجماهير في المسجد حافظ حافظ حافظ وتتصاعد الصيحات أكثر فأكثر قوة ولمدة طويلة في المسجد. ويعود حافظ إلى موكب السيارات الذي ينتظره" على مدخل السوق ويلمس أن سكان دمشق يقدرون وضعه وقد سامحوه على هذه المعركة الضائعة من جديد لكنهم يتوقعون جميعاً أن تعود الحرب من جديد وأكبر نجاح للرئيس هو شعاره "ما أخذ بالقوة لا يسترد إلاّ بالقوة"، وعار حرب ١٩٦٧ يجب علينا أن نغسله.

وقد نسي السوريون والمصريون عار حرب ١٩٦٧ وآثارها التي كانت تثقل كاهلهم وكاهل الأردنيين وكانت هذه الدول الثلاثة قد فقدت أجزاء كبيرة من أراضيها "بدون حق" كما تقول حكوماتهم.

حرب ١٩٦٧ بدأها الإسرائيليون في الهجوم على الجيش المصري في سيناء وقد أدانهم مجلس الأمن بذلك، ولهذه الحرب مقدمات كان للعرب قسط فيها وهذا ما يجعل إسرائيل لا تطمئن لموضوع الضمانات للحدود الآمنة التي تردد ذكرها فيما بعد. في عام ١٩٦٧ لم يكن هناك دولة عربية واحدة على استعداد للاعتراف بإسرائيل وكانت حجتهم أن الفلسطينيين واليهود الذين يعيشون اليوم في فلسطين يبلغان تقريباً نفس العدد واليهود لا يوجد لهم أي حق في الأرض الفلسطينية. والدولة اليهودية القديمة دولة دافيد وسليمان كانت قد استمرت ٧٢ عاماً وقبل ثلاثة آلاف سنة ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك وجود لأية دولة يهودية. لكن اليهود يرون أنه رغم ثلاثة آلاف سنة فإن فلسطين بين

الجليل والنقب والبحر والأردن هي وطنهم الموعود ، وارتباطهم الروحي بفلسطين هو دليلهم على أن الله أراد لهم أن يعودوا إلى هذه الأرض.

وقبل حرب ١٩٦٧ كان العرب يعتبرون قيام إسرائيل على بقعة من أراضيهم تحدياً لهم، كما شعروا بأنها جسم غريب في وطنهم يجب انتزاعه، وبرأيهم أن الاستعمار قد أقام إسرائيل في المنطقة كرأس جسر له وأنها تقوم بدور الدركي الأميركي في المنطقة لحماية مصالح الاحتكارات العالمية، وبينما يرون بإسرائيل مشكلة ذات أبعاد عالمية مرتبطة أشد الارتباط بالولايات المتحدة فإنهم قد أخطأوا التفكير في معركة التصفية وكأنها مشكلة محلية. وفي عام ١٩٦٧ شعروا بأن لديهم من القوة ما يمكنهم من التصدي لهذا التحدي، يومذاك كانت المدفعية السورية على الجولان تضرب باستمرار المستعمرات الإسرائيلية عند بحيرة طبريا وفرقاً من المغاوير كانت تدخل إسرائيل. ويومذاك حذر ليفي اشكول رئيس الوزارة الإسرائيلية في ١٢ أيار ١٩٦٧ بضربة وقائية، وجمال عبد الناصر أكد للسوريين بأنه لن يقف متفرجاً على الأحداث فيما إذا نفذت إسرائيل تهديداتها وقام بحشد قوات في سيناء وطلب سحب قوات الطوارئ تلك التي كانت تتمركز على الأراضي المصرية في سيناء وأجابه الأمين العام للأمم المتحدة بدون تأخر على طلبه هذا وبعد سحب قوات الطوارئ شعرت إسرائيل بالخطر المباشر وفي ٢٣ أيار أغلق مضائق تيران الذي كانت نتيجته شل ميناء إيلات على خليج العقبة وعن طريق هذا الميناء كان تموّن إسرائيل بالبترول والذي يعتبر عصب الحياة في الدول المتحضرة، الولايات المتحدة وإنكلترا تجتمعان بدون نجاح على ذلك بقولهم أن

المضائق هي ممرات دولية وكانت لمصر وسوريا قبل الحرب مكانة وقيمة لدى العرب وقد حان الوقت لأن يتصدى أحد العرب للتحدي الإسرائيلي.

إسرائيل تشعر بأنها مهددة بالخطر وترى أنه عليها أن تفعل ما تستطيع فتدمر بساعات قليلة الأسلحة الجوية العربية وتبيد المدرعات المصرية في سيناء ويهرب الجيش المصري المنكسر في سيناء غرباً تجاه قناة السويس، ويتقدم الإسرائيليون في الجولان دون أن يلاقوا مقاومة تذكر ويوقنون تقدمهم بأنفسهم إذ لم يكن في مخططهم التقدم إلى دمشق، الأردن تضيع الضفة الغربية، نصف مليون لاجئ جديد يضيفون إلى المشكلة عقدة جديدة والملاجئ الفلسطينية التي كانت ممتلئة قبل ذلك تستقبل دفعة جديدة، وتحدي عبد الناصر آنذاك قوبل بتحدٍ آخر إذ كان يقول إذا أرادت إسرائيل الحرب فمرحباً والذي لم يعد ليذكر هذه الكلمة "مرحباً" بعد الحرب.

بعد ذلك أخذ العرب يشعرون بأن إسرائيل لا يمكن محوها من الوجود، والملك حسين الذي يعتبر من قبل الكثيرين أوعى بكثير من غيره من الرؤساء العرب يقول في عام ١٩٦٨ أدرك الآن أن إسرائيل وجدت لتبقى وعلينا أن نتفاهم معها. وثمانية أشهر بعد الحرب يشرح لي الملك ما يلي: ما يمكن أن نصل إليه هو تحقيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٣ الذي ينص بصراحة أنه على الجيش الإسرائيلي الانسحاب من الأراضي المحتلة في عام ١٩٦٧ وإنني على استعداد لبعض التنازلات تجاه المسؤولين الإسرائيليين والأردن على استعداد لإقامة منطقة منزوعة السلاح بأراضيها مما يعطي الشعور لإسرائيل بالأمان.

التشنج في الصف العربي تجاه إسرائيل يبدأ حسين بإزالته مع ما في ذلك من مخاطرة كبيرة بالنسبة له، وما يلبث الملك فيصل ملك المملكة العربية

السعودية أن ينادي بحرب مقدسة ضد إسرائيل دون أن يكون لها صدى، وهو كحامي أعلى للمدن المقدسة مكة والمدينة يشعر بواجبه أن يدعو إلى الجهاد المقدس ضد إسرائيل. الإسرائيليون يستولون على المسجد الأقصى وقبة الصخرة ويعتقد الملك فيصل أن خطة الإسرائيليين المقبلة هي إعادة بناء معبد داوود على أنقاض المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ورغم الحريق المشهور للمسجد الأقصى لا تلاقي صيحات الملك فيصل لدى المسلمين إلا آذاناً صماء مما جعل الملك يصل إلى نتيجة وهي أنه لابد من الاعتراف بالأمر الواقع وللملكين فيصل وحسين علاقات طيبة مع الولايات المتحدة الأمريكية وبسبب العلاقات القلبية التي تربط الولايات المتحدة وإسرائيل تعمل أميركا على تشجيع هذا الاتجاه لدى كل من الملكين ويبدأ نوع من التنسيق والتفاهم بين كل من هذين البلدين والولايات المتحدة التي تساعد الملك حسين في معاركه ضد الفدائيين وتأمر قاعدتها في المملكة السعودية أن تقف إلى جانب الملك في حالة قيام قطعات من الجيش بمحاولة انقلابية ضده. ورجت أميركا الملوك العرب التدخل لدى الرؤساء العرب لتغيير موقفهم وسياستهم تجاه إسرائيل.

السعودية بلد غني والسادات يحتاج إلى المال، فيصل يمول التسليح المصري ويقوم بتقديم القطع النادر لشراء الدبابات والصواريخ من الاتحاد السوفييتي ويمكن الحكومة المصرية من التحضير للحرب، وحتى وقت طويل بعد نهاية حرب ١٩٦٧ كان المصريون يعتبرون فيصل ملكاً إقطاعياً ولذلك فهو عدو لمصر الاشتراكية لكن هذا العدو تحول إلى صديق في عام ١٩٧٢، فيصل والسادات يعانقان بعضهما بعضاً ويتحول الرأي العام في مصر تجاه حل

المشكلة الفلسطينية - الإسرائيلية وبدأ السياسيون في مصر يعتقدون بأن إسرائيل لا يمكن محوها من الوجود.

أنور السادات يقدم في عام ١٩٧٢ ضمانات لإسرائيل بحدود آمنة وتنقل مصر إلى أسماع أميركا أنها على استعداد لإقامة مناطق معزولة من السلاح شرق سيناء ووضع شرم الشيخ تحت رقابة دولية وأنها لا تفكر بعد اليوم بإغلاق الخليج أمام الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة. ورغم الصعوبات الجمة في التغلب على قناعات ماضية فإن مصر لن تغلق قناة السويس في وجه الملاحة الإسرائيلية في حال فتحها، وإسرائيل لا تصدق هذه العروض، والسادات يواجه صعوبات داخل البلاد حيث يتهمه الناس بالضعف والتساهل.

السوريون لا يزالون عند موقفهم وهو أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة والإسرائيليون لا يفهمون لغة أخرى، وبقيت سوريا وحدها في هذا الاتجاه وكانت البلد العربي الوحيد المجاور لإسرائيل الذي يرفض التفاوض معها. وحتى قيام الحرب الرابعة لم يكن الأسد ليعترف بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وأشير إلى ذلك في جميع مؤتمرات الحزب التي عقدت وحافظ الأسد لن يتأخر لحظة في إعطاء موافقته عندما اقترح عليه السادات أن تقوم سوريا ومصر بالحرب المشتركة ضد إسرائيل لاستعادة الأراضي المحتلة، واستطاع الفريق الشاذلي أن يحصل على موافقة السوريين بوضع جبهتهم تحت قيادة مصرية ووضعت جبهة الجولان تحت إمرة القائد المصري الفريق أحمد إسماعيل وكان قبول السوريين بهذا الاقتراح على مضض، ولكن القيادة المشتركة لم تكن فعالة وهكذا فقد هيأ كل بلد بصورة مستقلة للحرب ودون أن يتم التفاهم على إستراتيجية موحدة وكل من الحليفين هيأ

خطة مختلفة للحرب. فسوريا هيأت نفسها لحرب طويلة، مصطفى طلاس يعتقد باستحالة الانتصار على الجيش الإسرائيلي بحرب سريعة خاطفة وأما حرب التحرير الشعبية فهي حرب استنزاف والطاقات البشرية العربية يمكنها أن تبيد الإسرائيليين في حرب طويلة الأمد والمعارك حول دمشق سوف تهز العالم، وحافظ الأسد تنبأ بأن الحرب ستكون طويلة لكن السادات كان يريد انتصارات مفاجئة ولم يكن لديه مخطط للتعمق في سيناء وكان يهدف إلى أن يحرر المصريون منطقة على الضفة الشرقية طولها ١٢٠كم ولا يزيد عمقها على ٢٠ كم وبعد ذلك يبقى الجيش المصري في أماكنه وفي اعتقاد السادات أن الدول الكبرى سرعان ما تتدخل خوفاً من توسع الحرب وتفرض الهدنة وكان يعتقد بأن الحرب لن تطول أكثر من أربعة أيام والانتصارات المعنوية والنفسية لمصر كانت كافية لأن تقبل مصر بالهدنة ولكن كان هناك بعض الأخطاء في حساباته هذه.

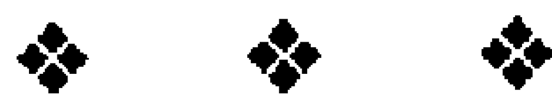
الدكتور محمد حسن الزيات رجل سمين البنية لطيف المعشر جذاب، يميل بسرعة إلى التعرق ويعتبر أفضل وزير خارجية مر على تاريخ مصر، وكخطيب يبدو أكثر لباقة ولطفاً مما هو في الحقيقة وكان يمثل وجهة النظر العربية بكل حدة ولكن ممزوجة بروح النكتة ويمثل الرجل الغاضب الذي يسيطر على نفسه وأعصابه على أفضل ما يكون، الدكتور الزيات كان يريد تجنب هذه الحرب وكان من أكبر المبشرين بالحل السلمي. وعندما كان مندوباً لمصر لدى الأمم المتحدة في نيويورك كانت له صلات جيدة بالسياسيين الأمريكيين والروس وكذلك على صلات جيدة برجال الصناعة والأعمال الأميركيين وكان يحاول كسبهم لجانب العرب بالحجة التالية: نحن مئة مليون إنسان ومعنا تستطيعون أن تعقدوا صفقات كبيرة

ومصالحكم معنا أكبر من مصالحكم وأعمالكم مع شعب لا يتعدى الثلاثة ملايين إسرائيلي. والدكتور محمد الزيات كان يترأس حركة عزل إسرائيل في العالم الثالث تحت شعار تضامن الشعوب الفقيرة ضد الأسياد المستعمرين ومنهم إسرائيل، واستطاع بكل لباقة أن يضع إسرائيل في أعين العديد من الدول في مصاف الدول المستعمرة، والزيات الذي امتاز بحسن ضيافته يفهم أكثر من غيره طريقة الكلام مع الإفريقيين: يقول لهم نحن المصريين أيضاً أفريقيون ومصر هي جزء من أفريقيا وقد أصابت نجاحاً كبيراً في هذا المجال. كما كانت تربطه بالأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم Kurt Waldheim صداقة متينة والذي كان غالباً ما يتوقف في القاهرة في طريقه إلى الشرق الأقصى ليفاوض صديقه الزيات وكانا يتبادلان في قاعة الضيافة بمطار القاهرة بعض الأحاديث والآراء وقد أحيطت هذه اللقاءات بسرية تامة.

وكان الرئيس المصري يعلق أهمية كبرى على وجود وزير خارجيته في نيويورك في بدء الحرب وكان عليه أن يعبئ الرأي العام في الأمم المتحدة ضد إسرائيل محاولاً أن يلحق بإسرائيل دور المعتدي وذلك بالإدعاء بأن إسرائيل قامت بقصف القوات المصرية عند قرية كفر زوار على الضفة الغربية بالمدفعية مما اضطر مصر أن تقوم بالدفاع عن النفس وكانت هذه الخطة ترمي بعد الإدعاء بأن إسرائيل هي المعتدي أن يتقدم بعرض للهدنة وحجته في ذلك بأن هذه الحرب ليست حرب مصر وإنما حرب إسرائيل ونحن على استعداد لأن نوقف إطلاق النار، وكان من الضروري أن يسبق ذلك تحقيق انتصارات للجيش المصري بعبور القناة ونزوله على الضفة الشرقية. وفعلاً كان الزيات قد اتهم

إسرائيل في بدء الحرب بالمعتدي ولكن بعد أن حقق الجيش المصري انتصارات غير متوقعة رأى السادات أن هذه الخطة لم تعد واردة.

والسادات بعد أن رأى الانتصارات الواحد تلو الآخر أراد الآن أن يفخر بهذه ـ الانتصارات وقامت كل من مصر وسوريا بتسمية هذه الحرب بحرب التحرير مما يدل بصورة غير مباشرة على اعترافهما بأنهم كانوا البادئين بالحرب وهكذا جردت الخطة التي كان على الزيات تنفيذها في هيئة الأمم من جميع حججها. ولما كان العرب هم الذين بدأوا الحرب وخططوا لها وقاموا بها وحققوا الانتصارات لم يعد لمصلحتهم أن يتقدموا الآن بطلب الهدنة ولم يعودوا يفكرو في وقف إطلاق النار إذ أن نإسرائيل كانت قد منيت بأول هزيمة وأتيحت الفرصة للسوريين والمصريين أن يتابعوا انتصاراتهم وانتقل زمام المبادرة من يد وزير الخارجية المصرية ليد وزير الخارجية الأميركية هنري كيسنيغر الذي بدأ يلح على وقف إطلاق النار ولم يؤيده الروس في بادئ الأمر لأنهم رأوا بأن العرب قد حققوا انتصارات وهم مستمرون في ذلك ولكن بعد تحقيق الانتصار الإسرائيلي بالعبور للضفة الغربية تحول مجرى الحرب وتحول معه موقف مصر من موقف القوي إلى موقف الضعيف ووقف إطلاق النار يأتي في هذا الوقت متأخراً بالنسبة للسادات وعلم الزيات أن رئيسه قد عين وزير خارجية جديد إسماعيل فهمي وهو في طريقه للولايات المتحدة ويعود الزيات للقاهرة غاضباً ليشكو أمام الرئيس أمره ولم تعد الهدنة في الوقت الحالي من مصلحة أحد الطرفين المتحاربين فمصر ترى أنها قد أضاعت الفرصة المناسبة لذلك وإسرائيل ترى أن الوقت لم يحن لقبول وقف إطلاق النار.



هدايا الدول الكبرى

أنور السادات يعانق السفير السوفيتي في القاهرة فلاديمير فينوفغرادوف Wladimir Winogrgradow قائلاً له: بأسلحتكم بأيدينا عدنا إلى سيناء وشكره للسفير كان بالغاً وفينوفغرادوف يجيبه بمنصبي هذا مرّت علي أيام سيئة وأخرى جميلة ولكن هذا اليوم لهو أجمل أيام حياتي. بعد قيام الحرب والانتصارات الأولى بالأسلحة الروسية قدم الروس المزيد من المساعدات وأرسلوا الإمدادات لتعويض ما ضاع في الحرب وبعد مرور أربعة أيام على بدء الحرب تهبط في ١٠ تشرين الأول أول دفعة من طائرات النقل الروسية من طراز أنتونوف ٢٢ Antonov في حلب وكانت كل طائرة تحمل ٨٠ طناً من الإمدادات الحربية المؤلفة من ذخيرة للمدافع وقطع تبديل للدبابات وصواريخ الدفاع الجوي سام ـ ٦ ودبابات من طراز ت ٦٢، يضاف إلى ذلك أن الرئيس السادات حصل على سلاح جديد بإمكانه نقل الدمار إلى قلب إسرائيل وكان قد رغب من الروس تزويده بصواريخ بعيدة المدى يتمكن بواسطتها من ضرب تل أبيب، وفي مطلع عام ١٩٧٢ حضر المارشال غريتشكو إلى القاهرة وأحضر معه طائرات ميغ ٢٣ وليغضب المصريين عاد بها من جديد دون أن يعطي وعداً بتزويدهم بهاذ النوع من الطائرات ولكنه الآن أرسل عشرين صاروخاً من

نوع (سكون Scud) الذي يبلغ مداه ٣٠٠كم ويبلغ البعد الجوي من الضفة الغربية للقناة من تل أبيب ٢٠٠ كم ويبلغ وزن الصاروخ ٥ طن ويطير بسرعة ٥٠٠ كم في الساعة وتستخدم لإطلاق هذا الصاروخ المواد المحترقة السائلة وأنور السادات لا يستعمل هذا الصاروخ فوراً وإنما يحتفظ بهذا السلاح إلى ما بعد إذ يقول: إذا تعندت إسرائيل فسوف ننقل الدمار إلى قلبها.

عشرون طائرة كبرى من طائرات النقل الروسية تدخل يومياً الأجواء العربية مما كان يخيف طائرات الخطوط المدنية حيث كانوا يرون بأجهزة الرادار طائرات لم يكونوا على علم بوجودها والتي لم تكن لتعلن عن نفسها والأميركان كانوا يطيرون بطائرات النقل الكبيرة جالاكسي c – 5 A Galaxy باتجاه إسرائيل وتحمل الطائرة من هذا النوع ما يزيد على ١٠٠ طن من المعدات وبإمكانها نقل الدبابات الكبيرة وبدأت إسرائيل تتسلم يومياً ٨٠٠ طن من الإمدادات وصرح رئيس سلاح الجو الإسرائيلي في اليوم التالي لوقف إطلاق النار الجنرال بنيامين بيايد Benjamin Pelled بقوله: عاد سلاحنا الجوي كاملاً كما كان وعوضنا عن الطائرات التي فقدناها في الحرب.

وكان يقود الطائرات الأميركية لإسرائيل طيارون أمريكيون أتوا من أميركا وأوروبا من المطارات الأميركية في ألمانيا الغربية عوضت أميركا لإسرائيل طائرات الفانتوم التي فقدتها. وكانت طائرات الفانتوم تزود في الجو بالوقود فوق المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، وكانت طائرات التموين بالوقود من طراز (Kc – A35) تنتظر هذه الطائرات كل ٢٥٠٠ كم لتموينهم بالوقود وطائرات التموين هذه تتمركز عادة بالقاعدة الجوية New Hampshir وكانت

طائرات الفانتوم الأميركية تمحي من عليها الشعارات الأميركية وترسم عليها نجمة داود وبقي في إسرائيل خمسون ضابطاً أميركياً من الاختصاصيين بالتخطيط العسكري للقيام باستلام الإمدادات من طائرات الشحن الأميركية جالاكسي وتسليمها للإسرائيليين ولم يكن لديهم الإذن بالتدخل المباشر في العمليات العسكرية وقد أثبت حطام طائرات الفانتوم التي أسقطت في دمشق بصواريخ سام ـ ٦ أن هذه الطائرات كانت تستعمل من قبل سلاح الجو الأميركي قبل إرسالها لإسرائيل وبسبب ضيق الوقت لم يكن قد وضع الإسرائيليون عليها شعاراتهم وبقيت بعض الإشارات عليها ويرى على بعضها بكل وضوح شارة البحرية الأميركية United states Navy وهذه الشارات جعلت السوريين يعتقدون بأنها طائرات الأسطول السادس الأميركي في البحر الأبيض المتوسط ولكن يعتقد بأن ذلك خطأ وغير صحيح.

وفي الأسبوعين الأولين من الحرب قدمت أميركا لإسرائيل ٤٨ طائرة فانتوم من مستودعات الجيش الأميركي. وفي ١ تشرين الأول غادرت باخرة إسرائيلية ميناء نورفولك norfolk في ولاية فرجينيا محملة بطائرات الكاي هوك وكانت امدادات عسكرية ثلاثة أسابيع كاملة تنقل جواً وبحراً إلى إسرائيل، وأدلى الطيارون الإسرائيليون الأسرى في مصر على شاشة التلفزيون بمعلومات عن المساعدات الأميركية بقولهم: في قاعدة هاستور Hastor الجوية في إسرائيل تتمركز طائرات فانتوم مستعملة وصلت حديثاً من الولايات المتحدة ويومياً يصل من ٨ إلى ١٢ طائرة فانتوم من أوربا والولايات المتحدة، والجسر الجوي الأميركي من قواعد نيو هامبشير New Hampshir وترافيزاير Travis Air

ودولار Dolaware قد عرقل لرفض كل من إسبانيا وإيطاليا أن تضع مطاراتها في خدمة هذا الجسر وقد استعمل الأميركان مطاراً في قاعدة لايس Lajs في جزيرة تيرسيرا Teroeira البرتغالية وهذه القاعدة هي في يد أميركا منذ الحرب العالمية الثانية بموجب عقد إيجار بينها وبين البرتغال وقد أعلن مندوب البرتغال في الأمم المتحدة بأن حكومته لن تجدد هذا العقد مع الولايات المتحدة عند نهايته وما كان ذلك ليمنع استعمال هذه القاعدة من قبل الأميركان ومن الإسرائيليين على السواء حيث كانت تهبط به طائرات البوينغ ٧٤٧ التابعة لشركة العال والتي كانت تنقل قنابل وذخيرة من أميركا لإسرائيل.

وأما الروس فكانوا يزودون العرب من مستودعاتهم الواقعة في دول حلف وارسو، وبمدة ثلاثة أسابيع زود العرب بحوالي ١٢٠٠ دبابة و٣٠٠ طائرة ميغ ٢١ وقد ركز السوريون بين دمشق والجبهة ٦٠٠ صاروخ سام ـ ٦ وهذه الصواريخ وصلت مباشرة من الاتحاد السوفيتي واختصاصيو الصواريخ الروس كانوا ينزلون في فندق سمير أميس في دمشق.

وفي الأيام الأولى من الحرب كان يسمع المارة أمام الفندق أثناء سهرات الاختصاصيين ضحكاتهم العالية وفرحهم بالانتصارات التي كانت تحققها الصواريخ في بدء الحرب وكانت طائرات النقل أنتونوف تصل إلى سوريا عبر يوغسلافيا ثم اختار السوفييت بعد ذلك الأجواء التركية لأن المسافة كانت أقصر، وفي مدينة كييف Kiew كانت تجمع الأسلحة التي سترسل للعرب، وكانت طائرات الأنتونوف تطير من كيف عبر روستوف Rostow وفولغوغراد Wolgagrad وتيفليس Tiflis مارة فوق يوروان Jarwan في

أرمينيا وهنا لا تلبث أن تدخل الأجواء التركية محاذية الحدود الإيرانية ثم تغير طريقها باتجاه الغرب عند Raza' iyal لتهبط في مدينة حلب، وكانت محطات المراقبة لحلف الأطلسي تسجل هذه التحركات دون أن تستطيع تركيا من أن تتخذ إجراءات ضد ذلك لوجود اتفاق جوي بين روسيا وتركيا عقد في عام ١٩٦٩ يسمح للروس باستعمال ممرات معينة في الأجواء التركية دون أن يكونوا ملزمين بالإخبار عن محتوى وهدف طائراتهم على أن يعلموا السلطات المختصة التركية قبل ٢٤ ساعة وأن تكون الطائرات غير مسلحة، وقد أمن الروس مرور طيرانهم بإعلام مباشر للسلطات التركية وبصورة مستمرة عن رحلات طائراتها وكانت طائرات الانتونوف غير مسلحة لكن لم يكن هناك في الاتفاق بند يتعلق بمحتوى الطائرات. وإسرائيل وجهت اهتمامها من اليوم الأول للحرب للأسلحة ذات التوجيه الذاتي الأميركية وهي القنابل من نوع والاي Walleya ومافيريك Maverick وبرهنت هذه القنابل على فعاليتها بالتقدم الإسرائيلي للضفة الغربية للقناة.

وقنبلة والاي AGM – 6 2 A عبارة عن سلاح رهيب ويبلغ وزنها ٤٩٩ كغ وتحوي جهاز قيادة ذاتي في مقدمتها آلة تصوير تلفزيونية ويرى الطيار الهدف متى أصبح في عدسة القنبلة وحينها يقذف بها ويهرب هو من نطاق الدفاع الجوي والصواريخ والقنبلة لا تضيع الهدف بعد أن أثبتته على آلة التصوير التلفزيوني فيها، وفي أجنحة القنبلة محرك يزود جهاز التلفزيون والأجهزة الذاتية للقنبلة بالطاقة اللازمة "لا تمس النافذة" جملة تكتب على النظام القيادي الذاتي للقنبلة إذ أنه حتى بصمات الأصابع على شاشة العدسة

تعطل حركة الأجهزة الإلكترونية لآلة التصوير المركبة على القنبلة. وتتمتع قنبلة مافيريك بنفس الأجهزة الإلكترونية المعقدة لقنبلة والاي مع فارق هو أن المواد المتفجرة عبارة عن مواد صلبة ثابتة يعطي القنبلة مدى أوسع من القنبلة السابقة، وقد استخدمت هاتان القنبلتان في نهاية الحرب الفيتنامية وكانت تصيب بكل دقة وعناية مواقع صواريخ الفيتكونغ ولم يكن لهذه القنابل من وجود في الأيام الأولى للحرب العربية - الإسرائيلية والتي كان بإمكانها أن تدمر الجسور التي نصبها المصريون عبر القناة. ودايان يشكو بكل مرارة أن الأميركان لم يزودوه في الماضي بهذا النوع منها.

وقال وزير الدفاع الأميركي شليزينغر Schlesinger: كنا ننتظر لنرى ما يزود الروس العرب لنزود الإسرائيليين بأسلحة مقابلة وكنا نهدف دائماً إلى إيجاد تعادل في القوى وحينما تبين أن طائرات الفانتوم ليست متفوقة على صواريخ سام - ٦ بدأت أميركا تزود إسرائيل بهذين النوعين من القنابل وأسلحة أخرى لا تقل فعالية مثل الصاروخ جو - أرض من طراز بافيفوي Paveway وقد وقعت تجمعات آليات الجيش الثالث على الضفة الشرقية ضحية سلاح جرب لأول مرة في هذه الحرب وهو القنبلة روكاي Rocheye التي تحوي مئات من العبوات المتفجرة في أغلفة فولاذية تشبه أقلام الرصاص وعندما تلقى هذه القنبلة على وحدات الدبابات المتفرقة تتطاير هذه العبوات الفولاذية وتنتشر لتسقط من جديد بصورة عمودية وتسقط على الدبابات وكانت حينما تصيب الدبابة تقتل كل من فيها وتفجر مستودعات الذخيرة وبهذا السلاح الرخيص أبيدت عشرات الدبابات المصرية وتكاليف قنبلة الـ روكاوي عبارة عن جزء بسيط من تكاليف قنبلتي والاي ومافيريك.

وقد نصح الاختصاصيون العسكريون الأميركيون باستعمال صاروخ جو - أرض شرايك Shrike ضد شبكة الرادار السورية وهذا الصاروخ يبحث ذاتياً بواسطة الجهاز الإلكتروني الذي يحويه عن هدفه وأجهزته هذه توجهه نحو محطات الرادار على الأرض ولكن مما أثار غضب الإسرائيليين أن السوريين قد استعملوا خدعة تعلموها من الفيتناميين الشماليين وذلك بتغيير الذبذبة لمحطات الرادار وتشغيل وإيقاف أجهزة الرادار بصورة متقطعة مما يضلل الصاروخ ويجعله يفقد هدفه ويسقط بعيداً عنه. ولم يزود الروس أصدقاءهم العرب بأسلحة ذكية مقابلة كالأسلحة الأميركية ولم يحدث أي تغيير في الأسلحة العربية على الجانبين المصري والسوري طوال الأيام الثمانية عشر للحرب وبقي الصاروخ سام - ٦ أكثر الأسلحة فاعلية، وأحدث صاروخ روسي هو سام – ٦ الذي يستعمل ضد طائرات الفانتوم والسكاي هوك التي تطير على ارتفاع منخفض وكانت فاعليتها قوية جداً ضد طائرات الهيلوكبتر وهذا الصاروخ يبحث عن هدفه بتتبعه الحرارة المنطلقة من محركات الطائرات وهو سهل الاستعمال يستطيع جندي المشاة أن يحمله على كتفه ويستعمله ويمكن إبطال مفعول هذا السلاح فيما إذا ألقت طائرات الهيلوكبتر في الوقت المناسب مشاعل محترقة من المغنزيوم.

والدول تتحمل الآن مؤقتاً تكاليف الأسلحة التي توردها لأصدقائها، في ١٩ تشرين الأول يتقدم نيكسون بطلب عاجل لمجلس الشيوخ لمنح إسرائيل ٢.٢ مليار دولار وذلك لإعادة توازن القوى بسبب تحولها لصالح العرب وأضاف يجب علينا لذلك أن نعوض خسائر إسرائيل ولم تعر الدولتان الكبيرتان الدول

الصغرى أي انتباه في عملهم هذا فقد ضرب الروس عرض الحائط بالحقوق التركية وكذلك أميركا التي أساءت استعمال حقوق التمركز في ألمانيا فمن القواعد الأميركية في ألمانيا زودت إسرائيل بطائرات الفانتوم، وصرح متحدث بلسان وزارة الخارجية الألمانية بأنه لا يمكننا التدخل بهذا الخصوص لأن القواعد الأميركية في ألمانيا عبارة عن مناطق خاضعة للنفوذ الأميركي وليس لها أن تفرض سيطرتها وتقوم بالتفتيش على هذه القواعد الأجنبية.

وفي يوم ٢٣ تشرين الأول تحمل الباخرة الإسرائيلية جاليلا Galila التي قدمت من حيفا بدبابات وفي ٢٤ تشرين كانت تنتظر على أرصفة ميناء بريمن Bremerhven أسلحة ثقيلة أميركية لتحميل الباخرة نار سيس Narciss ولم تكن الحكومة الألمانية الاتحادية على علم بهذا الأمر، وكان السفير الأميركي هيللي براند Hillebrand قد أخفى ذلك عن الأمين العام للخارجية الألمانية بول فرانك Paul Frank ولكن المحررين في صحيفة نوردزي تسمايتونغ Nordsse – Zeitung أبلغوا وزارة الخارجية الألمانية بالأمر بعد أن كشفوا أمره، وبتصرف حالاً الأمين العام للخارجية فرانك ويحتج لدى السفارة الأميركية قائلاً أن شحن الأسلحة باستعمال مؤسسات ألمانية هو خرق لموقف ألمانيا الاتحادي ولكن رغم ذلك بقي احتجاج وزارة الخارجية الألمانية بدون صدى وحملت الباخرة ترسيس بالأسلحة تحت رقابة الشرطة العسكرية الأميركية من هذا الميناء.

فقط الباخرة بالماخ Palmach غادرت الميناء فارغة بعد أن سبق للباخرتين جاليلا ونرسيس تحميلهما بالأسلحة والذخيرة.

هدايا الدول الكبرى لم تقتصر على الإمدادات العسكرية بل على تزويد أصدقائهم بالمعلومات قبل اندلاع الحرب بثلاثة أيام في ٣ تشرين الأول أطلق الروس كوكب مراقبة كوزموس ٥٩٦ Cosmos – 596 وكان محوره فوق الأرض بشكل يمر فوق الشرق الأوسط وفي أيام قليلة يطلق السوفييت ستة أجرام سماوية أخرى وعلى نفس المحور وكل منهم كان ينزل إلى الأرض بعد خمسة أيام من إطلاقه لتحليل الصور والأفلام التي كان يلتقطها واطلع السوفييت بواسطة هذه الأفلام على تدهور وضع الجيش المصري وقد اطلع كوسيغين من خلال زيارته للقاهرة الرئيس السادات على صور الأقمار الصناعية مما أتاح للسادات الحصول على معلومات أصدق من تلك التي يزوده بها القادة العسكريون عن الوضع. ولا توجد منطقة على الأرض تهئ الظروف المناسبة للأقمار الصناعية للتصوير أفضل من منطقة الشرق الأوسط التي تدور بها المعارك حالياً وذلك بسبب استواء الأرض وصحراويتها يضاف إلى ذلك ندرة الغيوم فوق الأراضي وتظهر الدبابات بكل وضوح رغم ألوان التمويه المطلية بها وكذلك قوافل التموين والإمدادات حتى جسور البونتون كان من السهل التصرف عليها .

والولايات المتحدة الأميركية أطلقت أيضاً جرمين سماويين "أقمار التجسس" وكانت تطير أيضاً على محور فوق الشرق الأوسط ويزن أحد هذين الكوكبين ١٤ طناً وسمي بالطير الكبير ويختلف عن الكواكب الصناعية السوفيتية بأنه يبعث إلى الأرض بذبذبات ينقل بواسطتها الصور التي التقطها إلى قاعدة إطلاقه ويستطاع تحليلها دون إنزال الكوكب ويعتقد المصريون أن الإسرائيليين اكتشفوا الثغرة بين الجيشين الثاني والثالث بواسطة المعلومات التي

كان يرسلها الطير الكبير للأرض، هذه المعلومات التي كانت تحصل عليها الدول الكبرى كانت تهيئ فرص النصر أحياناً وتمنع الهزائم أحياناً أخرى، ولكن السادات لم يكن يحصل على معلومات عن تقدمه من الأجرام السماوية الروسية وأما التنسيق الاستعلامي بين شلينرينغر وزير الدفاع الأميركي ودافيد العازار كان أفضل وأوثق من التعاون بيد غريتشكو والشاذلي.

وكانت تروى في القاهرة شائعة مفادها أن فكرة الهجوم في عيد الغفران روسية الأصل حيث أن الجنرال واسيلي واسيلفيتش أوكيميجيف Wassili Wassiljewitsch Okumhew رئيس الخبراء الروس كانت فكرته أن تهاجم إسرائيل في يوم عيد الغفران ويميل الجنرال إلى دراسة التقاليد والعادات الدينية في الشرق الأوسط واطلع صدفة على هذا العيد "عيد الهدوء التام في إسرائيل" وبذلك جاءته الفكرة بأنه أنسب موعد للهجوم حيث يسود فيها الهدوء وتنعدم الحركة، وأنور السادات يجد هذه الفكرة ممتازة. وتنقص البراهين على صحة هذه الرواية ولكنها شائعة في مصر رغم ذلك.

حرب البترول تبدأ

وقف إطلاق النار لا ينهي الحرب والعرب لا يرون في وقف إطلاق النار توقف الحرب بل يستمر القتال والسلاح الجديد هو البترول، العربية السعودية والكويت تعلنان في ليلة ٥ تشرين الثاني أنه إذا اندلعت الحرب من جديد فسوف نوقف إنتاج البترول كلياً ولا يمكن لأحد أن يحصل ولا على نقطة واحدة من البترول.

وفي اليوم التالي كان يكمن خطر كبير لاندلاع الحرب من جديد بعدما أحكم الحصار على الجيش المصري الثالث منذ ٢٣ تشرين الأول الذي يتمركز جنوباً من البحيرات المرة حتى بور توفيق ومدينة السويس لا تزال في يد المصريين ويحتل الإسرائيليون بقعة من الضفة الغربية للقناة تمتد من الإسماعيلية حتى الأدبية.

ومجلس الأمن يطلب مراراً من إسرائيل أن تعود إلى خط الهدنة في ٢٢ تشرين الأول في الساعة ١٦,٥٠ حسب التوقيت المحلي ولكن إسرائيل لا ترد على هذه الطلبات وتتجاهلها.

سعد الدين الشاذلي يلح على أنور السادات بفك الحصار على الجيش الثالث مهما كان الثمن لأن وضعه لا يطاق والسادات نفسه يرى المصاعب التي تلم بالجيش ويدري تماماً أنه إذا لم يتصرف فسيفقد ثقة ضباطه، في الواقع

أنه يريد أن يتمسك بوقف إطلاق النار حتى قدوم وزير الخارجية الأميركية كيسينغر على الأقل وفي هذا الوقت يبدأ وزير الخارجية الأميركية رحلته إلى المنطقة ولكنه يبدأها بالمغرب العربي في مراكش.

والخطر يبدو واضحاً لوزير الدفاع الإسرائيلي بعد أن أتم المصريون إقامة نطاق جديد حول المنطقة المحتلة من صواريخ سام ـ ٦ وأكملت جميع احتياطات الدفاع الجوي المصري حتى القاهرة، ونشوب قتال جديد لن يكون من شأنه إلا نتيجة دامية للطرفين ولن يحظى أحد بالنصر الحاسم في نهاية هذه الحرب. ورغم ذلك يقول دايان في إحدى زياراته للجبهة على الضفة الغربية: ليس أمام المصريين سوى التقيد بوقف إطلاق النار ويعرفون تماماً أن النتيجة فيما إذا بدأوا معارك جديدة ستكون أسوأ لهم. والسادات لا يخرق وقف إطلاق النار بل يستمر بالحرب بسلاح آخر إذ يهدد بتقليل إنتاج البترول متوقعاً أن يقوم العرب جميعاً بتلبية هذا النداء.

الملك فيصل وأمير الكويت يعدون بالتضامن ويهدف العرب من استعمال هذا السلاح التأثير على الرأي العام العالمي ويعلمون تماماً أن أوربا وأميركا واليابان ليس في إمكانهم في حال حرب بترولية أن يتحملوا ذلك طويلاً ولن يبقى أمامهم إلا الخيار بين تأييد وجهة النظر الإسرائيلية أو تأييد وجهة النظر العربية ويطلب العرب إلى من يريد بترولهم أن يعلن صراحة صداقته للعرب ويؤيد وجهة نظرهم، ويعرف العرب جيداً أن العالم بأجمعه يحتاج إلى بترولهم وتتوقف عليه حياتهم حيث يكمن تحت أراضيهم ٦٠٪ من احتياطي العالم من البترول و٧٪ في أميركا الشمالية و٥٪ في أراضي أميركا الجنوبية و١٥٪ في

أفريقيا و١٣٪ في أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي. وأغلب الدول الصناعية الكبرى لن تعود بعد وقت قصير لتكتفي على ما تحصل عليه من البترول من إنتاجها الخاص وألمانيا الغربية تستورد ٦٠٪ من حاجتها للبترول من الأراضي العربية وتستورد من ليبيا وحدها ٢٥٪ من احتياجها.

ويتصاعد الاحتياج للبترول في الولايات المتحدة وفي أوربا سنة عن سنة ولا يعود الذنب في ذلك إلى إنتاج المزيد من السيارات بل إلى التقدم الصناعي وقيام المؤسسات الصناعية بتغيير محروقاتها من الفحم إلى البترول ويبلغ استهلاك أوربا واليابان والولايات المتحدة الأميركية يومياً ٣٨ مليون جالون من البترول والاحتياج المتوقع لعام ١٩٨٠ اليومي يبلغ تقديره ٧٠ مليون جالون ولعام ١٩٨٥ /١٤٥/ مليون جالون في اليوم الواحد. والأرض العربية وحدها هي في وضع يؤهلها أن تؤمن احتياجات العالم كله حتى عام ٢٠٠٠ ولم تعد الاحتكارات العالمية هي التي تضمن هذا التموين بل الدول المنتجة نفسها.

وكانت الدول العربية المنتجة للبترول قد انتزعت السلطة تدريجياً من الاحتكارات العالمية السبعة الكبرى بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٧٣ وهي: (اكس كونExxon موبيل اويل Mobil Oil تكساكو Texaco جولف أويل Gulf Oil ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا Standard oil of California برتيش بترويوم Britich petroleum رويال دوتش شن" Royal Dutch sell). ولو لم يكن العرب قد انتزعوا السلطة من الاحتكارات وحدوا من سلطتها وعجرفتها... الخ لم يكن اليوم بوسعهم أن يقوموا بحرب البترول هذه الحرب التي كانت قد درست وخططت بكل عناية من الرؤساء والأمراء العرب

ودوافعهم كانت متعددة لكن الهدف الرئيس كان القضاء على عجرفة وسلطة الاحتكارات إذ كانت هذه الاحتكارات العالمية قبل سنتين تقريباً هي التي تمثل السلطة وخاصة في الإمارات العربية، وكانوا يتمتعون بامتيازات وسلطات كبيرة وكأنهم في بلدهم فكانوا هم الذين يحددون السعر والكمية التي تنتج وفي اعتقادهم أن الأمراء يجب أن يكونوا راضين بما يدر عليهم من مال هذا "القدر الأسود" والذي لم يكونوا يبذلون أي جهد في استخراجه.

وكان أمير الكويت يومذاك سعيداً جداً وشاكراً حينما قبلت الشركة الأميركية جولف أويل كوربواريشن Golf oil Corporation والشركة الإنجليزية أنجلو - برزيان أويل .Angl – persian okl co في عام ١٩٣٤ عندما قبلوا بحياز امتياز للتنقيب عن البترول ويومذاك كان أمير الكويت رجلاً فقيراً وكانت الاحتكارات تدفع ثمن الجالون ٢٠ فينيك ألماني (ما يعادل ٢٥ قرشاً سورياً) والأميركان يحصلون على هذا المال دون أي عناء وما لبثت هاتان الشركتان أن تنتجا يومياً حوالي مليون جالون وكان نصيب الأمير يومياً ٢٠٠ ألف مارك، ورأي الاحتكارات أنه على الأمير أن يكون سعيداً وراضياً بهذا المبلغ الذي يصل إلى جيبه وهو يمكنه من بناء القصور وإقامة الحدائق ونوافير الماء وشراء السيارات الكبيرة والحصول على حرس خاص له إضافة إلى قليل من الحريم والمتسريات الأوربيات وآنذاك كان يقدم الأمراء في زياراتهم لأوربا هدايا من ساعات الذهب مما أعطى انطباعاً لدى الأوربيين عنهم بأنهم أنصاف مجانين، وعائلة الأمير في هذه السنوات الجميلة ما كانت لتبخل في ترفيه نفسها ولكن الشعب استفاد في نفس الوقت من هذه الخيرات وبلغت نفقات الإمارة مبالغ هائلة وكانت هذه النفقات وما تحصل عليه

العائلة المالكة نفسها يتعلق برأي الاحتكارات وما تنتجه من البترول التي كانت تحدد مقدار الكمية المنتجة حسب رغباتها وأما رغبات الأمير فلم يكن أحد من أعضاء مجلس الإدارة لهذه الشركات سواء في لندن أو نيويورك ليعيرها أي اهتمام طالما أنه كان بإمكانها أن تحدث انقلابها داخل عائلة الأمير وتطيح بالأمير المتمرد أو المغضوب عليه منها .

وأما ثمن الجالون فقد ارتفع مع مر السنين ليصبح بعد ٣٥ عاماً ما يعادل ٢ مارك ألماني وكان ممثلو الاحتكارات ينحنون ويركعون أمام الأمراء في أبو ظبي وقطر والكويت ولكنهم كانوا يتدخلون في أمور السلطة كما يوجهون إنتاج البترول كما يشاؤون ويلائم مصالحهم.

في شهر أيلول جاء إلى السلطة في ليبيا ضابط يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً وهو العقيد معمر القذافي الذي علّم الاحتكارات معنى الخوف إذ أنه أرسل الملك السنوسي إلى المهجر ومنع الرشوات وقضى على تسليم الأقرباء والأصحاب المناصب في البلاد وأمن العمل النظامي في المؤسسات الحكومية وطرد الموظفين المتنفعين، والأهم من هذا كله هو أنه نفسه لا يمكن رشوته وليس مغرماً بالثورة ومظاهر الرفاه، فلم يكن ليقبل الهدايا من شركة موبيل أويل.

بل رفضها دائماً، ولم يخفِ منذ البداية أهدافه في تأميم شركات البترول، وكانت الاحتكارات تخشى أن تضيع امتيازاتها لذا لم تكن قاسية متحجرة في المفاوضات الرامية إلى تحديد سعر البترول وفي شهر نيسان ١٩٧١ كانت تدفع شركة موبيل أويل في ليبيا ١٢ ماركاً لكل ١٦٠ ليتر بترول، والقذافي رفع السعر بعد غضبه على الاحتكارات لأن الشركة كانت تدفع ١,٨٠٠ مارك بدلاً

من ٢ مارك ثمن الجالون وكانت تلك هي المحاولة الأخيرة للاحتكارات لتثبت أنها هي صاحبة السلطة وليس الحكم الوطني.

وما لبثت الدول العربية المنتجة للبترول أن تحدد هي نفسها الأسعار التي سبق أن حددها القذافي، إمارات أبو ظبي، قطر، الكويت، السعودية العربية، حددوا الأسعار أيضاً بـ ١٢ مارك للبرميل وفي كل مكان كان رد الفعل هو نفسه للاحتكارات إذ لم يكونوا يودون مواجهة الصعوبات والمشاكل مع الحكومات المحلية ولن يؤثر عليهم رفع الأسعار لأنهم سيرفعون بدورهم سعر البيع ويحملون المستهلك أخيراً هذا الارتفاع في الأسعار وكانوا يخافون دائماً من ضياع امتيازاتهم.

وكان القذافي يعلم أنهم سيحاولون قلب نظام حكمه والاستعاضة عنه برجل آخر يتمشى مع رغباتهم وقال: إن الاحتكارات في نيويورك سوف تجد ضابطاً يمكن رشوته بمليون دولار ليقتلني ولكن في الواقع أنها لم تجد حتى الآن هذا الضابط.

وفي عام ١٩٧١ رفع القذافي سعر البرميل حتى ١٤ ماركاً ووعد بأن يبقى هذا السعر ثابتاً على الأقل لمدة خمس سنوات ولكنه رفض في صيف عام ١٩٧٣ قبول الدفع بالدولار وأصر على أن يكون الدفع بقطع نادر آخر وكان يفضل الدفع بالمارك الألماني وذلك لأن سعر الدولار قد تدنى إضافة إلى أنه عماد إسرائيل وركيزتها الأولى ومنذ ذلك اليوم لم يعد يقبل التعامل بالدولار.

وكان من حسن حظ الاحتكارات العالمية عامل واحد وهو أن الدول العربية المنتجة للبترول مختلفة ومتفرقة وكانت تتوقع أن اختلاف الحكم في البلاد واختلاف الأنظمة الاجتماعية سيجعل من المستحيل أن تتفق هذه الدول

على خطة عمل واحدة. فالجمهوريات الليبية والجزائرية على خلاف مع الملك فيصل في السعودية، الكويت تقع في مشاكل مع العراق، الرئيس الليبي يشتم الرئيس العراقي متهماً إياه بأنه شيوعي وغير مسلم. واستغلت الاحتكارات هذه الخلافات وعندما كانت تخفض الأسعار لم يكن الرؤساء والملوك والأمراء العرب ليتفقوا ويقفوا صفاً واحداً ضدها بل تخضع كل دولة على حدة لضغوط الاحتكارات، وذلك حتى قيام منظمة الدول المنتجة للبترول (OPEC) إذ لم يعد لكل دولة على حدة من الدول المنتجة أن تقارع وتدخل في نزاع مع الاحتكارات وضمنت المنظمة وحدة الصف تجاهها، ومجلس الإدارة لمنظمة الدول المنتجة للبترول يتكون من وزراء البترول في الدول المنتجة واختاروا متحدثاً باسمهم ذا سمعة عالمية وهو وزير البترول الليبي عز الدين مبروك.

عز الدين مبروك من مواليد عام ١٩٣٢ درس الحقوق في القاهرة ولندن، كان قاضياً في المحكمة العليا في طرابلس، متحدث لبق ويتمتع بثقافة عالية وأصبح منذ الآن الطرف المفاوض مع الاحتكارات. وقد شرح لي عز الدين مبروك مخططه بعد الثورة الليبية بقوله: علينا أن ننتزع من الاحتكارات السلطة من الإنتاج وحتى البيع في محطات البنزين الصغيرة، إنهم ليسوا سوى طفيليات تحيا على حساب الآخرين وربحها ليس إلا على حساب المستهلك في آخر الأمر ويتابع بقوله علينا أن نصلح نظام التوزيع من أساسه وأول خطوة في هذا السبيل هو تأميم الإنتاج.

وتقوم الجزائر كأول دولة بهذه الخطوة الجريئة في ٢٤ شباط ١٩٧٢، وقد بقي حتى ذلك الحين وبالرغم من استقلال الجزائر في يد الشركتين الفرنسيتين

DEP و Erap وقد أثار الجدال على سعر الجالون غضب أبو مدين وطرد الاحتكارات وإلى الأبد من الجزائر، وكان ثمن ذلك هو انخفاض الإنتاج في حقول البترول بادئ الأمر، وبهذا أصبحت الجزائر البلد العربي الوحيد الذي يقرر بنفسه الكمية المنتجة والذي يقوم بالتسويق ومنذ ذلك اليوم تبدلت لهجة المفاوضات عما كانت عليه في السابق وقالت الجزائر في المستقبل لن يحدد السعر المنتج والشاري بل نحن الذين سنحدد السعر ومثلنا في ذلك كمثل الأوربيين تماماً إذ أنهم يقولون لنا ما علينا أن ندفعه ثمناً للجرار الذي نود شراءه دون أن يكون لنا فرصة المساومة ووكلاء الشركات الصناعية يقدمون أسعاراً نهائية محددة وما علينا في المستقبل إلا أن نفعل مثلهم بالنسبة لما تنتجه نحن ومع مرور الزمن عدلت الجزائر في النقص الذي طرأ على إنتاجها عقب التأميم وأصبحت الجزائر قدوة للدول العربية الأخرى المنتجة للبترول، وليبيا تتبع خطوات الجزائر حيث بدأت بالحجز على حقول البترول العائدة للمؤسسات الاحتكارية الصغيرة واستعملت مؤسساتها لتدريب المواطنين الليبيين ليتسلموا في المستقبل مهام الإنتاج، وفي عام ١٩٧٣ انتزعت ليبيا من جميع الشركات امتيازاتها ولكنها دفعت تعويضات التأميم للاحتكارات العاملة في ليبيا ودفع لشركة أوكسيدانتال أويل Occidantal oil مبلغ ١٢٥ مليون دولار وهذا يعني أنها قد حققت الخطوة الأولى حسب مخطط وزير البترول الليبي عز الدين مبروك والخطة الثانية هي القيام بالتسويق والنقل وحتى الآن تقوم ناقلات البترول التابعة للاحتكارات الكبرى بنقل البترول للولايات المتحدة واليابان وأوروبا كما أن هناك شركات ملاحة بحرية تقدم شاحنات بأسعار أرخص للقيام

بنقل البترول ما يعني أنه لا توجد أمام الجزائر وليبيا لنقل البترول عقبات ما، لكن ما يهمهم الآن أكثر من ذلك هو إقامة المصافي والمرحلة الأخيرة في خطة المبروك وهي تسويق البترول وقيام البلاد العربية به وأصله هو أن لا تعود في المستقبل محطات البنزين في أوربا والعالم أجمع تحمل اسم شل Shell أواسو Esso أو آرال Aral، بل أن تكون عبارة عن شركة تابعة للدول المنتجة والدولة المستهلكة على السواء. وبرأي عز الدين مبروك أن ألمانيا الغربية لديها رغبة كبرى بحل من هذا النوع وانتزاع السلطة من يد الاحتكارات هو قسم من خلاف طويل الأمد يرمي في النهاية إلى تحرير العرب أنفسهم من السلطة الأجنبية والذين يرون أن هناك تكاتفاً قوياً بين الاحتكارات العالمية والولايات المتحدة وإسرائيل وفي رأي العرب أن هؤلاء الأعداء الثلاثة كانوا دائماً متعاضدين ضد العرب ومصالحهم ويرون أن في حال شل أحد هذه الأطراف الثلاثة العدوة ويشبهون ذلك كجدار في بناء واحد وأن انهيار أحد الجدران الثلاثة والتي تستند إلى بعضها البعض سوف يؤدي حتماً في النهاية إلى انهيار الجدارين الآخرين وفي رأي معمر القذافي أن انتزاع السلطة من يد الاحتكارات العالمية هو بداية الطريق لانتصارات عربية متتابعة على إسرائيل.

الرئيس نيكسون يهزأ من التدابير العربية ويحاول التقليل من شأنها فيقول: إذا استمر العرب في تأميمهم هذا فسوف يفقدون أسواقهم وتهيئ الولايات المتحدة الأميركية برنامجاً من شأنه أن يعوض ما ينتج من نقص التموين من البترول العربي وتفكر الحكومة الأميركية في تطوير استخدام الذرة في النطاق السلمي لكن استخراج الطاقة عن طريق الذرة باهظ جداً كما يفكر المسؤولون

بالاستفادة من الطاقة الحرارية للشمس. وعز الدين مبروك لا يرى في ذلك خطراً على البترول العربي والذي سيبقى لفترة طويلة المصدر الأساسي للطاقة.

الاحتكارات الأميركية لا تتنازل بسهولة عن امتيازاتها وأكبر قاعدة لها هي في السعودية العربية، ويستخرج البترول في المملكة العربية السعودية من قبل شركة آرامكو ARAMCO والتي تتوزع أسهمها كما يلي: ٣٠٪ لشركة Standard Oil Of Jersy و٣٠٪ لشركة Standard Oil of California و٣٠٪ لشركة TEXACO و١٠٪ لشركة Mobil OIL وتتمتع شركة آرامكو بامتيازاتها منذ عام ١٩٣٣ وتنتهي في عام ١٩٩٩ والولايات المتحدة تعلق آمالاً كبرى على السعودية العربية إذ أنها البلد الوحيد القادر على تغطية حاجات الولايات المتحدة في الربع الأخير للقرن العشرين إذ يكمن تحت أراضيها ٢٠٪ من احتياط العالم فتحت رمال صحراء العربية السعودية يتجمع ١٣٠٠٠٠ مليون برميل من البترول.

وقبل الحرب العربية - الإسرائيلية الرابعة كانت تنتج شركة آرامكو يومياً ثمانية ملايين برميل من البترول وتصدر هذه الكمية إلى أوربا والشرق الأقصى ولم تكن الولايات المتحدة في عداد البلدان المستوردة ولكنها تدخل في حسابها أن تكون في عداد هذه البلدان في المستقبل القريب بل وتصبح من المستوردين الرئيسيين، وحتى لا تتأثر بذلك البلاد الأخرى المستوردة من شركة آرامكو وحسب الخطة التي كانت معدة للمستقبل يتوجب على شركة آرامكو بمضاعفة الإنتاج من ثمانية ملايين إلى اثني عشر مليون برميل يومياً وكان متوقعاً أن تضطر الشركة في عام ١٩٨٥ لاستخراج ٣٠ مليون برميل

يومياً لتغطية الحاجات آنذاك. وحسب تقديرات شركة آرامكو أن البترول السعودي لا يمكن أن ينضب قبل نهاية القرن الحالي، وبقي الملك فيصل حتى ربيع عام ١٩٧٣ بالنسبة للاحتكارات الأميركية شريكاً مرضياً عنه يستلم الأموال من بيع البترول ولا يتدخل في سياسة صاحبة الامتياز.

وقد تغير هذا الوضع قبل ثلاثة أشهر من قيام الحرب الأخيرة إذ قال الملك: أوافق على مضاعفة الإنتاج إذا قبلت أميركا أن تغير سياستها في الشرق الأوسط. وطالب من الولايات المتحدة أن تتخلى عن تأييدها المطلق بالمال والسلاح لإسرائيل ويتابع بقوله أن الولايات المتحدة تريد منا مزيداً من البترول وبالمقابل نريد منها نحن تفهماً لقضايانا.

الملك فيصل بن عبد العزيز طويل القامة ضعيف البنية، يرتدي الملابس العربية، تظهر على وجهه علائم التعب، عيناه وشفتاه المتدليتان تعطيان عنه انطباع الرجل الحزين وأصابع الملك طويلة ذكية يستعين بها في أحاديثه لتعطيها طابعاً خاصاً، والملك فيصل من مواليد عام ١٩٠٦ ولد في وسط زوجات والده ولهذا فله أربعون أخاً، وقبل فيصل تولى شؤون الحكم أخوه سعود ابن عبد العزيز وأجبر على التخلي عن الحكم لأخيه لبعثرته مليارات الدولارات بدون أية فائدة تعود على البلاد.

جاء الملك فيصل إلى الحكم ليهدم القصور الشامخة التي بناها أخوه ويقضي على مظاهر البذخ، وليعيش عيشة متواضعة بعيدة عن مظاهر الأبهة والعظمة والزخارف الذهبية وأحجار المرمر الكبيرة. فعلى جدران قصر المعزة تعلق صور زيتية منها ما هو لأماكن طبيعية بالقرب من مدينة شتوتغارت يعود تاريخها

إلى عام ١٩٢٨ وأكثر زينات القصر حالياً هي عبارة عن المسجد الأقصى كتذكير دائم للملك بواجبه المقدس لتحرير القدس.

في بدء المقابلة مع الملك يجلس على مقعد طويل في مقدمة الصالة وحوالي عشرين متراً بعيداً عنه يقف موظفو القصر الملكي والوزراء ينتظرون إشارة من الملك لبدء المقابلات، ولا تبدو منه حركات سريعة بل ينظر بعينيه متفحصاً الناس أمامه وخدم ينقلون منقلاً تصدر عنه رائحة البخور ورائحة الهواء تصبح ممزوجة بهذه الروائح التي تحرق المقل، ويستطيع المرء بتفحص شكل وقوف الناس المنتظرين أن يعرف من منهم من العائلة المالكة ومن منهم من الناس العاديين، وأخوته الصغار يبدو عليهم الفخار ويحضرون أنفسهم منذ اليوم للتطاحن السياسي وفيصل مريض في المعدة وقد أجريت له عدة عمليات ويتألم دائماً ولكنه رجل صلب ولا يرى حتى الآن خلفاً له يستطيع أن يؤمن استمرار السياسة التي بدأها، ولم يمر حكم فيصل دون محاولات انقلابية وقد سبق وحاول ضباط سلاح الجو القيام بحركة انقلابية تم فشلها قبل حدوثها. وتوجد في المملكة العربية السعودية قاعدة جوية أميركية قوية هي قاعدة الظهران وتعتبرها أميركا إحدى دعامات نظام الحكم لهذا فهي تريد دائماً العرفان بالجميل ويطلبون ضمانات لاستمرار إمدادهم بالبترول وفيصل على استعداد لتقديم هذه الضمانات ويعلن بصراحة أنه صديق الأميركان ويقول أن مستقبل العلاقات الأميركية ـ السعودية مستقبل جميل جداً فيما إذا كانت أميركا على استعداد لتضغط على إسرائيل لتبديل سياستها، والملك باعتباره يمثل السلطة الدينية الأعلى في الإسلام يتألم جداً أن تكون القدس في يد

اليهود ويجب أن يبذل كل ما يستطيع لاستعادة القدس والسلاح الوحيد الذي يملكه هو سلاح البترول وتشعر آرامكو في الوقت المناسب أن الخطر بدأ يحل بالصداقة السعودية ـ الأميركية. في صيف عام ١٩٧٣ يكتب رئيس مجلس الإدارة لشركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا Standard oil of California إلى المساهمين يقول: من مصلحة الاقتصاد الأمريكي أن تقوم علاقات طيبة مع العرب، علينا أن نتفهم آمال وأهداف السياسة العربية وأن تتحلى سياستنا بالإيجابية تجاه قضاياهم والعرب جادون في إيجاد حل سلمي لمشكلة الشرق الأوسط ويبذلون كل ما يستطيعون في هذا السبيل وما علينا إلا أن نؤيدهم في مساعيهم. وبعد وقت قصير من ذلك يكتب المدير العام لشركة تكساكو موريس كرانفيل Texaco Maurice Granvile رسالة إلى المساهمين يطلب فيها إعادة النظر في السياسة الأميركية جاء فيها: مصالحنا في التموين بالطاقة تجبرنا أن نفكر أكثر مما فعلنا حتى الآن في القضايا العربية. وأيضاً شركة موبيل أويل Mobil Oil تطلب نفس الشيء من حكومة الولايات المتحدة الأميركية قبل قيام الحرب وتقول: على حكومتنا أن تساعد العرب على تحقيق مقررات الأمم المتحدة. وكان رد فعل إسرائيل على هذه المحاولات قولها أن الاحتكارات وقعت ضحية الإكراه العربي. وكانت بذلك قد مهدت الدول العربية المنتجة للبترول على أسس سليمة لحرب البترول ورأت الاحتكارات البترولية أنه لا حول لها ولا قوة أمام تطور الموقف البترولي.

في مساء ١٨ تشرين الأول تعلن إذاعة الرياض: أن المملكة قررت تخفيض إنتاج البترول بنسبة ١٠٪ وتطالب الولايات المتحدة الأميركية بأن

تعيد النظر حالاً بسياستها تجاه الشرق الأوسط وأن تثبت من حسن نياتها بإيقاف توريد الأسلحة فوراً إلى إسرائيل وإذا لم يتم حتى نهاية تشرين الثاني رد فعل إيجابي من واشنطن فسوف تقرر السعودية تقليل إنتاج البترول أكثر. وأصاب هذا القرار الملكي الاحتكارات في الصميم فبعد أن كان في الماضي يتدخل بالشؤون السياسية للملكة أصبح عليه الآن أن يتقبل التعليمات والأوامر من المسؤولين في المملكة وتحول الأمر على عكس سابقه.

وتقليل إنتاج البترول من ١٨ إلى ٧,٢ مليون جالون في اليوم يقلل من دخل الاحتكارات ومن الأرباح وبدأت آرامكو تشعر بالخطر خشية إصابتها بالإفلاس وتفكر في رفع الأسعار للتعويض عن الخسارات التي سوف تلم بها. وتقوم الولايات المتحدة وعلى ضوء العلاقات الماضية بينها وبين السعودية فترسل الولايات المتحدة سفيراً جديداً إلى العربية السعودية هو جيمس آكينز James Akius وهو اختصاص في شؤون البترول وكان من أولى مهماته أن يبذل كل جهد مستطاع لتأمين مضاعفة الإنتاج في حقول غوار Ghwar يضاف إلى ذلك ترغيب الملك باستثمار أمواله في الولايات المتحدة الأمريكية.

لكن في الأيام الأولى للحرب تبرق وزارة الخارجية السعودية إلى واشنطن أن اعتماد السفير الجديد أصبح ليس له من معنى لأن العربية السعودية في نفس الوقت الذي تبدأ فيه حرب البترول تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأميركية.

أحداث حرب البترول بدأت مظاهرها في ميناء رأس التنورة حيث تصل أنابيب البترول من عيار ١٠٢ سم من حقول قاطف وبري وحقل البترول تحت

الماء "صفانيه" وغوار. وعند رأس التنورة يخزن البترول في خزانات هائلة والذي يأتي من حقول البترول في مبقايق وغوار وهنا كانت تحمل ناقلات البترول في طريقها إلى أوربا والشرق الأقصى وكانت تسجل الساعات في تلك المنطقة يومياً ٨ ملايين جالون (سعة الجالون ١٥٩،٨ ليتر من البترول)، كانت هذه هي الكمية التي تمر من هناك يومياً قبل اندلاع الحرب العربية - الإسرائيلية الرابعة وقد أعطت التعليمات للمهندسين أن يتقيدوا بهذه التعليمات التي أصدرتها حكومة المملكة العربية السعودية وكانت الكمية المنتجة سوف تخفض إلى ٢٠٪ في مطلع شهر تشرين الثاني بدلاً من ٨ ملايين جالون إلى ٦،٤ ملايين جالون فقط وكانت ناقلات النفط المتوجهة إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو هولندا لا تحمل بالنفط في هذا الميناء لمقاطعة السعودية بترولياً لهذين البلدين.

والعرب يبحثون عن أهدافهم بكل عناية فما منع تزويد هولندا بالبترول بحجة صداقتها الزائدة لإسرائيل إلا تذرعاً للوصول إلى أكثر من مقاطعة هولندا إذ يعلمون جيداً أن ميناء روتردام هو ميناء رئيسي لتوزيع البترول لأوروبا الغربية ويقول قنصل الكويت في لاهاي أن المقاطعة ليست عن منع توريد ٢٣ مليون طن إلى هولندا فقط بل هو مقاطعة لتوزيع البترول لعدد من دول أوربا الغربية، ويعرف العرب تماماً أن ميناء روتردام هو عصب التموين في أوربا وقد شل العرب في مقاطعتهم التموين بالطاقة كل من إنكلترا والسويد والدانمارك وبلجيكا وقبلهم جميعاً ألمانيا الغربية حيث ترتبط مصفاتان كبيرتان في ألمانيا الأولى في جودورف Godorf والثانية في فيسلينخ Wessling بميناء روتردام وتحصل هاتان المصفاتان بواسطة ميناء روتردام على ١٩ مليون طن وبدأت شركات شل وكالتكس وشركة اتحاد الراين لإنتاج الفحم تشعر بالمصاعب التموينية.

لماذا احتلت العراق؟!

في مؤتمر وزراء البترول العرب في الكويت يبدأ بإعداد قوائم يقسم بموجبها الدول المستوردة للبترول لفئتين دول صديقة وأخرى عدوة فمن يقف لجانب إسرائيل فهو عدو ومن يعطي الطرفين حقاً في نزاعهم هو أيضاً عدو، ومن يؤيد وجهة النظر العربية فهو صديق وكان يطلب إلى الحكومات الأوربية جواباً صريحاً على السؤال التالي: أتعطون لإسرائيل الحق رغم جميع قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي بإخلاء الأراضي المحتلة في حرب حزيران ١٩٦٧ أن تستمر في احتلال هذه الأراضي. ومن يعلن صراحة ودون مراوغة أن العرب من حقهم استعادة شبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية للأردن ليس له أن يخشى نتائج المقاطعة، وهذا ما توصل إليه المؤتمر في فندق شيراتون ليلاً في الكويت، ولم يكن المؤتمر ليرضى بتصريحات بادرة كالذي صدر من حكومة ألمانيا الغربية مثلاً وقال أعضاء المؤتمر نريد إدلاءات صريحة واضحة. وسرعان ما بادر الناطق باسم الحكومة الألمانية لتحذير المواطنين من الشراء المضاعف للمنتجات البترولية الذي لا مبرر له.

وكان الهدف الأول للمقاطعة هو صناعات الولايات المتحدة الأميركية وتبدأ الولايات المتحدة بالتصرف حيال المقاطعة بنظام التوفير فتلغي حوالي ٧٥٠ ألف مصباح كهربائي وتحدد السرعة للسيارات بـ ٨٠كم في الساعة وقال الأخصائيون أنه يمكن توفير ١٢٪ من وقود التدفئة إذا خفضت الحرارة في المباني العامة والبيوت ثلاث درجات. ويتنبأ رئيس شركة (عرب ـ أميركان أويل Arab American Oil co.) بأن الولادات سوف تزيد في المستقبل لأن الناس سوف يقضون وقتاً أطول في السرير بسبب البرد.

وما كان العرب ليخشون نقص الدخل بسبب نقص الإنتاج حيث أن لهم في بنوك سويسرا احتياطاً يبلغ ١٥ مليار دولار من أرباح السنين الماضية وأعد هذا الاحتياطي لمواجهة النفقات العسكرية للحرب ولكن المبلغ لا يمكن التصرف به لذا يسارع العرب في منتصف الحرب لرفع سعر البترول بمعدل ١٧٪ مما يدر عليهم زيادة في الربح تبلغ عشرة مليارات دولار سنوياً. وهذا يعني أن مستهلكي البترول في أوربا واليابان يشتركون بصورة غير مباشرة في تمويل الحرب العربية.

ويشعر الرؤساء والملوك والأمراء العرب أنهم دخلوا في مغامرة كبرى فهم يستنزفون اقتصاد الدول الكبرى والعالم كله ويعرقلون تطور الإمبراطوريات الصناعية وليسوا واثقين من أن لا يؤدي ذلك إلى ضربات قاسية توجه لهم في حربهم هذه.

وفي بداية حرب البترول كان أحد المساهمين في تنفيذ هذه الحرب وهو أمير أبو ظبي الشيخ زايد بن سلطان آل النهيان في إنكلترا، للقيام بمعالجة أسنانه، والشيخ زايد هو من مواليد ١٩١٨ نشأ في الصحراء في خيمة في إمارة كانت فقيرة أيام شباب الأمير إذ بدأ في مطلع سنوات الستين استخراج البترول من الإمارة، ولازال الأمير حتى اليوم يحافظ على التقاليد الصحراوية حيث يفضل الجلوس على وسائد أرضية ويفضل شرب الشاي وحراسه يحملون صقور الصيد معهم، والأمير يلاقي صعوبات حتى اليوم في القراءة ولكنه ذو ذكاء حاد، وليكسب تقدير شعبه أمر بهدم بيوت الطين وأقام مكانها العمارات الهائلة من البيتون المسلح كما يأمر ببناء أول حمامات في الخليج العربي، ولو افترضنا أنه من الممكن توزيع الدخل القومي على سكان الإمارة

لبلغ دخل الفرد الواحد فيها أكبر دخل في العالم وهذا الدخل يتم توزيعه حسب رأي وتقدير الأمير.

وجه الأمير يعطي انطباعاً على أنه يميل إلى العنف والقوة لكن سياسته لا تدل على ذلك وعلاج فكه لم يكن يقصد منه إلا تبديل هذا الانطباع الذي يعطيه، وعيونه ليست هادئة فهي تتفحص شريك الحديث معه، ولكنه يتميز باللطافة أكثر من باقي أفراد الخليج ويندر أن مات أحد الأمراء في الخليج موتاً طبيعياً فالخنجر والسم كان نهاية أغلب الأمراء وينظمان أمر الخلافة في الحكم يضاف إليهما الحذر من الجيران وحتى الآن لا تخفي العربية السعودية رغبتها في احتواء الإمارات وبالشدة والكفاح نشأت المملكة الوهابية في السعودية ومع نشوئها تم إسكات المعارضين والخصوم ومن حظ إمارة أبو ظبي أن المحاربين السعوديين كانوا مشغولين بالأمن الداخلي، وقد تمكنت العربية السعودية من احتلال واحة البريمي لبضعة أشهر حينما توقعت شركة آرامكو وجود احتياطي بترولي كبير فيها وبعد مفاوضات تمت حول هذه الواحة كانت من نصيب أبو ظبي بسبب تأييدها من بريطانيا وقيام أبو ظبي مستقلة يعود في الحقيقة إلى أن العربية السعودية أعطت امتيازات لشركة آرامكو بينما حصلت الشركة الإنكليزية BP بريتش بتروليوم على امتيازات في أبو ظبي وعراك الدول الكبرى أميركا وبريطانيا هو الذي جعل أبو ظبي تبقى مستقلة.

وفي الواقع لا تشكل إسرائيل للشيخ زايد بن سلطان آل نهيان المشكلة الأولى له بل يرى الخطر المباشر هو في نظام الحكم في العراق والذي يلقى تأييد الاتحاد السوفيتي ومن العراق تتسلل الشعارات التالية إلى أبو ظبي (يسقط

الطغاة، البترول للشعب). والشيخ زايد حاول أن ينشئ علاقات طيبة مع الاتحاد السوفيتي وأعلن عن استعداده للسماح لروسيا بإقامة سفارة وقنصلية كعلاقة صداقة بين أمارته وبينها ولكن الملك حال دون ذلك لكي لا يسمح للروس بالتغلغل إلى منطقة الخليج وكان ذلك يعني بالنسبة للشيخ زايد تقسيم النفوذ بين الدولتين الكبيرتين في المنطقة إذ تتمتع روسيا بنفوذ في العراق وأميركا في شبه الجزيرة العربية ويبقى هو على صداقة مع كل من الدولتين مما يضمن معه حماية منطقة الخليج من قبل كل من هاتين الدولتين الكبيرتين.

في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٢ صادفت فجأة، في مطار أبو ظبي، وليم فولبرايت عضو مجلس الشيوخ الأميركي وكان يجلس مع اثنين من الموظفين الأميركيين بانتظار بعثة الاستقبال الرسمية إذ أن الطائرة التابعة لسلاح الجو الأميركي التي كان يستقلها وصلت قبل موعد وصولها بنصف ساعة. تقدمت منه وبدأت الحديث معه فقال لي أنه في مهمة غير رسمية في أبو ظبي وهو هنا كصديق، وقد قدم رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأميركي فولبرايت إلى أبو ظبي ليقدم عروضاً باستثمار الأموال العربية في الولايات المتحدة وقال فوليبرايت بأن الرئيس نيكسون سيقوم في الصيف القادم بزيارة للدول العربية، وقد استقبل الشيخ زايد بن سلطان عضو مجلس الشيوخ فولبرايت استقبالاً حاراً. وعندما قدم فيما بعد رئيس الوزارة المصرية عزيز صدقي يطلب مالاً لتمويل الحرب، فضل الشيخ زايد أن يستثمر أمواله في الولايات المتحدة وكان برأيه أن الحرب ستسيء إلى علاقات الصداقة مع الولايات المتحدة. وعندما أعلنت حرب البترول كان الشيخ زايد في لندن

واتصل معه الملك فيصل هاتفياً ليخبره بأن العربية السعودية لم تعد تمول أميركا بالبترول وطلب إلى الشيخ زايد أن يلتحق بالمقاطعة موضحاً له بأن هذا هو جزء من الجهاد المقدس الواجب على جميع المسلمين، والتحق الشيخ زايد بالمقاطعة رغم قناعته بأن ذلك سيثير غضب أميركا التي تربط إمارته بها علاقات حسنة. وراجت في منطقة الخليج شائعة مفادها أن الأميركان سوف يقومون بعملية إنزال للاستيلاء على حقول البترول، وامتنع الشيخ زايد عن توريد البترول لأمريكا ولكنه لا يستطيع سحب أمواله منها لأنها مقيدة في البنوك بفترات زمنية معينة، ولكونه قد التزم بتمويل الحرب وأراد تقديم دفعات منتظمة لسوريا ومصر عمد لسحب قرض فأوعز لممثليه في لندن بطلب قرض من مؤسسة دافيد دوغلاس هيوم ابن السيد اليك دوغلاس هيوم ويعمل لحساب مصرف مورغان جرينفيل كومباني .Morgan Grenfell co وقد سبق للسيد دافيد دوغلاس هيوم أن كان ممثلاً لمصرفه في الشرق الأوسط وكان صديقاً لأهم الشخصيات في أبو ظبي والذي وافق على القرض ومبلغه ١٠٠ مليون دولار. وقد أدلى النائب البريطاني المحافظ وأحد زعماء الحركة الصهيونية في بريطانيا ميخائيل فيدلر Michael Fiedler بتصريح يقول فيه: على ما يبدو أن بريطانيا تمول شراء الأسلحة الروسية للعرب.

حرب عالمية تهدد بالوقوع

الخميس ٢٥ تشرين الأول، الولايات المتحدة تخشى بأن يقوم السوفييت بإرسال قوات إلى قناة السويس ما من شأنه أن يخل بتوازن القوى بين الشرق والغرب وترى أن سياسة التعايش السلمي في خطر، النرفزة تسيطر على الجو في واشنطن، وسبق في الليلة الماضية أن غادرت ١٢ طائرة نقل كبيرة من طراز أنتونوف مطار بودابست في مجموعة واحدة باتجاه الشرق الأوسط وقد علمت المخابرات الأمريكية بعد بضع دقائق من مغادرتهم مطار بودابست أن هدفهم هو القاهرة. ولم يكن لأحد أن يعلم ما تحوي هذه الطائرات، وسرت الحيرة في واشنطن وكانوا يتساءلون يا ترى هل الطائرات هي من طائرات الإمداد العسكري التقليدي أم أن هناك خطة روسية بإرسال قوات لإنقاذ السادات، وكان البيت الأبيض يتوقع أن يقوم بريجنيف بالتدخل العسكري المباشر لمساعدة مصر مساعدة أجدى، وقبل خمس ساعات من إقلاع الطائرات من مطار بودابست كان السفير السوفيتي في واشنطن دوبرينين قد اتصل هاتفياً بكيسينغر وطلب منه باتخاذ خطوات أميركية - روسية مشتركة لإجبار الإسرائيليين بالتراجع إلى خط الهدنة في ٢٢ تشرين الأول وقال له علينا

أن نضمن احترام قرارات مجلس الأمن، وكان كيسينغر قد رفض إرسال جنود أميركيين لقناة السويس للقيام بالإشراف على وقف إطلاق النار كما أنه لم يتبين من محادثة دوبرينين واقتراحه بإرسال قوات روسية أميركية مشتركة قد جاء بناء على رغبة الحكومة الروسية أو أنه مجرد مبادرة خاصة من دوبرينين ولكن رفض كيسينغر لهذا الاقتراح أزعج دوبرينين ورد على وزير الخارجية الأميركية بقوله: في هذه الحالة علينا نحن وحدنا إذن أن نعمل على تحقيق احترام قرار مجلس الأمن.

واتصل كيسينغر حالاً بالرئيس نيكسون وأخبره عن مجرى الحديث مع السفير السوفيتي الذي ما كان عليه إلا أن يتصرف بسرعة ليرى الروس أن سياسة التعايش السلمي سيلحق بها خطر كبير إذا قام الروس بإرسال جنودهم لمنطقة القناة، فطلب من مجلس الأمن القومي عقد جلسة عاجلة، وبدأت الجلسة قبل منتصف الليل بقليل في البيت الأبيض.

الروس يعلنون بأنهم سوف يتدخلون عسكرياً في منطقة الشرق الأوسط ولدى المخابرات الأميركية معلومات بأن سبع فرق إنزال جوية يبلغ تعدادها ٥٠٠٠٠ جندي تقف على أهبة الاستعداد كما كان الروس قد ضاعفوا قبل عدة أيام وحداتهم البحرية في البحر الأبيض المتوسط إلى ٨٥ قطعة، وربما كانت الـ ١٢ طائرة الانتونوف التي غادرت مطار بودابست باتجاه الشرق الأوسط ربما كانت تحمل ١٠٠٠ رجل كطليعة للقوات. كان ذلك هو تقدير البنتاغون "وزارة الدفاع الأميركية" ولكن المعلومات التي حصلت عليها

المخابرات الأميركية الواردة من بوادبست لا تتضمن دلالة أكيدة على وجود جنود بداخلها لأن الطائرات كانت قد مكثت فترة في المطار قبل إقلاعها من جديد ولو أنها كانت فعلاً تحوي جنوداً بداخلها لكان لابد خلال هذه الفترة من معرفة ذلك، وقد لوحظ قبل يومين من هذا التاريخ أن الجسر الجوي بين روسيا والقاهرة لم يعد كالأيام السابقة وكان المرء يستطيع من فندق هيلتون في القاهرة أن يلحظ الهدوء في سمائها.

وفي يوم الاثنين الماضي هبطت ٧٠ طائرة بمطار القاهرة وكانت تطير على ارتفاع منخفض فوق الفندق، ويوم الخميس وصلت ٥ طائرات فقط وكان السؤال الذي يناقش في البيت الأبيض يا ترى هل كانت الطائرات الاثنتا عشرة تعويضاً لتخفيف عدد الطائرات على الجسر الجوي في الأيام الماضية أم أن هذا النقص كان مرده أن الروس يجمعون طائرات الانتونوف في أمكنة أخرى بحيث تكون على أهبة الاستعداد لنقل الجنود. ونيكسون يمضي الليل في البيت الأبيض ينتظر المعلومات ويسأل مستشاريه وكان رأيه أن هناك خطراً من أن ترسل فعلاً فرق الإنزال السبعة الروسية للشرق الأوسط وأن يكون هدفهم الأول هو فك الحصار عن الجيش المصري الثالث ومدينة السويس وطرد القوات الإسرائيلية من الضفة الغربية ولا يستبعد ذلك طالما أن السفير دوبرينين قد أعرب عن رغبة الاتحاد السوفيتي القيام وحيداً بعمليات عسكرية من هذا القبيل ونحن قد أعطينا وعداً لإسرائيل وضمانات بأن نحميهم وسنكون مجبرين في هذه الحالة على التدخل كالاتحاد السوفيتي لمساعدة

الإسرائيليين كما يرى نيكسون أن أخطاراً على المصالح الغربية في منطقة الشرق الأوسط إذ لا يتوقع أن ينسحب الجنود الروس بنفس السرعة من هذه المنطقة بعد انتهاء العمليات العسكرية وأن تتحول هذه المنطقة إلى منطقة نفوذ روسي وهذا ما من شأنه أن يحدق الخطر الشيوعي فيما بعد بأوربا الغربية، ويوصي نيكسون مجلس الأمن القومي باتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة لدرء هذه الأخطار المتعددة.

وفي يوم الخميس ٢٥ تشرين الأول في الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق بعد منتصف الليل بالتوقيت المحلي لمدينة واشنطن تصدر تعليمات لاسلكية إلى جميع القوات الأميركية في العالم جاء فيها: اتخذوا جميع التدابير اللازمة لإعلان حالة الطوارئ من الدرجة الثالثة Assume Def con Three وزير الدفاع الأميركي شلنرينغر يأمر بإعلان حالة التأهب للقوى الذرية الأميركية، الصواريخ عابرة القارات تتهيأ للانطلاق والقاذفات الذرية B -52 تغادر جزيرة غوام Guam في المحيط الباسفيكي إلى أميركا لتحمل القنابل الذرية. وقد اعترف الرئيس نيكسون بأن هذه الأزمة لهي أكبر أزمة بعد أزمة كوبا. ويثير تأهب القوات الأميركية في أوربا الذعر والخوف لدى حكومات هذه الدول لأن تحركات هذه القوى لا يمكن إخفاؤها ووزير خارجية ألمانيا الغربية والترشيل Walter Scheel يرى في ذلك انتقاصاً من السيادة الألمانية في بلاده ويقول: نحن لسنا طرفاً محارباً في الشرق الأوسط وتحريك القوات الأميركية باتجاه الحدود مع ألمانيا الشرقية يخيفه لكن الولايات المتحدة لم تكن

لتعير ذلك أي اهتمام وهذا ما عبر عنه وزير الدفاع الأميركي بقوله: إن جنودنا في أوربا يقومون بمهمة حماية منطقة معينة وإذا لم يكن باستطاعتنا أن نوجه قواتنا هذه كما نشاء فليس علينا إلا أن نقوم بسحبها من أوربا.

ويمضي يوم الخميس ٢٥ تشرين الأول دون أن تظهر قوات روسية في منطقة القناة وكانت طائرات الانتونوف الاثنتا عشرة قد أفرغت حمولتها في مطار القاهرة والتي كانت تتألف من دبابات وصواريخ سام ـ ٦، وتبقى وحدات الإنزال الروسية السبعة في ثكناتها في روسيا والجسر الجوي بين روسيا والقاهرة يسوده الهدوء.

في الساعة الحادية عشرة حسب التوقيت المحلي الأميركي يعقد هنري كيسينغر مؤتمراً صحفياً ولأول مرة يراه الناس عصبياً وصوته مرتجف ـ وهو المعروف بهدوئه ونكتته ـ يدافع عن قرار مجلس الأمن القومي بإعلان حالة الطوارئ والتأهب الذري بقوله: إن التدخل الروسي لا يهدد السلام العالمي فحسب بل ويهدد بوقوع حرب ذرية تفني البشرية بكاملها، وكانت قناعة الجميع بأنه ليس لأميركا فعلاً أسباب موجبة لكل ما قامت به.

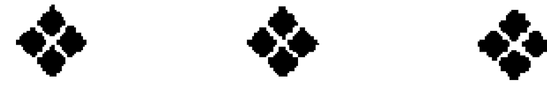
وكان غضب الروس واضحاً على خطوات الولايات المتحدة وكان بريجينف يسأل مساعديه ومستشاريه في ساعات الصباح الباكر هل يريد فعلاً الأميركان الحرب. ويبقى محافظاً على أعصابه ولا يقوم بخطوات مماثلة في نطاق حلف وارسو وكان ينتظر تصريحات كيسينغر في مؤتمره الصحفي الذي جاء فيه: لا نقف في تصادم مع الاتحاد السوفيتي لكن هذا الخطر وارد في كل لحظة، إذ لا توجد خلافات مع الاتحاد السوفيتي. ولكن رغم ذلك فقد

قام وزير الدفاع الأميركي بإعلان حالة التأهب والتي شملت القوات الأميركية في العالم كله، وبدأ الأميركيون يتصورون أن الرئيس نيكسون قد قام بهذه الخطوات ليلهي الناس عن فضيحة ووترغيت وأنه دفع بالعالم إلى حافة الهاوية ووضعه تجاه أخطار صدام ذري لينقذ موقفه ومصالحه الخاصة، واضمحل شأن نيكسون واحترامه وهو الذي كان ينتظر الشعب الأميركي منه اتخاذ خطوات إيجابية لحل مشكلة الشرق الأوسط، وكيسينغر يدافع عن رئيسه بقوله: نأمل أن يكون هناك حد أدنى من القناعة بأن خطواتنا كانت صحيحة وفي محلها وأن لا يكون هناك من يعتقد بأن الحكومة تلعب بمصير العالم ومصير شعبها.

أنور السادات يعلق آمالاً كبرى على كيسينغر وهو يدري تماماً بالنفوذ الكبير الذي يتمتع به كيسينجر في موسكو وبكين ويرى فيه أقوى رجل على الكرة الأرضية وسوف يرى هذا الإنسان تنازلات لم يكن ليعرضها على سابقه روجرز. وإحسان عبد القدوس رئيس تحرير الصحيفة المصرية "أخبار اليوم" يقول: نحن متفائلون بكيسينغر وقد احتجنا فيما سبق لسنين قبل أن نتأكد من أن لروجرز وزير الخارجية السابق أي نفوذ ونأمل أن لا تخيب آمالنا الآن مع كيسينغر ويعرف العرب أنه ليس لهذا الرجل أية علاقة بفضيحة ووترغيت ويده بيضاء لا تشوب ماضيه أية فضيحة. وحسب رأي عبد القدوس أن وقار وخلق كيسينغر ذو وزن كبير بالرغم من أنه يهودي.

وينهي كيسينغر في ذلك اليوم في مؤتمره الصحفي سوء التفاهم الذي حصل في موسكو بقوله: الولايات المتحدة وروسيا عليهما معاً أن يتحملا

مسؤولية حل مشكلة الشرق الأوسط وحدهما يمكنهما القيام بهذه المهمة ويقول أنه في رأينا ورأي الاتحاد السوفيتي لابد من تحقيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ في مؤتمر الصلح، وكان لهذه الكلمات صدى طيباً في قصر القبة في القاهرة في الوقت الذي سادت فيه خيبة الأمل في تل أبيب.



جدال في إسرائيل

كان الناس يتواردون على بيت الأمم في القدس على ضوء مصابيح الجيب لأن المدينة معتمة ولم يكن من الممكن إضاءة الدرج ومدخل قاعة الاحتفالات في بيت الأمم لعرض النوافذ في هذا البناء وبالمصابيح كان يتلمس الناس طريقهم إلى داخل القاعة حيث كانت تقام أول حفلة لفرقة الأوركسترا الهارمونية الإسرائيلية بعد عطلة الصيف والتي كان مقرراً لها أن تكون بعد نهاية عيد الغفران ولكن في مطلع الحرب سحب عشرون من أفراد الفرقة الموسيقية للحرب.

وبادرت الفرقة لاستدعاء أعضائها السابقين ليحلوا مكان زملائهم الذين سحبوا إلى الحرب وبذلك أمكن إقامة الحفل الموسيقي الأول، وفي الأسابيع الأربعة المقبلة ستعمد الفرقة لإقامة حفلات للجنود في الجبهة والقواعد الجوية. ولا يجمع الإسرائيليين ويزيد تعاضدهم أكثر من الحرب وبالتفاؤل الكبير والسرور والفرح في حرب حزيران ١٩٦٧ ويستغربون من أن الجو في هذه الحرب ليس كما كان عليه في الحرب السابقة وبدا للناس جميعاً بأن النصر لم يتحقق وبوقف إطلاق النار سيطر عليهم جو من الحزن والتشاؤم وكان هذا النشيد يتردد في إسرائيل (باسم قائد الدبابة الذي حرق حياً، باسم الطيار الذي سقط مشتعلاً من السماء، أقسم بأن هذه الحرب هي الأخيرة، الأخيرة

الأخيرة). ومضت الأيام التي كانت اللجنة المكلفة من الجيش بإخبار ذوي القتلى بخبر مقتل أبنائهم أو أزواجهم وبدأت مرحلة الحزن وكان الجميع في إسرائيل يبكون قتلاهم والأعلام منكسة في إسرائيل وجميع المقابر تؤمها مواسم الدفن والحزن. نساء باكيات تنحني على القبور، عرائس تنحني على الأرض وتقبل القبور والجنود يقومون بالصلاة على زملائهم القتلى. دفنت إسرائيل ١٨٥٤ قتيلاً سقطوا في سيناء والجولان وهذا العدد من القتلى أصاب إسرائيل في صميمها إذ لم تبق عائلة في هذا البلد الصغير إلا وأصيبت بفقد أحد منها، وأغلب الناس يحملون الشعر في ثيابهم علامة الحزن وكانت الأحاديث التي تدور في الحوانيت والمقاهي والمعامل والثكنات بعد الهدنة كانت تدور حول موضوع واحد هو هذا العدد الهائل من القتلى. والميجر جنرال صموئيل جونيم Shmuel Gonem يصرح بقوله: لم يسبق لنا في تاريخنا أن فقدنا هذا العدد الهائل من الشباب تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢١ عاماً وسوف نحتاج لوقت طويل لجلاء سبب ذلك. ففي حرب ١٩٦٧ فقدت إسرائيل ٨٠٩ قتلى وفي حرب ١٩٥٦ فقدت ١٨٩ قتيلاً وبخوف هائل يفكر الإسرائيليون في ضحاياهم إذا ما عادت الحرب بعد وقف إطلاق النار.

ولازال رجال كثيرون يموتون رغم وقف إطلاق النار والمستشفيات تحوي ١٨٨٠ جريحاً أغلبهم جرحى خطرون و٢٠٠ منهم لا يوجد أي أملٍ لهم بالحياة و٣٠٠٠ جريح بجروح طفيفة قد غادروا المستشفيات، وحوالي ٤٥٠ إسرائيلي هم بالأسر في مصر وسوريا والإسرائيليون يخافون على مصيرهم ولا ينسى الناس أن المصريين والسوريين كانوا قد أساءوا معاملة أسرى حرب ١٩٦٧

والذي كان عددهم ١٦ أسيراً فقط، لكن صور الأسرى الإسرائيليين في مصر تعطي كثيراً من الأمل في أن معاملتهم هذه المرة أحسن من المرة الماضية رغم أنهم يبدون في الصور مقيدين يجلسون على الرمال وأيديهم مقيدة خلف رؤوسهم ويستمد الإسرائيليون من هذه الصور أن الجنود العرب يجدون المتعة في إذلال أسراهم وكانت صحيفة معاريف الإسرائيلية قد نقلت نبأ مفاده أن سوريا قتلت أو أساءت معاملة حوالي مئة أسير إسرائيلي وتدعي الجريدة أن معلوماتها هذه مستمدة من مصادر في الصليب الأحمر الدولي والذي سارع لتكذيب هذه الأنباء.

ويقول الجنرال الإسرائيلي صموئيل آيال Schmuel Eyal أن كل هذا شائعات لا يمكن التأكد من صحتها وكل ما نعرفه أنه لنا ٤٥٠ أسيراً ٣٥٠ منهم في الجبهة المصرية و١٠٠ في الجبهة السورية وعلينا أن نستعيدهم بأي ثمن كان ولو كان ذلك باستبدالهم مقابل الـ ٧٠٠٠ جندي عربي أسير في أيدينا.

لقد قمت وفرقة التصوير الصحفي التي تعمل معي بتصوير أفلام عن الأسرى في المعسكرات والمستشفيات في كل من دمشق والقاهرة وكان مساعديي يسألون أكثر الأسرى كل عن اسمه ورتبته في الجيش الإسرائيلي، والجندي بدرو رايبرفر Pedro Rheinbergor يقول: نعامل معاملة حسنة والعناية الطبية بنا جيدة وآمل أن نعود في أقرب وقت لعلائلاتنا كي نأمل أن يفرج عن أسرانا في مصر أيضاً، وعودة الأسرى هي أول مهمة أخذتها على عاتقها جولدامائير أو بالأحرى أول مشكلة تعترضها بعد الحرب لأن الانتخابات ستجري في ٣١ كانون الأول وتبني عودة الأسرى تجلب للأحزاب

السياسية أصواتاً كبيرة في الانتخابات، وحزب المعارضة يطالب حالاً بجلسة للكنيست بعد وقف إطلاق النار ويتهم الحكومة بالتساهل والخضوع للضغط الأميركي لفك الحصار عن الجيش المصري دون أن تقوم الحكومة ببذل أي مسعى للأفواج عن الأسرى الإسرائيليين. وفي رسالة مفتوحة تحمل تواقيع ٢٠٠٠٠ شخص طلب فيها من جولدامائير أن تمنع تموين الجيش الثالث طالما يوجد أسرى إسرائيليون في مصر وقامت الزوجات والأمهات بمظاهرة أمام وزارة الدفاع الإسرائيلية وحاولت الوصول إلى مركز وزير الدفاع إلا أن الشرطة منعتهم وقامت بتفريقهم.

سكتت الأسلحة على جبهة السويس لكن ثقل الحرب وكاهلها مازال ثقيلاً فحوالي ربع اليد العاملة لا تزال في خطوط الجبهة والإنتاج الصناعي نقص بمعدل ٤٠٪ والمواد الرئيسية يتم إنتاجها بمضاعفة الجهود وساعات العمل والصعوبات في النقل والتموين لازالت كما كانت خلال الحرب لأن أغلب سيارات الشحن صادرها الجيش لتقوم بخدمات عسكرية وبدلاً من أن تنقل هذه السيارات الخضار والفواكه تنقل الآن الذخيرة والماء للجبهة، كانت سيارات الشحن قبل الحرب تنقل يومياً ٣٠٠٠٠٠ طن من مواد التموين وانخفض ذلك إلى ١٢٠٠٠ طن الآن ولذلك قامت الحكومة بطلب ٢٥٠٠ سيارة شحن بثمن يعادل ٤٢ مليون دولار لتحل مكان السيارات المصادرة من قبل الجيش وقامت وزارة العمل الإسرائيلية بإقامة دورات سريعة لألف رجل لقيادة سيارات الشحن، وشبان من أوربا وأميركا كانوا قد قدموا في بداية الحرب لتقديم خدماتهم يشتركون أيضاً في هذه الدورات السريعة. ووزير المواصلات

شيمون بيريز Shimon Peres أرسل مبعوثين إلى أوربا لشراء واستعارة سيارات الشحن مع سائقيها وما تلبث هذه السيارات عند وصولها ميناء حيفا بشحن البضائع المتراكمة في الميناء .

وأصدرت الحكومة أمراً بتخفيض استهلاك البنزين للأغراض الخاصة كما اقترحت وزارة المواصلات رفع سعره ٥٠٪ وأقر مجلس الوزراء هذا الاقتراح كما رفع سعر الكهرباء ٣٠٪ واللحم ٢٠٪ والغاز ٥٠٪. وتتحول إسرائيل من دولة مرفهة إلى دولة فقيرة بعد هذه الحرب، ويقول رئيس بلدية القدس تيدي كولك Teddy Kollek مهما كانت النتائج يجب أن تتحملها ونمر بها . والاحتياطيون الذين يشكلون ربع اليد العاملة يحصلون على رواتبهم كاملة وأنفقت خزينة الدولة لهذا الغرض خلال أشهر تشرين الأول والثاني وكانون الأول مليار مارك تقريباً ، وزير المالية بنحاس سابير Penhas Sapier أمر بطبع أوراق نقدية وأمله بذلك أن يتجنب التضخم النقدي علماً بأن ارتفاع الأسعار كان بناء على مقترحاته وسابير يحاول أن ينقذ البلاد من كارثة مالية إذ أن الدخل القومي تناقص ٣,٢٪ والأمل السابق بأن يتوفر للخزانة الإسرائيلية ٤٠ مليار ليرة لم يتحقق ومخصصات حرب عيد الغفران كانت مرة إذ دفعت إسرائيل نفقات مباشرة للحرب تقدر بـ ١٥ مليار مارك دون أن تربح الحرب بعكس حرب حزيران ١٩٦٧ التي جلبت لإسرائيل أرباحاً هائلة بتسلطها على أراض خصبة في غور الأردن وقطاع غزة مما عوض عليها خسائرها في تلك الحرب، ومنابع البترول في شبه جزيرة سيناء وقعت في أيديهم والتي تنتج ٦ ملايين طن من البترول، وذلك النصر السريع الذي حققته

إسرائيل في عام ١٩٦٧ هيأ للبلاد نهضة اقتصادية هائلة لكن هذه المرة لا يوجد أي سبب أو داع للتفاؤل.

وأمل الإسرائيليين في هذه المحنة هو رئيسة وزرائهم. غولدامائير مرتدية طقماً كاشفاً، شعرها أبيض وحذاء أبيض تزور الجبهة في قناة السويس؛ ساقاها متورمتان عند مفاصل القدم، ثقيلة الخطوات فوق الرمل يستقبلها الضباط والجنود بحفاوة بالغة وهي تخرج من طائرة هيلكوبتر وتطأ قدمها لأول مرة الضفة الغربية يرافقها دايان وزير الدفاع ودافيد العازار رئيس الاركان، آريل شارون قائد الهجوم الإسرائيلي المعاكس يستقبلها بكل احترام وتقدير وغضبه لم يكن على غولدامائير التي تقول له: إنني أعرف أننا بقبولنا وقف إطلاق النار لم نكن عادلين ومنصفين تجاه جنودك الأبطال الذين قاموا بهذه العملية لكن الولايات المتحدة أجبرتنا على ذلك وتوقفكم وأنتم تحرزون الانتصارات لابد وأنه كان مريراً بالنسبة لكم جميعاً. ويرد عليها أن شيئاً كهذا لم يحدث بعد في التاريخ نحطمهم وننتصر عليهم ثم لا نلبث أن نجبر على العناية بهم وتقديم المؤونة لهم وأنك لا تدرين كيف يثير هذا حقد وغضب الضباط والجنود عندما يتركون قوافل التموين تمر للجيش الثالث المحاصر .وكانت تنقل يومياً للجيش الثالث المواد الغذائية والأدوية للحفاظ على ٢٠٠٠٠ رجل من الجوع والعطش والتشريد وآريل شارون لا يفهم المواقف السياسية بل ينظر إلى الأمور عسكرياً ولا تناسبه وجهات النظر هذه بل يفضل أن يجبر الجيش المحاصر على الاستسلام وهذا أفضل حل يراه ويبدأ بصب شتائمه البذيئة على الولايات المتحدة وتذكر جولدامائير الجنود كيف أن

إسـرائيل وقفـت في عـام ١٩٥٦ كـاليوم أيـضاً عـلى قنـاة الـسويس ثـم لا تلبـث الـدول الكـبرى أن تجبرهـا عـلى الرجـوع إلى نقطـة الانطـلاق وتتـابع قولهـا أننـا ندمنا جداً يومذاك على انسحابنا وكان بن غوريون آنذاك رئيس الـوزراء وقـد لاقى صعوبات ومشاق كبرى في إقناع الجيش بالعودة تجاه الشرق وصعب على الضباط والجنود أن يتخلوا عـن جبـل موسـى وديـر سـانت كاترينـا واضطر بـن غوريون لبذل جهود كبيرة لإقناعهم بالانسحاب.

(الإسرائيليون يرون أن نبيهم موسى قد تلقى عند هذا الجبل الوصايا العشر) ولا يفهم شارون كيف تتنازل إسرائيل من جديد عـن هـذا المكـان المقـدس وتعيـده ليد المصريين، لكن لابد له من الطاعة فيما إذا أمرت رئيسة الوزراء بذلك.

غولـدامائير مـن مؤسـسي إسـرائيل تبلـغ مـن العمـر ٧٥ عامـاً ولـدت في مدينة كييف في روسيا البيضاء في عهد القياصرة، أبوها كـان نجـاراً وهـاجر مـع عائلته في عام ١٩٠٦ إلى الولايات المتحدة، ثم حضرت غولـدامائير مـع زوجهـا في عام ١٩٢١ إلى فلسطين وعملت في الحقل في إحدى المستعمرات وكـان لهـا طفلان وبقيت العائلة فقيرة حتى بعد أن غير زوجها وهـو مهـاجر روسـي أيـضاً مهنته حتى أصبح محاسباً، وفي عام ١٩٢٨ اكتـشف ميولهـا الـسياسية وبـدأت العمـل في النقابـة وبعـد الحـرب العالميـة الثانيـة انفـصلت عـن زوجهـا ورأت أن تحقيق آمالها ورغباتها في الـسياسة يـتم في تبنيهـا الفكـرة الـصهيونية وفي القتـال من أجل وطن لليهود ولم تترك السياسة منذ ذلك اليوم.

آبا إيبان الذي يميل إلى المبالغـة في النكتـة قـال عـن غولـدامائير بعـد نهايـة الحرب العربيـة ـ الإسـرائيلية الرابعـة أنهـا كـذبت جميـع النظريـات الطبيـة الـتي

تقول بضرورة النوم. وهي تقسم وقتها بشكل محكم إذ تنام بضع ساعات قليلة في بيتها في تل أبيب حيث تقيم مع ابنها وعائلته وعدد لا يحصى من فناجين القهوة يحفظ لها نشاطها اليومي ولا تصدق أن صحتها في خطر وتقول في هذا المجال، إن قلبي ثابت وذكرت أنها كانت تدخن في أيام الحرب ٦٠ سيجارة يومياً ولكن رغم ذلك بدا عليها الإعياء والتعب عندما وصلت إلى واشنطن قادمة إليها مباشرة بعد زيارتها للقوات على الضفة الغربية إذ عادت إلى مطار اللد وتابعت سفرها إلى واشنطن دون أن تمر على مكتبها أو بيتها وبدون دعوة سابقة ولكن حضورها كان مناسباً لهنري كيسينغر الذي يرى أن الفرصة مناسبة لكي يقوم بإقناعها برأيه في حل مشكلة الشرق الأوسط، وبدا عليها النرفزة والعصبية لأنها كانت قلقة من التقارب الأميركي - المصري وقد استطاع خلف وزير الخارجية المصرية الدكتور محمد حسن الزيات، إسماعيل فهمي في أربع محادثات طويلة مع كيسينغر الحصول على بعض الوعود وبعد أن أخبر بذلك تلفونياً رئيسه السادات أدلى الأخير بتصريحات يمدح فيها الأميركان.

وكان لاصطحاب الرئيس نيكسون لإسماعيل فهمي حتى السيارة خارج البيت الأبيض أثر جميل عند السادات ولوحظت هذه البادرة بكل عناية في كل من القاهرة وتل أبيب وبدأت غولدامائير كما بدأ السادات يدركون أن إسرائيل لم تعد وحدها صديقة الولايات المتحدة الأميركية في المنطقة ولم يعجب هذا غولدامائير.

وعندما سئلت من الصحفيين في واشنطن لماذا تريد أن تتحدث مع نيكسون كان جوابها "أريد أرى بعيني فيما إذا كان هناك ضغط علينا".

كيسينغر يضغط على إسرائيل ويطالبها بتنازلات، يطالب بممر لتمويل الجيش الثالث وهي تدري أن ذلك سيثير غضب الضباط فيما إذا أجبروا على السماح بإقامة هذا الممر لكن كيسينغر يصر على رجائه قائلاً إن هذه المبادرة سوف تفتح طريقاً جديداً للسلام وتجيبه غولدامائير وأنا أيضاً أطالب بمبادرة أخرى وهي إخلاء سبيل الأسرى الإسرائيليين وكان كيسينغر قد وعد إسماعيل فهمي بأنه سيحقق انسحاب القوات الإسرائيلية حتى رأس العبادية.

وبدأ دايان يهيئ الجو في المجلس النيابي وبين السياسيين وقادة القطعات بان إسرائيل لا يمكن لها أن تقف ضد رغبات الولايات المتحدة ويقول: من يعتقد أننا نستطيع القيام بحرب في وقت نتنازع فيه مع الولايات المتحدة الأميركية فهو مخطئ جداً ولا نستطيع مقاومة العرب والوقوف في وجههم إلا إذا كانت أميركا وراءنا. كما يدلي بأمر كان سراً حتى ذلك الوقت يقول: ما كان أمامنا إلا أن نقبل الهدنة لأن الذخيرة لدينا كانت قد نفدت.

ولم تخف غولدامائير من خيبة أملها في واشنطن عندما صرحت بأن الولايات المتحدة لا تقوم بتحقيق كل رغباتها وليس عندي أنباء مشجعة أخبر بها أبناء وطني، ولابد لإسرائيل وخاصة لحزب العمال من أخبار مرضية بسبب الانتخابات القادمة بعد أن تهيأ المعارضون للقيام بالدعاية ضد حزب العمال مستفيدين بذلك من أخطار حرب يوم عيد الغفران.

شابيرا Shapira وزير العدل يبدأ الحرب الداخلية في إسرائيل وكان هدفه زميل له في قيادة حزب العمال موشي دايان فيتهمه بأنه قدر الموقف قبل بدء الحرب تقديراً خاطئاً جداً وهو مسؤول عن أخطاء الأيام الأولى من الحرب

وطالب دايان بالاستقالة من الحكومة وقال أمام المجلس النيابي : "يهمكم جميعاً أن تعرفوا ماذا كان يشغل وزير دفاعنا في بدء الحرب، لقد كان يشغل نفسه بإقالات وتعيينات وتعديلات بالمجلس الإداري لصناعة الطيران المساهمة حيث كان يهدف بتغييراته هذه أن يضمن أغلبية انتخابية للجنرال موردخاي هود ليؤمن له منصب رئيس مجلس الإدارة" . وتبدأ جلسة صاخبة في مجلس النواب الإسرائيلي الذي يعرف عنه الضبط والنظام، الصيحات تتعالى أثناء خطاب دايان ونواب غاضبون يحاولون أن يمنعوه من الكلام أو إبعاده عن منصة الخطابة وكانت تتعالى الأصوات لتعلو على صوته حتى لا تسمع كلمته ولكنه يثبت برودة دمه ويستمر في كلامه رغم العاصفة. وكانت غولداماثير تستمع إلى الكلمة دون حراك أو انطباع منطوية على نفسها. والخوف على مصير البلاد كان هو السبب في عدم ضبط النفس وهذه الفوضى في المجلس والأسئلة التي كانت تتردد (ماذا سيحل يا ترى بإسرائيل؟ هل سيطبق الحصار عليها؟ هل ستعزل؟ هل لا تزال أميركا صديقة لإسرائيل؟ وعلى من سنعتمد)؟ وما كان ليحلو للإسرائيليين أن حاولت أميركا بكل ما بوسعها بنهاية الحرب أن تبعد عن السادات العزلة كما وأن الجميع يعرفون أنه إذا استمرت الولايات المتحدة، في مساعدة السادات لابد أن تطلب من الإسرائيليين الانسحاب من سيناء ولن تعود هي التي تقرر ذلك أو إلى أي حد سيكون هذا التنازل وكانت هذه الحقيقة تزيد في نرفزة وعصبية النواب في المجلس. ومنذ ربع قرن لم تتبدل القوى في المجلس النيابي رغم أن عدد السكان تضاعف ثلاث مرات منذ عام ١٩٤٨ سواء بالهجرة أو بالجيل الجديد

الذي ولد في فلسطين ورغم كل ذلك بقي حزب العمال أقوى تشكيل نيابي في المجلس ولكنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يحكم منفرداً وكانت تتآلف معه تنظيمات منها الدينيون والمستقلون لتتمكن من الحصول على الأغلبية أما المعارضة فتقف التجمعات المحافظة وزعيمها مناحيم بيغن الذي كان أيام الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى في عام ١٩٤٨ رئيس منظمة الآرغون Irgun وهو المسؤول عن الجرائم العديدة التي ارتكبت ضد الجنود البريطانيين وضد السكان العرب على السواء ومظهره لا يدل على أنه إنسان واقعي طبيعي وسلاحه هو صوته وبالرغم من أنه منخفض وخفيف لكنه قوي الفعل والتعبير وهو خطيب بارع يستطيع أن يحوز الإعجاب أو أن يثير الغضب ضد خصومه وكان موضوع كلمته في المجلس هو الدعوة الدائمة لقوة إسرائيل يقول: (على البلاد أن تقوم بقوتها الذاتية وتكون أهلاً لمواجهة كل الظروف علينا أن ننتج بأنفسنا كل الأسلحة حتى لا نكون مرتبطين دائماً بالولايات المتحدة، واتهم الحكومة بالتنازل بل والتخاذل أمام الولايات المتحدة). ويتحدث عن الطعنة بالظهر للانتصارات الإسرائيلية ويطالب بمعاقبة المذنبين، ورأيه للمستقبل أنه لا يمكن إيجاد سلم بدون انتصارات إسرائيلية ساحقة.

وغولدامائير تشعر بالخطر لأن أكثر مؤيديها في حزبها نفسه يفكرون نفس التفكير وتأثروا جداً وغضبوا لقبول إسرائيل بتمويل الجيش الثالث المحاصر وغضب ضباط الجبهة هو نفسه بين السياسيين بعدما كان الجنرال شارون قد اطلع السياسيين على معنويات الضباط والجنود في الجبهة وموقفهم وغضبهم في هذا الخصوص. حتى أن المواطنين علموا بذلك وقامت صحيفة جيروساليم بوست

Jerusalem Post باستفتاء الناس في الشوارع وكانت النتيجة غير مرضية للحكومة حيث كانت الغالبية منهم تشتم غولدامائير وحكومتها لأول مرة تتعرض الأغلبية النيابية لحزب العمال للخطر، ويبدأ الناس بتأييد المعارضة المحافظة، وهذا ما دعا دايان لأن يسأل غولدامائير إذا كان لازال يحوز على ثقتها وفيما إذا كان يستطيع باستقالته أن يساعد الحكومة والحزب في تخفيف النقمة عليهم وتجيبه بأن الوقت ليس مناسباً لإجراء تغييرات في الحكومة وأما الأخطاء في بدء الحرب فسوف نناقشها في الوقت المناسب وليس الآن وبدأ دايان يشعر منذ هذه المقابلة مع مائير بأن مستقبله السياسي لن يكون باهراً.

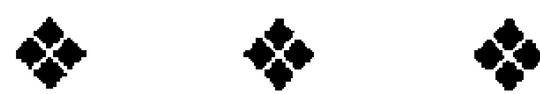
وبالنسبة للإسرائيليين فقد كان بطل هذه الحرب هو الجنرال آريل شارون وهو وحده الذي كان يعتريه شعور بأنه خدع أو منع من الوصول إلى المجد وهو في منتصف الطريق مما جعل الضابط المخدوع يحاول أن يجد النصر بالسياسة. وكان أحد جنود المدرعات قد كتب في الأيام الأخيرة للحرب على دبابته وبلون أبيض الشعار التالي "آريل شارون ملك اليهود" وكان شارون لا يخفي مطامعه بالوصول إلى أعلى مناصب الدولة ويهدف أن ينقل السلطة إلى حزب المعارضة ويعتمد بأن أغلب مؤيديهم من الجيل الصاعد الذي يرغب بأن تنتقل السلطة إلى يد المحَافظين. وبعد الهدنة يطلب إعفاءه من الخدمة العسكرية ليتمتع بالحرية الكاملة ليقوم بهجماته ضد زعماء حزب العمال وكان أول هدف له موشي دايان الذي يهاجمه بلا شفقة ولا رحمة واتهاماته هي أن القيادة العليا كانت قبل وأثناء اندلاع الحرب غافلة ويقول أني رأيت فيما بعد صوراً جوية توضح تماماً التحضيرات المصرية التي كان يشك بها ويقول وعندما

انتقلنا إلى الضفة الغربية لم يكن التعاون وثيقاً مع القيادة العامة وكان السبب لأننا لم نتقدم منذ البداية بالسرعة التي كنا نرغبها وأضعنا على أنفسنا فرصاً عديدة مما جعل دايان يحاول أن يسكت هذا الضابط الخطير وكانت حجته أن شارون لا يتمتع بانضباط عسكري ويقوم بإفشاء أسرار عسكرية وشارون يرد عليه بتعليقات لاذعة ويقول بأن دايان هو الممثل المدلل الذي لا يشعر بأنه أصبح كهلاً كبيراً ولا يكف شارون في تحطيم التمثال دايان. ويعود إلى شارون الفضل في تكتيل المعارضة في المجلس وتأليفها جبهة معارضة تعرف باسم ليكود Likud وبدأ شارون منذ الآن الصراع النيابي لصالح المعارضة وهكذا يبدأ الصراع السياسي للجنرالات إذ أن حزب العمال كان في عداد مرشحيه عدد من الجنرالات منهم الجنرال آهارون باريف المفوض الإسرائيلي للمباحثات مع المصريين وياريف كان يرمي أيضاً إلى أن يحل مكان دايان بعدما شعر بأن الاتجاه العام للمواطنين تحول ضد وزير الدفاع ولم يعد أحد يرغبه وكان من شعاراته في المعركة الانتخابية قوله: دايان يفضل الاحتفاظ بشرم الشيخ على السلم لكننا نحن نفضل السلم على ديان. وأما آبا إيبان وزير الخارجية فإنه يحاول أن ينقذ وزير الدفاع ويقترح تأليف لجنة تحقيق تكون مهمتها الكشف عن السبب في إخفاق المخابرات وفشلها في معرفة تحضير الحرب لدى العرب، وإيبان الدبلوماسي الذكي يهدف بذلك إلى أضعف نقطة بالسياسة الدفاعية في الأشهر التي سبقت الحرب حيث كان للمخابرات الإسرائيلية عدو واحد هو المنظمات الفلسطينية. إذ أن المسؤولين في الجبهة الشعبية والفتح قد أزمعوا بعد هزيمتهم في الأردن أن يقوموا الآن بضرب

المصالح الإسرائيلية في الخارج بعد أن أصبح العمل داخل الأراضي المحتلة صعباً جداً لفقدانهم قواعدهم في الأردن وكان جورج حبش وعرفات يتابعان حرب الاستنزاف ضد إسرائيل في مكاتب شركة العال ومكاتب البعثات التجارية لاعتقادهما بأن هذا من شأنه أن يخلق القلق بالخوف لدى الشركات والسلطات والأشخاص الذين يتعاونون مع إسرائيل.

وبدأت الشركات التي تنتج الأجهزة الإلكترونية التي تتعاون مع إسرائيل تتخوف على معاملها ومؤسساتها لأنها كانت تزود الدبابات الإسرائيلية بالعدسات والأجهزة اللازمة وكان من رأي رؤساء المنظمات أن ذلك سوف يؤدي إلى عزل إسرائيل، وبدأ وزير التجارة والصناعة حاييم بارليف ـ الذي كان مسؤولاً عن إقامة وتحصين الخط الذي عرف باسمه على قناة السويس ـ يتخوف أن يفقد الشركات والمؤسسات التي تتعاون معهم وأراد بارليف القيام بخطوات مضادة فكان عليه أن يعرف مخططات هذه المنظمات وخاصة أيلول الأسود قبل تنفيذها ليحول دون وقوعها فكانت أول المهمات الرئيسية للمخابرات الإسرائيلية هو التغلغل في صفوف المنظمات الفلسطينية في بيروت والتجسس عليها، وبدأت المخابرات تطارد عرفات وحبش دون أن تحقق نصراً في ذلك وخيبات أمل متعددة للمخابرات دفعها إخفاقها وطموحها للقيام بأعمال غير ذكية وكان ردّ فعلها غير ما يتصورون فعندما علمت المخابرات الإسرائيلية في ٨ آب عام ١٩٧٣ عن طريق جواسيسها المتغلغلين في صفوف المقاومة الفلسطينية في بيروت من أن جورج حبش كان سيسافر على متن إحدى طائرات الشرق الأوسط إلى بغداد ولكنه أجل موعد زيارته يومين من

ذلك التاريخ حيث حجز مكاناً في سجل المسافرين باسم مزور بعد أن عرف أن هناك من أفشوا هذا الموعد من صفوف الفلسطينيين أنفسهم. وبالاعتماد على هذه المعلومات التي وصلت لإسرائيل قامت طائرات تابعة لسلاح الجو الإسرائيلي في الساعة ٢١,٣٥ من يوم ١٠ آب بإجبار طائرة مدنية لبنانية على الهبوط في مطار اللد بدلاً من بغداد، وكان هدف الإسرائيليين اعتقال جورج حبش ولكن كانت خيبة أملهم كبيرة إذ أنه لم يكن على متن الطائرة بل كان في بيروت ومنيت المخابرات المعروفة بأنها من أنجح المخابرات في العالم بخيبة أمل وفضيحة وخجل وبدأ العالم يوجه لإسرائيل صفة القرصنة الجوية وبعدم احترام حقوق الشعوب وطالب اتحاد الطيارين العالمي باتخاذ إجراءات ضد إسرائيل ولكن الأقسى من ذلك كله على إسرائيل كان رد العرب عليهم بأنهم قد أثبتوا بأنهم أكثر مهارة منهم، فقد صرح مندوب الجبهة الشعبية بسام أبو شريف بقوله: كنا ندري بالخطة الإسرائيلية وعلمنا ما يحدث بالطرف الآخر ولنا أصدقاء في المناصب الهامة الإسرائيلية. وكانت المخابرات الإسرائيلية قد أهملت التجسس على الجيوش العربية النظامية ولم يكن لها ما يشغلها إلا فكرة واحدة وهي المنظمات الفدائية الفلسطينية وخططها. ويتفاخر رؤساء هذه المنظمات في بدء الحرب بنجاحهم الكبير وبأنهم قد قاموا بمهمة جبارة إذ أنهم قد ألهوا المخابرات الإسرائيلية وأشغلوها مما أتاح للجيوش العربية النظامية وبكل هدوء لتهييء خططها ولتقوم بالحرب والفلسطينيون قد قاموا في هذا السبيل بواجبهم على خير وجه.



المنظمات الفدائية هي التي خسرت الحرب

في اليوم الأول من اندلاع الحرب يصرح رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بأن المنظمات قد زجت بـ ٢٦٠٠٠ رجل في القتال ولكنه لم يصدر أي بلاغ عسكري عربي يذكر شيئاً عن عمليات أو عن خسائر للفلسطينيين وبعد وقف إطلاق النار أرسل ياسر عرفات مندوبين إلى العواصم العربية ليشرحوا للحكومات أعمال وبطولات فتح والجبهة والشعبية لتحرير فلسطين دون أن يجدوا آذاناً صاغية وأكثر ما كان يهم الحكومات في كل من دمشق والقاهرة وبغداد هو رأي الفلسطينيين الآن حول سياسة مقترحة لحل مشكلة فلسطين في المستقبل دون أن يعيروا انتباهاً لأساطير البطولات. مليون ونصف من اللاجئين يعيشون في الدول المجاورة لفلسطين في خيم وبراكات وعائلات كثيرة بعدد أطفالها يعيشون حياة تعيسة في أماكن ضيقة جداص وكل ٢٥٠ شخصاً في هذه المخيمات يشتركون في استعمال مرحاض واحد والشتاء قاس وممطر وشديد البرودة سواء كان ذلك في مرتفعات الجولان أو مرتفعات الأردن أو في الصحراء أو في الهضاب حول صيدا والشوارع في داخل المخيمات والمؤدية لها أيضاً غير معبدة مليئة بالأطيان والوحول دائماً، والنساء تقف في صفوف طويلة أمام مراكز توزيع الإعاشة من الطحين والأرز

والحليب المجفف التي توزعها عليهم منظمة اليونسكو كإعانة من هيئة الأمم المتحدة، وقليل جداً من اللاجئين استوطنوا البلاد المضيفة واندمجوا بالحياة العامة وأغلب اللاجئين ينتظرون بحرارة يوم العودة، الرجال يجلسون القرفصاء أمام الخيام يدخنون ويشربون الشاي ويروون الأحاديث عن الماضي في وطنهم في بيوتهم في فلسطين، لا يبحثون عن عمل لأنهم يعرفون سلفاً أن بحثهم سيكون بلا جدوى حيث لا تتوفر فرص العمل في البلاد المضيفة إذ لا وجود للصناعات الكبيرة علاوة على أن أراضيها قاحلة والمساحات المزروعة والخصبة فيها قليلة، والدول الثلاثة الأردن ولبنان وسوريا نفسها تشكو من ارتفاع البطالة، ومليون فلسطيني يعيشون في إسرائيل والمناطق المحتلة وهم أيضاً بدورهم لا يجدون عملاً ولا يكادون يحصلون على الحد الأدنى الضروري لأبسط متطلبات الحياة اليومية؛ وليس لهم أية حقول ولكن وضعهم أفضل نوعاً ما من وضع أخوتهم في مخيمات اللاجئين في الدول العربية.

مليونان ونصف المليون فلسطيني يقطنون في فلسطين والأراضي المحتلة هربوا أو طردوا من بلادهم وتعترف هيئة الأمم المتحدة بحق هذا الشعب بالعودة، وفي صفوف الفلسطينيين جدال حول تفسير هذا الحق وأغلب الذين يعيشون في الملاجئ والمخيمات يريدون العودة إلى فلسطين المحتلة فيما إذا أمكن ذلك ومنهم من يريد أن يعوض عن منزله وحديقته وآخرون قانعون من الحياة في القرى التي كانوا يعيشون بها. لكن هروبهم مضى عليه زمن طويل وهذه الحقوق يصعب الآن تفسيرها فمنذ عام ١٩٤٨ نشأ جيل جديد في إسرائيل ويشعر هذا الجيل بأن له نفس الحق الذي يطالب به الفلسطينيون الذين كانوا قد عاشوا

هنـاك ، وفي الملاجـئ الفلـسطينية ينـشأ اليـوم الجيـل الثالـث والعـائلات كـثيرة الأطفال وعدد الفلسطينيين يزيد يوماً عن يوم ، والطرفان المتنازعان يتمتعان بنفس القوة والحجة وكل منهم يقول أن هذه الأرض هي أرضي .

ومن واقع الحياة التعيسة في ملاجئ الفلسطينيين والضجر وفقدان الأمل نبعت القوة التي تستمدها منظمات التحرير ، وتقول منظمة فتح بهذا المعنى : ليس لدينا ما يمكن فقده سوى المخيمات ، نريد أن نقرر مصيرنا بأنفسنا ، نقاتل من أجل أرضنا . ولقد كان ومازال هدف منظمات التحرير هو القضاء على إسرائيل ، فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تهدفان إلى أن تقوم على الأرض المحتلة في فلسطين دولة يكون فيها للمسلمين والمسيحيين واليهود نفس الحقوق والواجبات وياسر عرفات لا يرى حلاً آخر حيث يقول أن هذه الدولة العنصرية لا تتناسب مع البيئة التي تمتزج فيها العناصر والشعوب ولا يمكن أن تستمر هذه العنصرية في هذه الأرض وأين توجد عنصرية كهذه في العالم ما عدا جنوب أفريقيا ، والكيان الإسرائيلي يقوم على العنصرية المطلقة ، وتدعي المنظمات الفلسطينية بأنها تمثل الرأي الغالب الفلسطيني في الملاجئ لكنهم يخدعون أنفسهم بادعائهم هذا لأنه في الوقائع لا يوجد في المخيمات من يرغب بقيام حرب شعبية طويلة تستمر من ٥٠ إلى ٨٠ عاماً قد تحقق دولة فلسطين الديمقراطية العلمانية التي يحلمون بها ، وكل ما يريده سكان المخيمات هو أن يتوصلوا لحياة أفضل وأكرم من حياة الفقر والحرمان التي يعيشونها ، وعندما نشبت الحرب الأخيرة أفاق الفلسطينيون في الملاجئ من سباتهم وعلقوا آمالاً كبيرة على انتصارات الجيوش العربية وعودتهم إلى الأراضي المحتلة وكثيرون تهيأوا للعودة إلى مدنهم وقراهم التي طردوا منها .

في أحد مكاتب المنظمات الفلسطينية في بيروت قابلت أبو سليم - هذا ليس اسمه الحقيقي بل الاسم التنظيمي الذي يعرف به - وهو من مشاهير زعماء المنظمات الفدائية وكان سعيداً جداً لأن الحرب قامت وبعد انتظار طويل وقال: كنا نتمنى وننتظر هذا اليوم والآن أيقنت الدول العربية بأنه لا يمكن التعايش مع إسرائيل، ولن نتخلى عن الأراضي المحتلة وإسرائيل لا تفهم إلا لغة الحرب والآن نتكلم معها بنفس اللغة التي تفهمها. سألت أبو سليم فيما إذا كانت المنظمات تساهم في هذه الحرب؟ فأجابني تقاتل الآن في قلب إسرائيل وندمر خطوط التموين، وفي الـ ٢٤ ساعة الأخيرة، قمنا بمهاجمة ثكنة بالصواريخ، قام بها ١٣ رجلاً ونشترك الآن بجماعات أكبر وكان يجدد التأكيد بأن المنظمات تشترك الآن فعلاً في الحرب وليس فقط على الحدود بين لبنان وفلسطين حيث اقتصرت أعمالها هنا على الانطلاق من الأراضي اللبنانية، ولم تستطع أن تثبت جذورها في الأراضي المحتلة حيث يتجنب العرب هناك الاحتكاك بالمنظمات التحريرية وكانت قد اقتصرت أعمال المنظمات في الأسابيع التي سبقت الحرب على أعمال عسكرية انطلقت من منحدرات جبل الشيخ وكانت مستعمرة كيريات شمونة غالباً هدفاً لصواريخهم ولم يكن لهذه الأعمال أهداف عسكرية، وكانت طلائع القوات الفدائية تقف حائرة أمام الحصار الذي أحكمه الإسرائيليون حول حدودهم من هذه الجهة ولم يكن الإسرائيليون ليخشوا العمليات العسكرية الفلسطينية.

فتح والجبهة الشعبية أضاعوا دورهم العسكري بعد عملية إبادتهم في الأردن ويحاولون الآن بكل الوسائل أن يحافظوا على رئاستهم للجماهير

الفلسطينية وهدفهم هو أن لا تنسى فلسطين في أي حل سلمي قادم وما على إنسان أي أن يتجرأ على حلول وسط مع إسرائيل. ويعرف عرفات تماماً أنه فيما إذا قبلت أية منظمة فلسطينية التعويض المالي فإن في ذلك قضاء على دعوته لإقامة دولة ديمقراطية علمانية في فلسطين للأديان الثلاثة. ويوجد في صفوف فتح أناس واقعيون من هؤلاء خالد الحسن الذي يبلغ من العمر ٤٥ عاماً وهو العقل المفكر الواقعي والعاقل، وله أصدقاء في العربية السعودية ويعود له الفضل في تدفق مساعدات السعودية العربية على الفتح.

في مقر الجامعة العربية وفي نفس القاعة التي سبق واجتمع فيها رؤساء الجيوش العربية ينعقد المؤتمر الفلسطيني، ٣٠٠ من قادة المنظمات الفدائية يلتقون وأغلبهم محاط بحرسه إذ كانوا يخشون انتقام المخابرات الإسرائيلية وكان بينهم قادة يفخرون بعمليات لهم مثل عملية ميونيخ Munchen وخطف الطائرات، وكل منهم يحاول بواسطة مظهره الخارجي المتواضع أن يثبت أنه ممثل الفلسطينيين إذ لا يوجد بينهم أحد يلبس الكرافات ولكنني شاهدت في الطائرة في طريقها إلى القاهرة القائد الفدائي أبو يوسف مرتدياً بدلة بيضاء أنيقة جداً وكرافات عصرية وظهر هو نفسه في اجتماع المؤتمر ببذلة قديمة وكنزة مهترئة وبدون كرافات وفي نفس الوقت يظهر فيه عرفات بذقن طويلة ويحتفظ في الاجتماعات بسترة الميدان ويخبئ عينيه الصغيرتين وراء نظارة شمس كبيرة وكان يستقبل ويحيا من الجميع بمظاهر المحبة. وفي الاجتماعات الأولى تظهر الخلافات، ممثلو الجبهة الشعبية يتهمون فتح بالبرجوازية ويرد عليهم أبو يوسف بأنهم عقائديون، حالمون، وقدمت جبهة

التحرير طلباً بأن يقترع على شكل الاجتماع المقبل للمؤتمر القومي، وتثار التهم على عرفات بأن تحالفه مع حسين كان مسؤولاً عن هزيمة الفلسطينيين وهزيمتهم في صيف عام ١٩٧٠ وقد تمكن حسين من الاحتيال عليه ويقولون له أنت يا أبو عمار خدعت بكل شيء. وكان السادات قد قدم نصيحة للمؤتمر الفلسطيني بأن يقوم بتأليف حكومة بالمنفى وطلب من المجتمعين أن يشكلوا هيئة سياسية تتحمل المسؤولية لكل ما يتعلق بالأمور القادمة للقضية الفلسطينية. وكان يرى السادات في الحكومة المنوي تأليفها بالمنفى كجهاز سياسي مسؤول سواء في التفاوض مع الحكومات العربية الأخرى أو في تنظيم التصرف بالتبرعات المالية وشريك في جميع المباحثات والمناقشات المقبلة كما كان السادات يرمي إلى أن تكون هناك جهة مسؤولة عن أعمال الفدائيين عامة وهذا ما من شأنه أن يحمل هذه الجبهة المسؤولية فكان من الممكن تحميلها مسؤولية احتلال السفارة السعودية في الخرطوم كما يمكن الطلب إليها أن تعدل عن القيام بأية أعمال من شأنها أن تضر بسمعة العرب والقضية الفلسطينية وكذلك ما من شأنه أن ينظم الفلسطينيين ويحولهم إلى أناس يتحملون المسؤولية ويشعرون بها وما كان عرفات ليرفض هذه الفكرة وليكون هو نفسه رئيساً لحكومة من هذا النوع لكنه يشك في الاقتراح المصري ويرى في ذلك خطر التدخل من قبل السادات في أمور الفلسطينيين كما خشي أن يتحول إلى لعبة في يد الحكومة المصرية، كما ترفض الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هذا الاقتراح دون مناقشة والبحث فيه ويقولون أنهم منظمة قتالية وحركة ثورية نحن نقاتل ولا نمثل. وخاب أمل السادات لقصر النظر السياسي

هذا وكان هناك بضعة من المندوبين يؤيدون هذه الفكرة ومنهم خالد الحسن الذي يعود له الفضل في إقامة نوع من تنظيم مالي يدير أمور التبرعات الليبية والسعودية وتبرعات دول إمارات الخليج وتوزيع الأموال والتفتيش على طريق صرفها وكان رأي خالد الحسن أن أموال التبرعات تنفق في طرق غير شرعية كما تضيع في مجالات متفرقة دون أن يكون في الإمكان الإشراف عليها وكان يرى أنه في حال اطلاع المتبرعين لكيفية إنفاق هذه الأموال وللأغراض التي وضعت من أجلها من شأنه أن يضاعف التبرعات بعد أن يعرفوا بجدواها ، وألقى خالد الحسن في هذا المؤتمر خطاباً حاول فيه أن يستقطب آراء المندوبين حول تفكيره السياسي فيما يتعلق بالمستقبل قال فيه "لقد تصلبنا بالقتال دون أن نكشف السلاح الدبلوماسي" ويتابع أن القتال مشرف ولكن التخطيط السياسي الحكيم ليس أقل فخراً وشرفاً علينا أن نقر بأن العالم أصبح واقعياً ويرغب بالسلام ويستهجن العنف والمشاكل تحل اليوم بالعالم بالمباحثات والمفاوضات وليس بالقوة، والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يهدفان إلى التعايش السلمي ليس في مشاكلهم فقط بل وبجميع ما يتعلق بالمناطق الخطرة في العالم، والحرب الشعبية التي نسلك سبيلها لا تتفق ومخططات الدول الكبرى. وقدم خالد الحسن مشروعاً للمؤتمر يتضمن أن الوقت مناسب للاستفادة من رغبة الدول الكبرى بالسلام والولايات المتحدة التي ترغب بالسلام لتأمين المصالح الإسرائيلية يمكن أن تقوم أيضاً بنفس الشيء بالنسبة للفلسطينيين فيما إذا حققوا لهم رغباتهم أو أنه بالإمكان أن يطلب من الولايات المتحدة مشروعاً كمشروع مارشال في أوربا بعد الحرب العالمية

الثانية، وإذا كان المندوبون على استعداد فمن الممكن مناقشة ذلك. ولم يقابل مشروع خالد الحسن بالإعجاب بل علق عرفات فيما بعد على هذا المشروع بقوله: يوجد في صفوفنا متخاذلون ومن لا يريد القتال فليس له مكان في صفوفنا وهدفنا هو القضاء على إسرائيل. ولم تحدث مناقشة حول هذا المشروع وسدت الطرق أمام المناقشة السياسية وبما أن القتال هو السبيل والإمكانية الوحيدة لحل مشكلة الفلسطينيين فإن تشكيل حكومة فلسطينية في المنفى ليس له أي معنى ولم يعد فيه أي مجال للمناقشة كما لم يعد انتخاب خالد الحسن في اللجنة التنفيذية لمنظمة فتح من جديد ولم يعد له دور هام فيها الذي كان يرى أن التصلب الفكري يتحكم بالمنظمات الفدائية وهو ما من شأنه عزل الحركة الفلسطينية كما يرى أن أهداف المنظمات الفلسطينية لا تتناسب مع أهداف الحكومات العربية ولا يجمع الطرفين هدف مشترك كما يرى خالد الحسن أن الحكومات العربية شعرت بواجبها أمام الرأي العام العالمي أن تعترف بالكيان الإسرائيلي وأنور السادات وحافظ الأسد بغض النظر عن الملك حسين قاما بالحرب ليحررا أراضيهم المحتلة بينما ما يهدف إليه الفلسطينيون هو القضاء على إسرائيل دون غيرهم وحين أعلن السادات في الإذاعة عن مخططه السلمي بعد الهدنة الثانية كنت بزيارة بسام أبو شريف أحد المسؤولين الرئيسيين في إحدى المنظمات الفلسطينية وهو من أحد معارفي القدماء وكان على وشك أن يأمر بقتلي ومرافقي المصور الصحفي يوم اختطاف الطائرات المختطفة يومذاك وقد غضب بسام أبو شريف على عنادنا إذ كنا نرغب بإجراء تحقيقات مع المسافرين المحتجزين وقال باللغة الإنكليزية ما معناه

"سوف أعطي الأمر للمحاربين بقتلكم حالاً I'Will order the fighter To shoot you immediately" ولكن لحسن حظنا أنه عدل عن عزمه هذا .

بسام كان خائب الأمل متألماً من سماع أنور السادات وهو يعلن عن رغبته في التفاهم مع إسرائيل والتباحث معها شخصياً وحتى ذلك الحين لم يكن يجرؤ أحد من السياسيين العرب أن يعرض على إسرائيل المفاوضات المباشرة. ويقول لي بسام أبو شريف ألا يخجل السادات من أن يتكلم مع أناس يحتلون بلادنا وأرضنا وكان حاقداً غاضباً وقال سوف نستمر في الكفاح ولو كنا وحدنا في العالم العربي كله وكان يتنبأ بمصاعب قادمة ستواجه الفدائيين وخاصة مع الحكومات العربية تماماً كما حدث في الأردن . ووجه بسام أبو شريف مشوه، حيث انفجرت بين يديه رزمة ديناميت وصلته بواسطة البريد قبل بضعة أشهر ويعتقد بسام أن هذا كان من عمل المخابرات الإسرائيلية أو الأردنية وبرأيه كلاهما سواء ، ويتنبأ بسام بمستقبل غير مبشر للمنظمات الفدائية الفلسطينية فباعتقاده أنه إذا استعاد المصريون والسوريون أراضيهم المحتلة فلابد أن يكون ذلك مشروطاً بضمان حدودهم وهذا الضمان لا يكون إلا إذا أبعد كل خطر عن الحدود وأنور السادات كان دائماً يقدم الضمانات لسلام الحدود الإسرائيلية وما عليه إلا أن يقطع جميع العلاقات مع منظمة فتح والجبهة الشعبية، ويستغرب بسام بدهشة بالغة قول السادات "لا أفهم نرفزة المنظمات الفلسطينية فيما إذا استعدنا الأراضي المحتلة في حرب حزيران فبذلك نوفر عليهم هذا العبء . وما نستطيع أن نستعيده نحن يوفر عليهم مهمة تحريره بالكفاح" . وبسام يأمل أن المحادثات السلمية بين الأطراف المعنية أن لا تحدث. وسألته إذا قامت

المحادثات هل ستشتركون بها فأجاب مطلقاً وليس بأي حال من الأحوال. وطبعاً بسام أبو شريف يعبر بذلك عن رأي الجبهة الشعبية وحدها.

وفي الأيام التي تلت الهدنة ووقف إطلاق النار كانت الآراء متفرقة جداً في صفوف الفلسطينيين ولأول مرة أصبح يتهم عرفات بأنه متخاذل والسبب في ذلك أنه بدأ يفكر فيما إذا كان من المصلحة الاشتراك في مؤتمر سلمي وكان قد لاقى ضغطاً من الاتحاد السوفيتي إذ تلقى رسالة من بريجينيف نصحه فيها وألح عليه أن يشترك شخصياً بهذه المحادثات وما كان له أن يتجاهل طلب بريجينيف هذا لحاجته للأسلحة الروسية، وتأييد الاتحاد السوفيتي في الفترة الأخيرة لياسر عرفات أعطاه وزناً كبيراً ودخل في عداد أصدقاء الاتحاد السوفيتي ودول أوربا الشرقية. أما جورج حبش رئيس الجبهة الشعبية فإنه يرى في تفكير عرفات تفكيراً بورجوازياً وحجته في ذلك أنه لا يمكن للثوري أن يغير مبادئه لأن طرفاً غريباً يريد ذلك وحبش يرى في الاتحاد السوفيتي دولة بورجوازية عتيقة وليس لأي ثوري أن يسمع النصائح من هذه الدولة ولهذا يدعو عرفات في بيروت إلى مؤتمر للبحث في الخلافات بين صفوف الفلسطينيين.

والرئيس المصري أنور السادات يرسل برسالة مطولة تشير بأدب ووضوح إلى أن منجزات منظمات الثورة الفلسطينية لا تبرر تعنتهم وعنادهم وسمع أكثر من مرة من ياسر عرفات تهماً مفادها أن المنظمات لم تنجح في بداية الحرب وخلالها بدفع المواطنين العرب في المناطق المحتلة للعصيان المدني إذ بقيت المدن والقرى في الضفة الغربية وقطاع غزة هادئة وهكذا لم تنجح هذه المنظمات بأهم واجب عليها والعصيان المدني والثورة الأهلية كان من

الممكن أن يؤديا إلى إجبار الإسرائيليين على القيام بتحشدات عسكرية في مدن الضفة الغربية مما كان من شأنه أن يخفف الضغط على الجبهتين المصرية والسورية. ويستعمل السادات تعابير ملتوية ليوضح لعرفات أن الوقت قد حان ليتنازل عن القيادات العسكرية لفتح. وبرأي السادات أنه على الثورة الفلسطينية أن تعتمد في كفاحها حرب العصابات على الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة، والجماهير الفلسطينية في الأراضي المحتلة من شأنها أن تهيئ للمقاتلين أماكن إقامة ومجالات للكفاح.

والسادات يعرف عنه أنه يجيد السخرية الأدبية، وبعد أسبوع من المناقشات والتفاوض تعلن فتح وجهة نظرها ولكن كثيرين من المندوبين كانوا غير راضين عن التعابير غير الواضحة في نص البيان التالي:

١ ـ الثورة الفلسطينية لها هدف تحرير أرض الآباء والأجداد وإقامة دولة ديمقراطية على التراب الفلسطيني الموحد ولهذا الغرض سوف يحارب شعبنا وسوف يستمر الكفاح دون أن يخشى التضحيات.

٢ ـ الظروف الصعبة تجبرنا أن نتشاور مع أخوتنا في الأراضي المحتلة وفي الدول العربية للتوصل لقرارات سوف نضعها أمام المسؤولية التاريخية، وهذه القرارات عليها أن تتفق مع الظروف الحرجة التي يمر بها شعبنا.

٣ ـ الدول العربية وصلت في معركتها مع إسرائيل إلى بعض الأهداف الإيجابية لكن أموراً كثيرة لم تتقرر في هذا الكفاح وعلينا أن نكون جاهزين للمستقبل.

وشرح وجهات النظر هذه لفتح لم يعتبرها السادات كافية ويشكو من أن أهم من تعنيهم المشكلة الفلسطينية لم يتوصلوا إلا إلى بيان مموه وغير واضح

ويتأثر للتعبير "في هذه الحرب حققت بعض نتائج إيجابية" ويرفض هذا التحليل من قبل المنظمات الفلسطينية، ويسلك طريقه الخاص به. وكان بسام أبو شريف على حق في تخوفه وهو على يقين من أن السادات لن يقوم بمساعدة الفلسطينيين فيما إذا قام الجيش اللبناني بالهجوم على قياداتهم وقواعدهم العسكرية في لبنان، ونتيجة وقف إطلاق النار برهنت لي على صحة توقع المنظمات الفلسطينية للصدام مع الجيش اللبناني إذ كنت في فترات منتظمة أتقدم بطلب لرؤساء المنظمات الفلسطينية أرجوهم أن يسمحوا لي ولمرافقي المصور الصحفي بزيارة مقابرهم، وفي ضواحي بيروت في حي صبرا وتحت أشجار الصنوبر تقوم مقبرة الفلسطينيين حيث يقبرون فيها شهداءهم الذين يسقطون سواء في الاصطدامات مع الجيش الإسرائيلي أو مع الجيش اللبناني وضخامة المقبرة يعطي صورة عن هذه الاصطدامات وقسوتها، والمقبرة الكبيرة والتي لم تستعمل بعد لا يريها زعماء فتح برغبة للزائرين ويقولون إننا متهيئون لجميع الاحتمالات لكن المقابر الإفرادية تكفي لدفن الضحايا حالياً.

وبعد وقف إطلاق النار منحتني الجبهة الشعبية ولمرافقي إذناً خطياً لزيارة المقبرة، تركنا سيارتنا في مدخل حي صبرا حيث تبدأ أشجار الصنوبر لأن الطريق لمقبرة الفلسطينيين صعب ومتعرج وكنا نبحث عن المقبرة كل مرة بصعوبة، وفاجأنا أحد الفدائيين شاهراً مسدسه الرشاش كلاشينكوف وما لبث أن خفض سلاحه بعد أن رأى الإذن الخطي الذي نحمله وبعد قليل تقف إلى جانبنا سيارة بيجو قديمة نزل منها ثلاثة فلسطينيين مسلحين وسألونا عن الغرض من وجودنا بحي صبرا، فأريناهم من جديد الإذن الخطي وسمح لنا

حارس المقبرة وهو رجل متقدم بالسن يرتدي ثياب الفدائيين بدخول المقبرة ورأينا ثلاثة قبور جديدة مما يدل على أن ضحايا المنظمات الفلسطينية في الحرب كانت ضئيلة جداً وما كنا نصل إلى قبور جديدة حتى تتصدى لنا سيارة مرسيدس بين الأشجار ووجه من داخلها كلاشينكوف نحونا وخرج منها اثنان ليطلبا منا بلهجة حادة أن نأتي معهم ولم يتعرفا على الإذن الخطي الذي نحمله من الجبهة الشعبية قائلين إن إذناً من اللجنة المركزية وحده يعطي لمهمتنا الصفة الشرعية وكانوا واثقين بأنهم قد وقعوا على جواسيس إسرائيليين وأخذونا معهم إلى المقر العسكري في حي صبرا، مررنا على استحكامات من أكياس الرمل وأسلاك شائكة وخنادق وغالبية سكان هذا الحي فلسطينيون وهو يشكل حصناً منيعاً وكأنهم يتوقعون في كل لحظة وقوع هجوم، في حي صبرا تقع أغلب القيادات العسكرية للتنظيمات الفلسطينية وفي تحصينات من البيتون المسلح يتهيأ زعماء الفتح والجبهة والشعبية للدفاع عن آخر حصن في أيديهم بعدما فقد الفلسطينيون سيادتهم في الأردن. (وفي سوريا يخضعون إلى توجيهات الجيش السوري النظامي وأحياناً تعاونه معهم وفي مصر لم يكن لهم في أي وقت مرتكز ما) وفي لبنان فقط لازالوا يتمتعون بسيادة مطلقة في مراكزهم ومن حي صبرا ببيروت ينطلق الفدائيون للعمل في فلسطين.

وفي الأراضي المحتلة وكانت إسرائيل دائماً تحمل لبنان مسؤولية هذه الأعمال وتهدد باحتلال جزء من جنوب لبنان فيما إذا لم يقم الجيش اللبناني بالسيطرة وحفظ الأمن والنظام في المخيمات الفلسطينية، والجيش اللبناني الذي يبلغ تعداده ١٥ ألف جندي ما عليه إلا أن يتسلط على الفلسطينيين

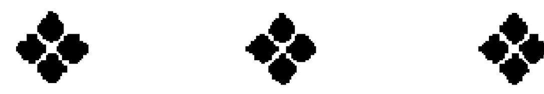
وقيادتهم العسكرية فيما إذا كان يريد عدم احتلال إسرائيل لأراضٍ لبنانية، وفيما إذا تحقق للمباحثات السلمية نجاح فلابد من أن يبدأ كفاح المنظمات الفلسطينية للحفاظ على وجودها.

وتأمر القيادة العسكرية العليا بإطلاق سراحنا وتحملنا السيارة المرسيدس إلى المكان الذي تركنا فيه سيارتنا وكانت المناقشة قصيرة في هذا الحي. كل شيء كان كمنطقة عسكرية لذلك لم يسمح لنا بالتصوير في هذه المنطقة لأن هناك خطراً من أن تقع الأفلام في يد العدو.

ويرى المسؤولون العسكريون العدو في شخص اللواء غانم، وزياراتنا غير المقصودة للقيادة العسكرية العليا أعطتنا الفرصة لنتفحص الرجال الذين وضعوا هدفهم في القضاء على إسرائيل ولم يبق منهم إلا المتعصبون جداً ممن وضعوا أهدافهم أمام جميع الاعتبارات العالمية، أما المقاتلون في الفكر فلم يعد لهم وجود فإما قتلوا أو غادروا الصفوف، وبالرغم من الكارثة التي وقعت في الأردن لا يزال في صفوف فتح عدد كبير من الشباب المثقف ممن درس في ألمانيا الهندسة الميكانيكية والكهربائية وكانوا على خبرة جيدة باستعمال السلاح ولابد أن يستخدموا خبراتهم في الدفاع عن آخر قلاع الفلسطينيين في لبنان.

وعرفات يرى في هذه الأيام بكل وضوح أن المنظمات الفدائية هي التي خسرت الحرب ويعرف تماماً الصعوبات التي تنتظرها، واتصالاته مع القادة العرب بعد وقف إطلاق النار ليست مشجعة فقد قام بزيارة الملك فيصل ليشكره على التأييد السياسي الذي قدمه للملك السعودي للقضية الفلسطينية وكان فيصل قد أوضح لوزير الخارجية الأميركية وبكل صراحة أنه ينتظر إقامة

دولة فلسطينية عربية، وعرفات الذي يتمنى لشعبه قيام الدولة الفلسطينية العربية رأى من واجبه أن يسافر هو للرياض ليشكر الملك فيصل لكن استقباله كان بارداً ولما تقدم برجائه بطلب مساعدة مالية إضافية قائلاً الملك "جلالتكم قدمتم مساعدات للجميع ونحن الفلسطينيين فقط لم تقدموا لنا شيئاً فأجابه الملك: إن سبب ذلك هو أنكم لم تقوموا بالشيء الذي توقعناكم أن تقوموا به في الحرب. ويدافع عرفات عن المنظمة الفلسطينية ويقول كان مخططنا أن نقوم بخمسين عملية عسكرية وقد نفذنا هذه العمليات بكل نجاح وإضافة على ذلك قمنا بمئة وخمسين عملية لم يكن مخططاً لنا القيام بها ولكن الملك لم يشأ أن يصدق شيئاً مما يقدمه عرفات.



حصار مضيق باب المندب

في ٢٤ تشرين الأول وبيوم واحد بعد وقف إطلاق النار ترسل سفينة النقل الأميركية لازال Lassalle إشارة لاسلكية تفيد أن زورقاً ساحلياً مجهول الجنسية أطلق قذائفاً أمام الباخرة كإنذار، وكانت السفينة في طريقها إلى ميناء جيبوتي Dschibuti في منطقة مضيق باب المندب والواقع تحت الإدارة الفرنسية وطلب الزورق إلى القبطان ألا يدخل البحر الأحمر واتجهت الباخرة سليمة نحو الجنوب لتصل الميناء المذكور. وعلم العالم لأول مرة بأن العرب قد فرضوا الحصار على مضيق باب المندب ولم يكن لأية سفينة أن تمر إلى ميناء إيلات منذ بدء الحرب ولجأ الإسرائيليون إلى الصمت لأن القطع البحرية الإسرائيلية في البحر الأحمر ضعيفة وليست بقوة تؤهلها لأن تدخل في معارك مع البحرية العربية في البحر الأحمر.

وتملك البحرية الإسرائيلية ٣٠ سفينة حربية لكن أغلب هذه القطع البحرية الحربية توجد في البحر الأبيض المتوسط لحراسة الساحل الإسرائيلي هناك، واعتقد دافيد العازار أن تمركزهم في شرم الشيخ كافٍ لحماية شواطئهم في البحر الأحمر وأوكل إلى سلاح الجو الإسرائيلي حماية الطريق البحري لإسرائيل في البحر الأحمر ومدى طائرات الفانتوم التي تنطلق من شرم الشيخ كان يؤهلها لأداء هذه المهمة.

لكن في حزيران ١٩٧١ عرفت القيادة العسكرية العليا الإسرائيلية أن ذراع إسرائيل الطويل ليس في وضع يؤهله لأن يكون دائماً سيد الموقف، يومذاك قامت فئة فدائية تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بإطلاق صواريخ على ناقلة البترول كورال سي Coral sea التي كانت في طريقها إلى إيلات وقد حصل الهجوم بالقرب من جزيرة بيريم Perim على بعد حوالي ٢٠٠٠ كم من شرم الشيخ ولا تقع هذه المنطقة ضمن نطاق عمليات طائرات الفانتوم ولم تحقق هذه العملية للفدائيين أي نجاح في هجومها على الناقلة لكنها برهنت على إمكانية ضرب الأسطول التجاري الإسرائيلي، ولم تعد القيادة العسكرية الإسرائيلية لتعتقد بجدوى حماية سلاح الجو للطرق البحرية في البحر الحمر ويبلغ الطريق في هذا البحر من مضيق باب المندب إلى إيلات حوالي ٢٢٠٠ كم ماراً بالشواطئ العربية لجنوب اليمن واليمن والسودان ومصر والسعودية وتملك هذه الدول الخمسة في البحر الأحمر حوالي ٣٠ قطعة حربية بحرية وللهجمات ضد الناقلات تكفي زوارق حربية صغيرة مسلحة بالصواريخ وتشكل الناقلات هدفاً سائغاً للهجمات لأنها غير مسلحة وتبحر دون حراسة والموانئ العربية الكثيرة في البحر الأحمر تهيئ الفرصة للزوارق للاختباء السريع، وبمعدات بسيطة يمكن شل تموين إسرائيل بالبترول وتمويل إسرائيل بالبترول يتم عن طريق البحر الأحمر ويمر أمام الشواطئ التي يسيطر عليها العرب والحصار يشل تموين إسرائيل بالطاقة بشكل حساس جداً بحيث لا يبقى لإسرائيل سوى البترول الذي تستخرجه من شبه جزيرة سيناء والذي يبلغ كميته خمسة ملايين طن وهذه الكمية لا تكفي لسد حاجة إسرائيل إلا أنه يساعدها في حالة الحصار على مضيق باب المندب ويجنبها الشلل الكلي في

الطاقة، وميناء إيلات شريان تموين الطاقة لإسرائيل قد شل. والشرطة العسكرية تضرب نطاقاً حول الميناء والذي لم تكن تسمع فيه سوى صوت الأمواج التي كانت تنبعث من الميناء والأرصفة مقفرة والناقلات التي كانت تنقل البترول من سيناء إلى ميناء إيلات ترسو خارج الميناء، وقبل الحرب كانت ترسو في هذا الميناء حوالي ٩٠ باخرة وناقلة، ويصل هذا الميناء ما يعادل ربع مستوردات إسرائيل إذ كانت تنقل إليه البواخر حوالي ثلاثة ملايين طن من البضائع ولكن منذ اندلاع الحرب لم تفرغ فيه أية سفينة حمولتها وهذا ما كان مؤلماً جداً لإسرائيل، والشركات البحرية لا تجرؤ أن ترسل سفنها لعبور مضيق باب المندب وهذا الحصار كان له أثره حتى في أوربا حيث يضخ عشرون مليون طن بترول تنقل بناقلات البترول إلى ميناء إيلات وتضخ منه بواسطة أنابيب البترول إلى البحر الأبيض المتوسط حيث تنقل من جديد بناقلات البترول باتجاه إيطاليا. وينقص الآن في التموين الأوروبي ٢٠ مليون طن.

ويبلغ عرض الممر المائي عند مضيق باب المندب ٤٠ كيلو متراً وتكفي عشرة ألغام في المنطقة لتخيف قبطان أية سفينة من المغامرة بالمرور بالمضيق وقد يكفي التحذير بأن المضيق قد وضعت فيه ألغام ليشل المرور فيه دون أن يكون ملغوماً فعلاً، واستطاع المصريون في الحرب الرابعة بخدعة وبحد أدنى من الاستعداد العسكري أن يشلوا التموين البترولي الإسرائيلي حيث قامت مدمرتان مصريتان بمراقبة مداخل البحر الأحمر وكان رجال البحرية المصرية يصعدون إلى ناقلات البترول ويفحصون الشحنات ويتأكدون من هدف الناقلة والميناء المتوجهة إليه، وعلمت شركة التأمين الإنكليزية لويد Liayds في

لندن من البواخر التي أرغمت على العودة ولم يسمح لها بعبور مضيق المندب حيث منع المصريون مرور سفن تحمل العلم الإسرائيلي وسفن تابعة لشركات بحرية إسرائيلية وسفن أخرى تتجه إلى ميناء إيلات، ومن الخوف فقد بقيت في ميناء إيلات ١٣ سفينة تجارية دون أن تغادر الميناء منتظرة فك الحصار، ومنذ هجوم الفدائيين على الناقلة "كورال سي" اتفقت الحكومة الإسرائيلية مع إثيوبيا على إقامة نقطة تفتيش إسرائيلية في جزيرة هالب Haleb تبعد حوالي ١٠٠ كم شمالاً من باب المندب لكن الإمبراطور هيلا سيلاسي قطع في ٢٣ تشرين الأول علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل ولم يعد أمام الحامية الإسرائيلية إلاّ العودة إلى بلدها مارة بالشواطئ العربية.

وحكومة اليمن الجنوبية الشعبية ساعدت المصريين حيث طالبت في ٢٦ تشرين الأول بالسيادة المطلقة على المضيق ورفضت كل سيادة دولية على هذه المنطقة وعدن كانت تقرر أية سفن يجوز لها عبور هذا المضيق وأية سفن لا يجوز لها العبور، وحكومة جنوب اليمن هي من ألد أعداء إسرائيل، ونجاح الحصار في مضيق باب المندب يغري جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية بإثارة إسرائيل وأن رفع الحصار لابد أن يكلف إسرائيل ثمناً غالياً جداً، ووضع جنوب اليمن يؤهلها لتقوم بخدمات كبرى للقضية العربية.

وأنور السادات لا يقبل بفك الحصار إذا لم تعد القوات الإسرائيلية لخط وقف إطلاق النار في ٢٢ تشرين الأول في الساعة ١٦،٥٠ حسب التوقيت المحلي وإذا رفض الإسرائيليون فسوف يستمر الحصار، ووزير المواصلات بيريز يعلن في تل أبيب أنه سيرسل قطعات عسكرية تقوم بفك الحصار عن مضيق باب

المندب لكن غولداامائير تعارض وتعتقد فعلاً أن المضيق ملغوم وضياع باخرة واحدة برأيها من شأنه أن يعقد الأمور أكثر ويفترض حين ذلك بأنه على إسرائيل أن تقوم برد فعل أكبر وتعطي الأوامر للقطع البحرية التي كلفت بفك الحصار بالتوقف إلى إيلات وعدم مغادرتها، ويسجل المصريون نصراً جديداً ويخبرون رئيس القوات التابعة للأمم المتحدة بأن الحصار لا يزال قائماً، إسرائيل تسكت ودايان لا يرى وسيلة تؤمن للقطع البحرية التجارية عبور مضيق باب المندب مما يكّون في يد المصريين ورقة رابحة في المحادثات المقبلة.



خطة هنري كيسينغر

استقبال السادات القلبي لكيسينغر لم يكن مصطنعاً حيث كان الاستقبال وأخذ يصافحه ويطيل في المصافحة وكانه يبحث عن علاقة وطيدة بعد أن نسي المصريون غضبهم لأن كيسينغر كان قد أضاع الوقت في بدء زيارته للشرق الأوسط بزيارته لكل من الحسن الثاني والرئيس التونسي بورقيبة في الوقت الذي لم يكن يتوقع فيه لا من الملك الحسن ولا من الرئيس بورقيبة أية مساهمة في حل مشكلة الشرق الأوسط وهاهو الآن كيسينغر الرجل العجيب وحامل جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٧٣ قد وصل إلى القاهرة، هذا الرجل الدبلوماسي الذي استطاع أن ينهي حرب الفيتنام.

قال كيسينغر في القاهرة للمصريين باستطاعة روسيا أن تبيعكم السلاح لكن الولايات المتحدة هي وحدها التي باستطاعتها أن تجلب لكم السلام. واحتفت القاهرة بالأميركي كرسول للسلام مما جعل الحلفاء في دمشق يستغربون بدهشة، وكان الرئيس السوري يتابع بالتلفزيون مشهد الاستقبال القلبي والحفاوة البالغة بكيسينغر في القاهرة ويتعجب لذلك جداً وقال منذ قليل كانت القنابل الأميركية تقتلنا والآن يأتي المسؤول الذي زود إسرائيل بالذخيرة وأسلحة الدمار إلى القاهرة، لكن أنور السادات يتابع دون تردد

وبكل تصميم الطريق الذي كان يراه منذ أشهر أنه الصحيح وفي رأيه أن الأميركان وحدهم لديهم مفتاح السلام وحل مشكلة الشرق الأوسط وإذا استطعنا أن نجعل الأميركان يتفهمون موقفنا فلابد وأن يتحسن موقفنا .

وفي يوم وصول كيسينغر للقاهرة كان كبار الضباط يلحون على الرئيس السادات بأن يسمح لهم بالهجوم من جديد وان وقف إطلاق النار قد جاء في وقت غير مناسب، وكان سعد الدين الشاذلي رئيس الأركان يرمي إلى طرد الإسرائيليين من الضفة الغربية للقناة وفك الحصار عن الجيش الثالث وكان مؤمناً أن باستطاعته ذلك وقد تأثر جداً من العبور الإسرائيلي الكبير ونتائجه على الضفة الغربية وما كان الرئيس المصري ليستطيع أن يسكت الضباط إلا بتهديدهم بإقامة محاكمات للتفتيش عن المسؤولين الذين أدى تقصيرهم لعبور الإسرائيليين وفي هذه الأثناء كانت تروج شائعات وأحاديث عن كيفية تمكن الإسرائيليين من الحصول على رأس جسر لهم على الضفة الغربية، ووصلت هذه الشائعات والروايات إلى أسماع المسؤولين في القيادة العسكرية العامة وقد غضب الشاذلي كثيراً لهذه الرواية التي تقول : إن اكتشاف الإسرائيليين على الضفة الغربية للقناة يعود الفضل فيه إلى فلاح شاهد دبابات في حقل قصب السكر الذي يملكه واعتقاداً منه أن الدبابات مصرية وخوفاً من إلحاق الضرر بحلقه طلب من الجنود مغادرة الحقل، وأثار انتباهه اللهجة العربية غير المصرية التي أجابه بها الجنود مما جعله يشك بهم وسارع إلى أقرب مركز عسكري مصري وأخبرهم عن اعتقاده بوجود إسرائيليين على الضفة الغربية للقناة . تدريجياً وببطء وصلت هذه الرواية إلى القيادة العسكرية ولا يستغرب أبداً أن فيها شيئاً كبيراً من الحقيقة .

واستطاع الإسرائيليون أن يحتلوا مساحة تبلغ ١٥٠٠ كيلو متر مربع، وسمى موشي دايان مسؤولاً عسكرياً لهذه المنطقة هو الجنرال أبراهام أورلي Abraham Orli، ووقع الطريق المؤدي إلى السويس إلى الغرب حتى الكيلو متر ١٠١ قبل القاهرة بيد الإسرائيليين واستطاع الشاذلي في اللحظات الأخيرة أن يتجنب وقوع الكارثة بتفكك الجيش الثالث وذلك بعد وقف إطلاق النار ببضع ساعات فقد تم تنظيم الاتصال العسكري مع الجيش المحاصر وعينت له قيادة جديدة وبهذا استطاع الشاذلي أن ينقذ نفسه مبدئياً من التسريح أو الإبعاد من الجيش.

وكان أنور السادات يوقن أن باستطاعته أن يجلب الولايات المتحدة الأميركية إلى جانبه والحفاوة القلبية البالغة التي أحاط بها المسؤولون المصريون الوزير الأميركي تعود إلى الليونة التي لمسوها في صفوف الإسرائيليين، وفي ٢٧ تشرين الأول ولأول مرة منذ عام ١٩٤٩ يجتمع عند الكيلو متر ١٠١ على الطريق بين السويس والقاهرة ضباط مصريون وإسرائيليون ودون وساطة ليتباحثوا في اتفاق يكفل تموين القوات المصرية المحاصرة وكانت النتيجة مرور ١٢٥ سيارة شحن محملة بالمواد الغذائية والماء والأدوية في الخطوط الإسرائيلية في طريقها إلى الجيش الثالث المحاصر ولم يكن ذلك ليحصل لولا ضغط الولايات المتحدة الأميركية على إسرائيل.

وسلك كيسينغر في ذلك نفس الطريقة التي استعملها في المحادثات الفيتنامية التي جربها لأول مرة في المعترك السياسي وتعتمد هذه الطريقة على أن ينجح في إقناع أحد الأطراف المتنازعة والأقوى عادة بالتساهل بالنسبة لنقاط جزئية معينة وهكذا كان يجد دائماً حلولاً جزئية للمشاكل دون أن يلجأ مباشرة

لحل المشكلة بصورة جذرية ومن أساسها . وقد بين كيسينغر للرئيس السادات عن وجهة نظره أولاً ليجعل الإسرائيليين يتساهلون في بعض الأمور وثانياً كيف يتصور الحلول المقبلة للقضية وخاصة مشكلة الشعب الفلسطيني وينتقل كيسينغر للتحدث بصورة رئيسية عن المشاكل الهامشية مثلاً عن مشكلة تموين الجيش المصري الثالث على الضفة الشرقية، عن هدنة ثابتة، واستطاع أن يقنع الرئيس المصري بأنه لابد له وأن يقنع إسرائيل بالانسحاب من الأراضي المحتلة ولو لم يكن ذلك سريعاً وقد يأخذ هذا على الأغلب مدة سنة، والسادات يسر لذلك ويقابله بكل رضاء وقبل السادات بتدوين شروط الهدنة خطياً ولم يظهر هناك خلاف في وجهات النظر حول التفاصيل بين الأمريكان والمصريين. وقد كان تطبيق وقف إطلاق النار تاماً وقام الضباط المصريون والإسرائيليون بمباحثات لوضع أسس للعودة لخط الهدنة في ٢٢ تشرين الأول مما أتاح إمكانية تموين مدينة السويس والجيش الثالث وقامت الولايات المتحدة بتحمل مسؤولية التفتيش بين الجبهتين على الطريق بين القاهرة والسويس، ولم ير كيسينغر مبدئياً أي توافق في وجهات نظر الطرفين المتنازعين حول موضوع تبادل الأسرى لكن كان لابد له من أن يصر على إيجاد حل لهذه المشكلة ويرى أنه إذا استطاع أن يحقق لغولدامائير الإفراج السريع عن الأسرى الإسرائيليين فإن ذلك سيؤمن له أن يحصل على تنازلات أخرى من غولدامائير وهذا ما جعل السادات يتساهل في موضوع تبادل الأسرى بعد أن وعده كيسينغر بأن يقوم بالسرعة الممكنة بالتمهيد لعقد مؤتمر التحضير للسلام. وكان السادات يعقد أملاً كبيراً على المؤتمر ويعتقد أنه بقيام هذا المؤتمر ستوضع نهاية للنزاع.

وقدم كيسينغر للمصريين حلولاً متعددة لم تكن تمس قضية الشرق الأوسط بصورة جذرية بل كان من شأنها أن تبعد الأخطار المباشرة لقيام حرب من جديد في منطقة قناة السويس وبنفس هذه الحلول غادر مساعده جوزيف سيسكو القاهرة إلى تل أبيب حيث كان في استقباله بمطار اللد غولدامائير والتقى باجتماع في منزلها الخاص كان يضم أيضاً إيجال آلون وموشي دايان والجنرال باريف وكان على سيسكو أن يقوم بمهمة صعبة وهي أن يحصل من مائير على وعد بالسماح بتموين الجيش الثالث المحاصر مقابل إطلاق سراح الأسرى الإسرائيليين في مصر ولم يكن أمامها من خيار آخر سوى الموافقة على ذلك.

واتفق كيسينغر والسادات بعد محادثاتهما الودية في القاهرة على إقامة علاقات دبلوماسية بين البلدين من جديد والتي كانت قد قطعت بعد حرب حزيران ١٩٦٧، وينسى بنهاية الحرب الرابعة أن العرب كانوا يشتمون الولايات المتحدة الأميركية طيلة ست سنوات ويعتبرونها العدو الأول للعرب، ووجد الطرفان حلاً مؤقتاً وهو أن يبقى لكل من البلدين ممثلون دائمون للطرف الآخر برتبة سفير ويتمتع بجميع الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها السفراء عادة، وأن لا تعود إسبانيا هي حلقة الوصل بين الطرفين وان يقتصر دورها على المظهر الخارجي للعلاقات مؤقتاً لعدم إثارة الرأي العام.

وكان كيسينغر رغم كل ذلك يجد وقتاً كافياً لزيارة الأهرامات ويسمح للمصورين الصحفيين أن يلتقطوا له الصور أمام هرم خوفو وكان يمازحهم ويقول: آمل أن تشرحوا لقرائكم من منا هو خوفو.



الأمم المتحدة تجرب طريق السلم

قبل قيام الحرب بخمسة أسابيع، في ٢ أيلول ١٩٧٣ ينهي كورت فالدهايم Kurt Waldheim الأمين العام للأمم المتحدة زيارته للقاهرة وقد قابلته بالطابق الأعلى لفندق شيراتون وقال لي : إني هنا لأقوم بجمع المعلومات ولا يسعني أن أفعل أكثر من ذلك ولابد أن تحل مشاكل الشرق الأوسط سلمياً ولكن لا أعرف كيف. وأنهى فالدهايم تصريحه هذا بابتسامة تحمل كل الارتباط لأنه لا يتصور أي حل سلمي بإمكانه إنهاء النزاع في الشرق الأوسط. وتبدو على الطرف الأيسر من وجه الأمين العام أوردة زرقاء لهذا لا يرغب في تصويره من قبل الصحفيين وفي المؤتمرات إلا من طرف وجهه الأيمن وتجادل مع مندوبه الصحفي كيف سمح للمصورين أن يضعوا آلات التصوير على يساره، وكان كورت فالدهايم قد بدأ زيارته إلى الشرق الأوسط بمشكلة دبلوماسية لعدم لباقته وذلك عندما صرح في حفل عشاء أقامه له آبا إيبان في القدس بقوله : يسرني جداً أن أكون هنا في عاصمة بلادكم. ولم ينتبه إلى أن العرب لن يتنازلوا عن حقهم في القدس وأن تل أبيب هي وحدها في نظر دول العالم وهيئة الأمم نفسها عاصمة إسرائيل، وقد أثارت هذه الكلمة غضب المصريين وقاموا في فضح ذلك ورأوا فيها وعداً من الأمين العام للإسرائيليين وأنه لا

يعترف بحق العرب باسترجاع القدس وهذا ما كان له أثره البالغ على زيارته للقاهرة إذ لا شك أن كلمته تلك كانت غير لبقة وحتماً أنه لم يفكر بذلك قبل الإدلاء بها. ولم يرَ السادات في شخصية فالدهايم الوسيط المؤهل للقيام بالوساطة بين الطرفين المتنازعين وكان استقبال السادات للأمين العام استقبالاً عادياً جداً ولكن المحادثات كانت بلا نتيجة، ولم يخفِ الرئيس المصري رأيه في كل دقيقة قضاها مع كورت فالدهايم كانت وقتاً ضائعاً.

في ٢٥ تشرين الأول كلف فالدهايم بتشكيل قوة دولية وإرسالها للشرق الأوسط، وكانت الحكومة المصرية مرتاحة لأن قوات من الأمم المتحدة ستتحمل مسؤولية الحفاظ على الهدنة في منطقة القناة وكان مندوب الصين الشعبية في مجلس الأمن قد وافق على هذا القرار فقط لأن العرب يرغبون مجيئ القوات الدولية وما كانت الصين الشعبية لتفهم رغبة الرئيس المصري هذه وحذرته من أن هذه القوات ليست إلا جزءاً من فخ استعماري. وتصرف كورت فالدهايم بسرعة وأرسل قوات نمساوية وفنلندية وسويدية من قبرص إلى مصر حيث وصل في اليوم التالي ٦٠٠ رجل منهم للقاهرة. وكان الأمين العام يهيئ خطة لتشكيل قوة مؤلفة من ٧٠٠٠ رجل وتبلغ المصاريف الدائمة لهذه القوة للأشهر الستة القادمة ٣٠ مليون دولار، وحسب المادة ١٧ من ميثاق هيئة الأمم المتحدة يترتب على جميع الأعضاء أن يقوموا بتحمل هذه المصاريف.

وسرعان ما بدأ الخلاف في الرأي حول تشكيل هذه القوات، وكان هناك ثلاثون دولة يمكن أن تشكل منها قوات لهذه المهمة، ولم تكن الدول الكبيرة على استعداد لإرسال جنودها وحسب قرار مجلس الأمن لم يكن يسمح للدول

الأعضاء أن ترسل جنودها ضمن هذه القوات إلى منطقة النزاع كما أن الأمين العام وجد أنه من اللباقة إحضار جنود من دول تقيم في الوقت نفسه علاقات دبلوماسية مع كل من القاهرة وتل أبيب وهذا معناه استبعاد أغلب الدول الإفريقية من تشكيل هذه القوات وأصرت روسيا على إرسال جنود من بولونيا ولكن بولونيا لا تقيم علاقات دبلوماسية مع تل أبيب وأعلنت رومانيا - وهي عضو في حلف وارسو - عن استعدادها لإرسال جنودها ولها سفير في إسرائيل ولكن الروس لم يكونوا راضين عن ذلك واستطاعت موسكو أن تصر على اشتراك بولونيا في تشكيل هذه القوات، وكان هناك جنود من دول غانا وأندونيسيا ونيبال وبيرو حيث اشتركت كل من هذه الدول بتقديم ٨٠٠ جندي ولكن رغم كل ذلك كان جنود النمسا وكندا والسويد يشكلون غالبية القوات الدولية.

وقوة الأمم المتحدة مزودة ببنادق سريعة الطلقات لها صفة دفاعية إلا أن المفهوم الدفاعي يختلف في تفسيره. ويترأس هذه القوات الجنرال الفنلندي انسيو سيلاسفيو Snsio Sulasvuo وتتلقى الأوامر منه فقط. وفي يوم الأحد ١١ تشرين الثاني أقامت قوات الأمم المتحدة عند الكيلو متر ١٠١ على الطريق القاهرة - السويس مركزاً كبيراً تقوم في وسطه خيمة خضراء اللون يخفق عليها علم الأمم المتحدة وفي طرف هذا المركز باتجاه القاهرة خيمة المصريين ذات لون أصفر وعلى الطرف الآخر خيمة الإسرائيليين وكان رفع العلم الإسرائيلي بنجمة داود على هذه الخيمة وعلى الأرض المصرية لا يطاق من قبل المصريين وكل من هذه الخيم كانت مركزاً لجنرال؛ (الجنرال قائد قوات الأمم المتحدة سيلاسفيو، الجنرال الإسرائيلي أهارون ياريف، اللواء المصري عبد الغني الجمصي) والشرطة

العسكرية تحمي الجنرالات وكل منهم كان قد أحضر معه فرقة لحراسته. كان الوقت حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم الأحد وكان ضباط الأمم المتحدة يرافقون اللواء المصري والجنرال الإسرائيلي بطريقهم إلى وسط المكان ووراء كل منهم عدد من الضباط الكبار، وفي وسط الخيمة التابعة للأمم المتحدة طاولة بشكل نضوة الفرس في وسطها كان يقف الجنرال سيلاسفيو الذي حيا الضابطين المصري والإسرائيلي دون مصافحة بل بإشارة من الرأس.

الجنرال الإسرائيلي ياريف يطالب بحق تفتيش قوافل التموين لمدينة السويس وللجيش المصري الثالث من قبلهم، المصريون يرفضون هذا الطلب، والجنرال ياريف يتصل هاتفياً بدايان وكانت النتيجة إصرار الإسرائيليين على التفتيش وفي اليوم التالي يعلن اللواء المصري أنه يحمل في حقيبته أسماء الأسرى الإسرائيليين وسوف يسلم هذه القائمة حالما يقبل الجنرال الإسرائيلي ياريف بالتنازل عن حق التفتيش إلى قوات الأمم المتحدة ويجد الجنرال سيلاسفيو أن هذا الحل معقول والجنرال ياريف يتصل مجدداً بدايان الذي يقبل بهذا الحل الوسط فيما إذا كان المصريون يحملون فعلاً قائمة بأسماء الأسرى الإسرائيليين وتبع ذلك أن سلم اللواء المصري عبد الغني الجمصي القائمة بأسماء الأسرى ووعد بالإفراج قريباً عنهم وبعد هذا صافح المصريون والإسرائيليون بعضهم بعضاً.

الجنرال سيلاسفيو بدأ القيام بمهماته وكانت قواته تمنع وبدون جهد كبير تحرك قوات أحد الطرفين باتجاه الطرف الآخر وقادة القطعات المصرية والإسرائيلية ما كان لهم إلا أن يرضخوا للأمر الواقع، وكان الجنرال سيلاسفيو يقوم بمهماته بذكاء ومرونة. وبعد التوقيع على شروط الهدنة بـ ٢٤ ساعة تبدأ الخلافات بعدما

أمر الجنرال سيلاسفيو بإقامة نقطة التفتيش على الكيلو ١٠١ حيث يقوم جنود الأمم المتحدة بتفتيش قافلة التموين للجيش الثالث وأمر الجنرال بعدم السماح لجنود مسلحين بعبور هذه النقطة. الإسرائيليون يحتجون بقولهم أن نقطة التفتيش تقطع الاتصال بين وحداتهم العسكرية ومراكز التموين والجنرال سيلاسفيو يصر على وجهة نظره بأنه يجب أن تبقى هذه النقطة في مكانها مما يتوافق وشروط الهدنة ولكنه ذكي وواقعي حيث منع جنوده من استعمال السلاح، وعندما تقدم الجنود الإسرائيليون من النقطة ألقى الجنود الفنلنديون مسدساتهم الرشاشة البلجيكية وحصل قتال بينهم وبين الإسرائيليين بالأيدي كانت نتيجته أن خسر الفنلديون هذه المعركة وطردهم الإسرائيليون ودمروا نقطة التفتيش وإشارات الطرق والحواجز المقامة على الطريق ولم يعد لهذه النقطة من وجود.

وسرعان ما يسافر سيلاسفيو إلى القدس ليقابل موشي دايان حيث نوقش موضوع نقطة التفتيش فهاجم دايان الجنرال سيلاسفيو بأنه يبالغ في استعمال صلاحياته وحذره من أن يتعدى مهماته التي أوكلت إليه، وكانت المناقشة حادة جداً ولكنها لم تؤدِ إلى نتيجة وأصر دايان على حق القوات الإسرائيلية بحرية التنقل وطلب من سيلاسفيو أن يحول مركز التفتيش الذي أقامه عند الكيلو متر ١٠١ إلى الكيلو متر ٩٨ حيث يقف المصريون قائلاً له: حري بك أن تفتشهم ولا حاجة لأن يفتشنا أحد.

الولايات المتحدة تساعد المصريين من جديد بعد أن استقبل وزير الخارجية المصرية إسماعيل فهمي السفير الجديد للولايات المتحدة في القاهرة هيرمان آيلتس Herman Eilts إذ أخبره الوزير بتعنت وتحجر الإسرائيليين

والحادث الذي وقع عند الكيلو متر ١٠١ . وبعد ذلك بيومين يجتمع من جديد ضباط مصريون وإسرائيليون ويبحثون في مشكلة التفتيش ويبدي الإسرائيليون تساهلات في هذا الموضوع ويسمحون بإقامة مركز تفتيش جديد على مشارف مدينة السويس في أول نطاق صلاحيات الجيش المصري الثالث - لاشك بأن الولايات المتحدة قد قامت بالضغط على تل أبيب - وهذا هيأ للمصريين أن يجلو جرحاهم من مدينة السويس المحاصرة حيث مكث ١٣٠٠ جريح مدة أربعة أسابيع كاملة في مستشفى لا يتسع لأكثر من ٥٠٠ مريض ولم يعد يوجد في المدينة المحاصرة ماء أو أدوية ولم يعد باستطاعة الجرحى أن يستحموا ودورات المياه امتلأت بالأقذار حيث كانت الروائح لا تطاق.

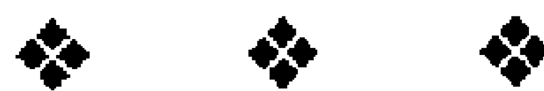
كما تم الاتفاق على تبادل ٢٣٨ أسيراً إسرائيلياً مقابل ٨٠٠٠ مصري وبهذا تحقق أهم هدف لغولدامائير بعد وقف إطلاق النار حيث انتظر آلاف الناس العائدين في مطار اللد وقد وصل الجرحى ثم تبعهم باقي الأسرى، واستقبلهم دايان ورئيس الأركان العامة دافيد العازار بحفاوة بالغة وفجأة عم التفاؤل إسرائيل واستغل دايان هذا التفاؤل وزاد فيه لمصلحته إذ قال: إننا نوشك على الاتفاق مع سوريا، ودمشق سوف تطلق سراح الأسرى حيث يتوقع منا أن نسمح لـ ١٥ ألف فلاح سوري بالعودة إلى قراهم بعد أن هربوا أمام قواتنا في الجولان ونحن على استعداد للتباحث حول هذا الموضوع.

وعلى متن طائرة سويسرية من طراز Dc – 9 تابعة للصليب الأحمر الدولي عاد الجرحى الإسرائيليون من مصر يرتدون بيجامات خضراء مخططة كما أطلقت مصر أيضاً سراح بعض الإسرائيليين الذين مضى عليهم سنوات طويلة في الأسر

وكان أغلبهم طيارين أسقطت طائراتهم في رحلات استطلاعية فوق مصر ورأى الإسرائيليون في ذلك بادرة طيبة للتفاهم، وفي بضع ساعات قليلة تم تبادل أغلب الأسرى بطيران مباشر بين اللد والقاهرة والذي يحدث لأول مرة منذ ٢٥ عاماً. وقد حضرت غولدامائير نفسها إلى مطار اللد لتشارك في استقبال الأسرى وكان يبدو عليها التأثر العميق وهكذا توصلت إلى تحقيق تبادل الأسرى في خلال أيام قليلة بعد وقف إطلاق النار على عكس ما جرى إثر حرب حزيران ١٩٦٧ حيث بقي الأسرى الإسرائيليون ما يزيد على نصف سنة وبعد محادثات صعبة وشاقة، لكن في نهاية هذه الحرب كان كل شيء يختلف عن سابقه بالحرب الماضية وبدأ لأول مرة يعم إسرائيل نوع من الأمل بأنه ربما كان هناك دلائل على إمكانية قيام سلام دائم وقال دايان: وأخيراً تحدثنا مع بعضنا البعض كبشر وتوصلنا إلى نتائج طيبة ونحن راضون تماماً عن هذه النتائج.

وفي الأيام الأولى التي تلت وقف إطلاق النار في إسرائيل عم البلاد خوف من المستقبل ولم يعد الناس كما كانوا في الماضي يعتقدون بأن جيشهم مؤهل دائماً لحماية الحدود وفي وضع متفوق فيه دائماً على الجيوش العربية، هذا الإيمان تزعزع وسياسة الإذلال للجيوش العربية لم تعد ممكنة، وفي هذه المرة لم تستطع إسرائيل أن تملي شروطها على العرب، استسلام العرب لم يحصل، ما هي الحلول الممكنة يا ترى؟

مشكلة الأسرى انتهت وربما كانت هذه البادرة هي البداية لإزالة الكراهية التي قامت بين العرب والإسرائيليين وأصبح الكثيرون يؤمنون بهذه الفكرة كما أن هذه الفكرة يبني عليها كيسينغر آمالاً كبرى لحل المشكلة في الشرق الأوسط.



دولة الفلسطينيين

وقف إطلاق النار بعد الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة يحترم من الطرفين والسؤال الذي كان يدور في خلد الناس جميعاً الآن هو: ماذا سيحدث في المستقبل؟ وأغلب اللاجئين الذين كانوا صامتين عندما كان ياسر عرفات وجورج حبش من أشهر قادتهم بدأوا الآن ينشطون والوجهاء ورؤساء البلديات السابقين للقدس وأريحا يهدفون الآن لأن تكون لهم الكلمة والوزن في قيادة مليونين ونصف من الفلسطينيين.

وحتى عام ١٩٦٧ لم يكن يسود هذا الشعور لدى الفلسطينيين حيث كان أغلبهم يرضخ لحكم الملك حسين ويعتبرون أنفسهم أردنيين، والوجهاء لم يهربوا في حزيران ١٩٦٧ بل ظلوا في مدنهم حيث كانت لهم أملاك وأصروا على المطالبة بحقوقهم في المناطق المحتلة وعبروا عن ذلك ببقائهم في أراضيهم كما حافظوا على صلاتهم مع الملك حسين وكان الإسرائيليون غير راضين عن ذلك مما دفعهم لإبعاد أربعة من الوجهاء عبر جسر اللنبي روحي الخطيب رئيس بلدية القدس كان أحد هؤلاء الرجال الأربعة وهو رجل نحيف فضي الشعر يبلغ من العمر حوالي ٦٠ عاماً يتميز بذكاء حاد يعيش الآن في عمان، ولم يعد من أعوان الملك حسين إذ خاب أمله لأن الجيش الأردني لم يتحرك ويشارك

بالقتال ولم يحرر أي شبر من الضفة الغربية المحتلة وبرأيه أنه لم يعد للملك حسين أي حق بالسلطة على الأراضي بين الأردن والقدس.

والوجهاء الفلسطينيون يتحدثون اليوم بصراحة ويقولون بأن المملكة الهاشمية وحكام عمان لا يختلفون عن الإسرائيليين حيث كان للطرفين أطماع باغتصاب الأراضي الفلسطينية يوم ذاك في عام ١٩٤٨ حيث كانت بريطانيا صاحبة السلطة في هذه المنطقة. وحسب قرار التقسيم الصادر عن هيئة الأمم المتحدة بتجزئة فلسطين بين اليهود والعرب ولم يقبل أي من الطرفين بقرار التقسيم. توسع الإسرائيليون وجد الملك حسين اغتصب قسماً كبيراً من فلسطين وألحقه بمملكته وهي المنطقة الواقعة غرب نهر الأردن التي اغتصبها الإسرائيليون في عام ١٩٦٧، ودافع الملك عبد الله وهو جد الملك حسين عن احتلاله لهذه المنطقة بقوله بأنه لولا احتلاله المنطقة لوقعت القدس كلها بيد العدو الإسرائيلي وقد أنقذ قسماً كبيراً من القدس المدينة المقدسة للعرب جميعاً ولكن منذ يوم ٩ حزيران ١٩٦٧ تتولى إسرائيل السلطة على القسم العربي من القدس.

ولا يرغب الوجهاء الفلسطينيون مطلقاً بعودة الضفة الغربية تحت سلطة الملك حسين ويهدفون إلى الاستقلال وتأسيس دولة فلسطينية ويعلمون تماماً أن إسرائيل لن ترضى عن هذه الخطوة وسببها في ذلك أن أية دولة فلسطينية مقرونة دوماً عندهم باسم الفتح، لكن على الإسرائيليين أن يدركوا أن هناك أناساً آخرين غير ياسر عرفات، وروحي الخطيب يعتقد أنه هو الرجل الذي يستطيع أن يقوم على رأس دولة فلسطينية وبرأيه أن القدس يجب أن تكون عاصمة الدولة الفلسطينية المقبلة، وكانت المناقشات تدور في صفوف

الفلسطينيين في المنطقة المحتلة حول شكل الدولة، وهل من الذكاء أن يقوم نوع من الاتحاد الفيدرالي مع الملك حسين ولا يرون بأن لديهم إمكانيات تؤهلهم لإرسال سفراء إلى كل مكان في أوربا وأميركا وأفريقيا ....، وإلى أي مدى من الاستقلال ستتمتع به الدولة الفلسطينية المقبلة؟

وداود الحسيني النائب في مجلس النواب الأردني من المنطقة المحتلة يقول: إذا بقي الملك حسين ملكاً على بلادنا نضيع حقنا بتقرير مصيرنا بأنفسنا، وكان الملك حسين يريد إقامة مملكة عربية متحدة من الضفة الغربية ومن الأردن التي بيده الآن. ولابد أن يتولى جميع الأمور في دولة فيدرالية من هذا النوع. ويتابع داود الحسيني قوله: الضفة الغربية للأردن هي أرض فلسطينية وعلينا نحن أن نكون أصحاب السلطة فيها ولا يمكننا أن نتنازل عن حق تقرير مصيرنا. والمخابرات الأردنية في عمان لا تريد أن يدلي الحسيني بتصريحاته هذه، وكلما ظهرت في الأفق دلائل على إمكانية قيام حل سلمي يبادر الملك حسين بفكرة توحيد الضفة الغربية والأردن تحت حكمه ويذكر الوجهاء والأعيان الفلسطينيين أن المملكة الأردنية نفسها قامت بمساعي الإنكليز أعقاب الحرب العالمية الأولى.

يجتمع الأعيان الفلسطينيون في عمان حيث يعيش أغلبهم في العاصمة الأردنية ولهم صلات قوية بالمنطقة المحتلة حيث يأتي ويعود الأقرباء من الطرفين عبر جسر اللنبي والتي لم تنقطع حتى في أيام الحرب، ويعرف الوجهاء تماماً بماذا يفكر الفلسطينيون بإقامة دولة اشتراكية متطرفة ويعتقد هو ومؤيدوه بأن الشكل الاقتصادي للدولة الفلسطينية الجديدة لابد وأن يحوز على

رضا الولايات المتحدة الأميركية لأنهم يرون أن تأييد الولايات المتحدة للدولة الجديدة هو شيء مهم جداً.

ويجتمع المعتدلون بحركات التحرير الفلسطينية والوجهاء والأعيان الفلسطينيين، خالد الحسن كان قد طالب بتوطين الفلسطينيين ولهذا اتهمه ياسر عرفات بالتخاذل، وأجمع المعتدلون والأعيان على رأي وهدف واحد، والملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية قام بجس النبض وهو يحوز على تقدير واحترام الوجهاء والأعيان ومؤيدي رأي خالد الحسن، والملك فيصل الذي يحمي الأماكن المقدسة مكة والمدينة يريد أيضاً أن تعود القدس وتصبح عربية وتعجبه الفكرة بأن تصبح القدس عاصمة دولة فلسطينية كما لا يؤيد عودة القدس إلى المملكة الأردنية الهاشمية لوجود نزاع دائم بين العائلتين المالكتين في السعودية والأردن منذ أن طردت العائلة السعودية المالكة الهاشميين من مكة.

وفي نهاية الحرب الرابعة يطالب روحي الخطيب بمحادثات على أسس كما يطالب بها فيصل أيضاً ويرى الوجهاء والأعيان في شخص الملك فيصل حامياً لهم وهو الرجل الذي يملك أكبر احتياطي من البترول في العالم حتى عام ٢٠٠٠ والذي به يتعلق مستقبل الاقتصاد الأميركي ويعتقدون أن بإمكانه أن يحول آمال الفلسطينيين إلى حقيقة واقعة، وطلب روحي الخطيب بعد أن تفاهم مع الملك فيصل النقاط التالية:

١ — عدم تدويل القدس أو جعلها مدينة مفتوحة.

٢ — أن يكون القسم العربي من القدس عاصمة الدولة الجديدة.

٣ – على إسرائيل أن تنسحب إلى حدود ما قبل ٥ حزيران ١٩٦٧ والدولة الفلسطينية الجديدة تضمن حرية الديانة للجميع وتمنح اليهود ممراً حراً إلى جدار المبكى.

وكان الوجهاء والأعيان الفلسطينيون يتصورون أنهم بتلك الطلبات ربما يحدثون صدى طيباً وإيجابياً لدى الإسرائيليين ولكن رغم ذلك تكرر غولدامائير وتعلن مراراً بأنه بين البحر المتوسط وبين الصحراء يوجد مكان لإسرائيل والأردن فقط ولا يمكن قيام دولة فلسطينية في هذا المكان.

لكن الاتحاد السوفيتي يريد قيام هذه الدولة وسفير الاتحاد السوفيتي في بيروت سيرفار عظيموف Sarvar Azimov لا يترك مجالاً للشك في عزم الاتحاد السوفيتي على ذلك، ففي مساء ٢٨ تشرين الأول كان ياسر عرفات ضيف السفير الروسي في لبنان ولم يدلِ عرفات بأي شيء عما دار بينه وبين عظيموف من محادثات إلا أن السفير يتحدث عن المؤتمر القادم للسلام ويقول "في نهاية المؤتمر لابد وأن يحظى الفلسطينيون على دولتهم في الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة" وعرفات يعلن بأنه: فيما إذا قامت هذه الدولة فإن ذلك يعني نهاية الثورة الفلسطينية. لكن الوجهاء والأعيان الفلسطينيين سوف يتمكنون من أخذ زمام المبادرة بيدهم لأنهم يتفاهمون مع إسرائيل تماماً كما يتفاهمون مع عمان، وذلك يعني أن الكفاح لقيام دولة ديمقراطية علمانية فسلطينية سوف ينتهي وحلمه بقيام هذه الدولة (دولة تقوم على أنقاض إسرائيل على أساس علماني حيث يعيش العرب واليهود في دولة ديمقراطية) سيتلاشى لأنه ما من أحد بالعالم يؤيد فكرته هذه، ويبدو على عرفات الحزن ويفقد الأمل ويعلن لبريجنيف في موسكو عن استعداده للاشتراك في المحادثات السلمية القادمة وكان أمله أن تقوم الأجيال الصاعدة بالتحرير من جديد وربما بعد ١٠ أو ٢٠ عاماً.

دروس وعبر من الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة

يقول جون مارت Jon Smart مدير المعهد الملكي البريطاني للقضايا الدولية بأنه أمكن بالحرب من تدمير دبابات (شيفتن Chieften وسنتوريون Centurien بصواريخ رخيصة سهلة الاستعمال يحملها المشاة وصحراء سيناء تشهد على حطام الدبابات المحترقة ضحية هذا السلاح الجديد ، وكان يصعب رؤية الثقب الذي كان يحدثه الصاروخ المضاد للدبابات بهيكل الدبابة ولم يكن قطره ليبلغ أكثر من ٣ ـ ٤ سم وشكله بيضوي وكانت الصواريخ المصرية المضادة للدبابات تتمكن من اختراق تصفيحاً عمقه ٢٠ سم وتنفجر الصواريخ داخل الدبابة، وكان الجيش الإسرائيلي يتوقع أن تحمل كل مجموعة من ثلاث أو أربعة جنود سلاحاً من هذا النوع في الجبهة واستندوا في ذلك إلى إستراتيجية حلف الأطلسي ولكن المفاجأة بالنسبة للإسرائيليين كانت بأن كل جندي مصري يحمل صاروخاً من هذا النوع وأحياناً صاروخين، هذا ما برهن على صحته الأسرى الإسرائيليون في القاهرة.

صواريخ سام والصواريخ المضادة للدبابات هي التي قررت مصير الحرب الإسرائيلية الرابعة، وتحول بذلك السلاح الدفاعي إلى سلاح هجومي، ولأول مرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لم تعد قاعدة رومل الألمانية تنطبق والقائلة

(أن الدبابة لا تدمر إلا بدبابة) وهذه القاعدة الثابتة سابقاً قد قضي عليها في الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة.

وحتى السلاح القديم المضاد للدبابات بيد المشاة ما كان ليغير كثيراً بتفوق الدبابة لأن على من يطلقه أن يكون شجاعاً جداً وبارد الدم حيث عليه أن ينتظر اقتراب الدبابة منه حتى يصبح على بعد قريب جداً ليضربها من طرفها حيث التصفيح على طرف الدبابة هو أضعف من التصفيح في مقدمتها. وحطام الدبابات في سيناء كانت تثبت أن أغلب الإصابات قد تمت في مقدمة الدبابة والجندي الذي يطلق الصاروخ ضد الدبابة كان يتمركز أمامها على بعد كبير.

وبينما يبلغ سعر الدبابة الأميركية (م ٦٠ ـ M 60) حوالي مليون مارك فإن سعر الصاروخ المضاد للدبابات لا يزيد على الألف مارك والنتيجة أن القاعدة الثابتة أيضاً لم يعد لها أي اعتبار والتي تقول (أن الطرف المحارب المنتصر هو الذي يستعمل عدداً أكبر من الدبابات فيما إذا توازنت نوعية الأسلحة لكل من الخصمين) وفي دورات الأركان العامة لابد وأن ينسى المدرسون معارك سنة ١٩٤٣ في روسيا وقد أصبح معناها أثرياً فقط يومذاك كان يقرر مصير المعركة الجيش الذي يحوز على ٣٠٠ دبابة زيادة على عدد دبابات الطرف الآخر. لكن توجد أسس حربية أثبت حيث كان رومل قد جرب بمعاركه في فرنسا عام ١٩٤٠ التنسيق والتعاون بين سلاح الدبابات وسلاح الطيران حيث أنه إذا استطاع سلاح الطيران عمل مظلة جوية واقية فوق الدبابات وضرب العدو خلف خطوطه وتدميره معنوياً كانت الدبابة سلاحاً سريعاً ومجدياً لأنه إذا لم يخف قائد الدبابة من الطيران لابد وأن يتقدم

بـشجاعة وفاعليـة في المعـارك ويحقـق الانتـصارات. ولم تكـن الدبابـة لتحمـل أسلحة مضادة ومجدية ضد الطائرات المقاتلة ويضاف إلى ذلك أنه حتى لو كان بـرج الدبابـة مفتوحـاً فـلا تـسمع حاميتهـا بـسبب صـوتها العـالي (المحـرك والجنازير) وبذلك لا تكتشف بسرعة أصوات الطائرات وتعلم بقدومها. حتى ولو تسنى لطاقم الدبابة أن يتنبأ بقدوم الطائرة قبل وصولها فليس للدبابة من مؤهلات تستطيع بها أن تتحاشى قذائف الطائرات لأنها بطيئة الحركة بـسبب الجنازير وصعوبة مناوراتها. وهذا ما كان يعني أنـه لابـد للدبابات لكي تتقدم وتحرز انتصارات من أن يكون الجو فوقها مؤمناً وجـرب ذلـك رومـل في هجومـه على (ماس -) في ١٢ أيـار عام ١٩٤٠ ومنـذ ذلـك الحين كانـت هـذه القاعدة ثابتة ومعترفاً بها ولازالت باقية حتى نهاية الحرب العربية - الإسرائيلية الرابعة. وهذه القاعدة كان من شأنها فقط حماية سلاح المدرعات الخاص من التـدمير لكنها لا تضمن تحقيق الانتصارات له.

في حرب حزيران ١٩٦٧ استطاع سلاح الطيران الإسرائيلي بالتعاون مع سلاح المدرعات أن يحققا النصر حيث قام ذراع إسرائيل الطويل بتدمير العدو في الجبهة وبتـدمير قوافل الإمـدادات وقامـت الطـائرات بتحطـيم كـل اسـتعداد جديد بتنظيم الجبهـة أو للتهيؤ مـن جديـد. المدافع المضادة للطـائرات لم تكـن مجدية تجاه الطائرات السـريعة وما كان يلبـث الجنـود أن يحولـوا اتجاه مـدافعهم حتى كانت الطائرات تغيب عن أنظارهم والإصابات المباشرة التي حدثت لابـد وأن تكـون قـد تمـت بطريـق الـصدفة ونتجـت يومـذاك الخـبرة التاليـة وهـي: (لا يوجد سلاح فعال ضد التفوق الجوي) وما كان من إمكانيـة تجاه التفـوق الجـوي

المعادي سوى هجمات جوية مكثفة جداً على خطوط العدو ولكن من شأن هذا أن ينتج عنه ضحايا كبيرة.

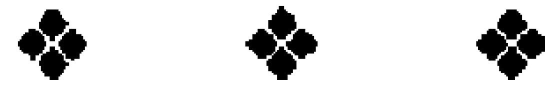
وأما الجندي الذي يوجه اتجاه المدفع المضاد للطائرات فقد حلّ مكانه جهاز التوجيه الإلكتروني والذي أبطل التفوق الجوي الإسرائيلي وأوجدت وسائل جديدة مجدية أكثر ضد السلاح الجوي المعادي حيث جعلت صواريخ سام ٦ الهجوم من الجو خطراً كبيراً ومجازفة من العدو، وشلت الصواريخ الموجهة بالرادار والتنسيق والتعاون بين سلاح الطيران وسلاح المدرعات حيث لم يكن لسلاح المدرعات الإسرائيلية من تحقيق انتصارات دون أن يتمكن سلاح الجو الإسرائيلي قبل ذلك من ضرب العرب ضربات محكمة مما يبقي سلاح الدبابات لقمة سائغة للمدفعية. في الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة ظهرت قاعدة جديدة وهي (التنسيق بين سلاح المدرعات والدفاع الجوي).

وكان المصريون في الفترة الأولى من قيام الحرب حذرين ولم يقذفوا بسلاحهم الجوي في المعركة ليحفظوه من الإصابات بصواريخهم الخاصة وبعد خرق الإسرائيليين للجبهة المصرية والعبور إلى الضفة الغربية قام سلاح الجو المصري بالاشتراك بالمعارك وقامت طائرات الميغ بهجمات مكثفة وكان في ذلك الوقت قد أحدثت ثغرات في النطاق الصاروخي المصري لكنه لم يكن قد دمر نهائياً وكانت الأجهزة الإلكترونية لبطاريات صواريخ سام ٦ تتبع كل هدف طائر ولا تفرق بين طائرات صديقة أو معادية مما نتج عنه إسقاط أربعين طائرة مصرية بالصواريخ المصرية نفسها.

ولابد من التطور العسكري الجديد بإيجاد سلاح مضاد لصواريخ الدفاع الجوي أن نجاحاً مبدئياً ضد الصواريخ حققه طيارو الفانتوم في هذه الحرب

حيث كانوا يقذفون بصاروخ محترق من الطائرة كانت تتبعه الصواريخ المصرية بدلاً من اتباعها للطائرة، وشحنت بطاريات الصواريخ التي استولى عليها الإسرائيليون إلى الولايات المتحدة الأميركية ليقوم أخصائيو الإلكترونيك بتشريحها وفحصها ولن تبقى صواريخ سام ٦ في معارك قادمة الشبح المرعب للطيارين والأصعب من ذلك هو اختراع أسلحة مضادة للصواريخ المضادة للطائرات الموجهة بالشريط.

مقر الحلف الأطلسي في بروكسل بدأ بعد نهاية الحرب بالتفكير باستراتيجيته التكتيكية والعسكرية ليستفيد من تجارب وعبر الحرب العربية الإسرائيلية.



سقوط بطل الحرب

القيادة العسكرية العليا المصرية تدرك الحقيقة المرة وهي أن نوعية صنف الضباط المصريين التكتيكية ليست من الجدارة بما يؤهلها لحرب طويلة مع إسرائيل، انتصارات مبدئية جعلت الضباط مهملين وسرعان ما اعتقد العقداء والمقدمون أن النصر الكلي أصبح قريباً جداً ولم يعد هناك مجال أبداً لحدوث نكسات أو مفاجآت بالتقدم على طريق النصر وكان الشاذلي يلح دائماً بتهيئة الجيل الجديد الصاعد من الضباط على أن كل المعلومات مهما بدت لهم ثانوية هي مهمة جداً ويجب على القيادة العليا أن تطلع عليها لتكون دائماً على معرفة بالوضع على الجبهة تماماً.

ولكن حتى في هذه الحرب حدث أن كثيراً من قواد القطعات احتفظوا بالمعلومات لأنفسهم ولم يوصلوها إلى القيادة العامة حتى في اليوم الثالث للحرب، كان بعض رجال المغاوير الإسرائيليين قد عبروا القناة إلى الضفة الغربية عند البحيرات المرة الكبيرة في منطقة لم يكن يعتقد المصريون أن يستطيع الإسرائيليون أن يعبروها لأنهم اعتبروا أن ذلك مستحيلاً واكتشف المصريون طلائع المغاوير الإسرائيليين واشتبكوا معهم في قتال لكن قائد القطعة نسي أن يخبر القيادة العسكرية العليا بذلك. والسبب في إهماله هو أن

المصريين بعد تبادل إطلاق النار مع المغاوير الإسرائيليين بالمدافع الرشاشة وبعد توقف المغاوير الإسرائيليين من إطلاق النار اعتقد قائد القطعة المصرية أن المغاوير الأعداء قد أبيدوا وكان مخطئاً باعتقاده هذا. وفي اليوم الرابع للحرب عبر عدد أكبر من المشاة القناة وحتى هذه المرة اكتشفوا من قبل المصريين، وفي هذه المرة علمت القيادة العسكرية العليا بالقاهرة بذلك حيث بدا الارتباك على القيادة العسكرية وفسروا ذلك بأنه "من المنطق أن يقوم العدو بمحاولات عبور تحمل طابع تخريبي حتى في هذا الوقت يحتفظ سعد الدين الشاذلي لنفسه بتلك المعلومات دون أن يخبر السادات بشيء عن هذا خوفاً منه ويقع الشاذلي نفسه ضحية العقلية المصرية التي تركت طابعها عليهم القرون الماضية والتي سماها حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الأهرام "بالظلام الفكري المصري" والشاذلي كان يخشى غضب الرئيس لذلك أخفى عنه هذا النبأ أملاً منه بأن يصفي الأمور بسرعة قبل أن يكتشف السادات هذا الأمر. ويعود السبب للظلام الفكري المصري على عقلية المخابرات المصرية التي تطارد المذنبين.

ويقول الفريق أول إسماعيل علي وزير الحربية المصري والقائد العام للقوات المسلحة أنه علم بتسلل إسرائيلي لأول مرة يوم ١٦ تشرين الأول رغم أنه كان موجوداً دائماً ليلاً نهاراً بمقر القيادة العليا وكان في ذلك اليوم بصحبة الرئيس السادات في طريقهم إلى مجلس الشعب ويتابع الفريق أول إسماعيل علي فيقول (عندما عدت من مجلس الشعب علمت لأول مرة أن الإسرائيليين قد عبروا القناة بعدد قليل من المدرعات البرمائية) ولم يصرح من الذي أعلمه بذلك ولكن يعتقد غالباً بأنه الفريق الشاذلي، ويتابع إسماعيل علي ويقول

(وباعتقاد قائد القطعة في المنطقة أنه بوضع يؤهله من تصفية الأمر بسرعة. خدعت نفسي وطلبنا من الإسرائيليين المتسللين الاستسلام وبالواقع فقد كان هناك عدد هائل من الدبابات المعادية على الضفة الغربية للقناة وقد استطاعت أن تموه وتخفي وجودها في الحقول وتحت الأشجار الكثيفة على الضفة الغربية، حيث أن الضفة الغربية مشجرة بكثافة على عكس الضفة الشرقية الصحراوية التي لا يمكن الاختباء والتمويه بها. واتهم الفريق أول إسماعيل علي الشاذلي بالإهمال والخطأ في ذلك لأن الشاذلي قام في يوم مهم جداً من أيام الحرب بإجراء تعديلات وتغييرات لقواد القطعات دون إعلام القيادة العسكرية العليا أيضاً بذلك. وحدث ذلك بنفس اليوم الذي بدأ فيه الإسرائيليون بالتسلل إلى الضفة الغربية. ويقول إسماعيل علي هناك أشياء كثيرة لا أدركها ولا أستطيع فهمها ولابد أن نكتشف خفايا الأمور) وإسماعيل علي كان غاضباً أكثر مما يمكن أن يتصور. وكان الفريق إسماعيل علي نفسه رئيساً للأركان في وقت قام به الإسرائيليون بعملية إنزال في جزيرة شدوان واستولوا على محطة رادار كاملة. وينسى بأنه هو نفسه أخفى يومذاك هذا الأمر عن القيادة العليا، وبعدما تم انسحاب الإسرائيليين ومعهم محطة الرادار المهمة انسحاباً كاملاً حاول إسماعيل علي نفسه أن يخفي حقيقة الأمور بل بالغ وقال بأنه يعود له الفضل في طرد الإسرائيليين وإلا لكانوا بقوا في الجزيرة.

وبعد مضي شهر على وقف إطلاق النار يتباهى وزير الحربية ويعزو لنفسه كل نجاحات الحرب فيقول: "فقط السادات وأنا كنا نعلم بموعد بدء الحرب وكل الآخرين علموا بذلك قبل ٤٨ ساعة من قيام الحرب" وبذلك طمس على الجهود

والاستعدادات للحرب التي قام بها الشاذلي واكتشف إسماعيل علي الفرصة المؤاتية لإسقاط الضابط الأسمر والشاب أكثر وينسب لنفسه عملاً لم يكن ليقوم به إطلاقاً فيقول "كنت القائد الأعلى لجبهتين علماً أن كل ما قام به كقائد أعلى لجبهتين في بدء الحرب أنه أقنع السوريين بتأجيل موعد بدء الحرب من الصباح حتى الظهر حيث أراد السوريون أن يهاجموا في الصباح لأن الشمس تكون خلفهم وعلى العدو أن يحارب والشمس أمامه والمصريون اختاروا الظهر لأن الشمس تكون في ذلك الوقت خلفهم.

ولم يعد يذكر سعد الدين الشاذلي في الصحف المصرية إطلاقاً بعد وقف إطلاق النار وراجت شائعات في القاهرة تقول بأن الرئيس المصري سوف يقيم محاكمات لمحاكمة المسؤولين عن أخطاء الحرب. وفي ١٢ كانون الأول ١٩٧٣ يسمي أنور السادات خلفاً لسعد الدين الشاذلي. ويوجد في صفوف الضباط المصريين الكبار من يبحث عن أسباب الكارثة والتحول في مجرى الحرب وظروف خارقة متبعين نفس تفكير وعقلية وزير الحربية السابق محمد فوزي في كانون الأول ١٩٧١ الذي اتهم بالخيانة العظمى حيث كان يومذاك يقوم باستحضار الأرواح ويسألهم عن أنسب وقت للقيام بعبور قناة السويس ولخيبة أمله حصل على معلومات غير واضحة باستحضار الأرواح وشكا الرئيس السادات من وزيره الرجعي حيث قال "في وقت تقرر فيه الأجهزة الإلكترونية مجرى الحروب يقوم وزير حربيتي باستحضار الأرواح" والعقلية المصرية الرجعية تتهم الرئيس السادات بأنه لم يعر الاعتبارات اهتمامه في القيام بالحرب ونسي أن هناك قوى خارقة لها أثرها وسبب الكارثة في العبور الإسرائيلي ويقال مثلاً أن السادات سمح بنقل تحف قبر توت غنخ أمون إلى موسكو حيث كان مقرراً أن يتم نقل التحف بالطائرة

في ٧ تشرين الأول مما جعل الحرب تقوم في ٦ تشرين الأول وتحول بين نقل التحف وجثة توت غنخ آمون في اليوم التالي إلى موسكو . وتقول العقلية الرجعية المصرية أن توت غنخ آمون انتقم بذلك لنقل جثته وتحف قبره المقررة في اليوم الثاني بعد قيام الحرب، وعقلية الرجعيين تندفع أكثر وتقول أنه كان من المقرر أن يبتدئ المعرض في موسكو في ٢٢ تشرين الأول وفي ٢٢ تشرين الأول قام الإسرائيليون بإكمال رأس جسر على القناة إلى الضفة الغربية وهكذا انتقم الملك، ومن يزعج الملك في هدوئه يغضب عليه ويلعنه ويعزون موت بعض علماء الآثار الذين فتحوا قبره تحت ظروف غامضة إلى غضب الفراعنة . حيث يروى أن هناك (٢٢) إنساناً قتلوا في ظروف غامضة عندما قام علماء الآثار باكتشاف وفتح قبر توت غنخ آمون ويقولون أنه يوم نقل توت غنخ آمون في سنة ١٩٦٧ إلى باريس لعرضها في متحف اللوفر توفي يومذاك المسؤولون عن تصدير التحف إلى باريس وتم دفنهم في نفس الساعة التي أقلعت فيها الطائرة حاملة التحف إلى باريس، وقامت في عام ١٩٦٧ الحرب وفي عام ١٩٧٢ كانت تحف توت غنخ آمون في لندن وكتبت صحيفة الأهرام أنه في ذلك الوقت أيضاً توفي موظفو المتحف في ظروف غامضة . وقال مدير المتحف المصري هنري رياض "إن قصة لعنة الفراعنة غريبة وربما كانت الوفيات صدفة وتصله تحذيرات وإنذارات بأن الحرب سوف تقوم وكارثة سوف تحدث فيما إذا سمح بنقل تحف توت غنخ آمون إلى موسكو لعرضها .

وفي أوائل شهر كانون الأول عام ١٩٧٣ عرضت تحف قبر توت غنخ آمون في موسكو .



الاتحاد السوفيتي يتصرف من وحي مصالحه الخاصة

في شهر تشرين الأول شهر الحرب العربية الإسرائيلية كان الاتحاد السوفيتي يورد للعرب أسلحة ولإسرائيل طاقة بشرية ونخبة طلائعية مثقفة وسمح في شهر الحرب بالهجرة لأكبر عدد سمح به في شهر واحد من اليهود ، وكان معسكر (شوفنر Schonau) بالقرب من فيينا قد سجل في ذلك الشهر ٤٢٠٠ رجل وامرأة في طريقهم من الاتحاد السوفيتي إلى تل أبيب وكان هذا العدد لا يتعدى حتى شهر تشرين الأول ٢٠٠٠ مهاجر ولم يخفَ على العرب أبداً الحقيقة وهي أن أي نوعية من الناس تهاجر من روسيا إلى إسرائيل وبقلق سجلت القاهرة أن أغلب المهاجرين في شهر تشرين الأول من روسيا إلى إسرائيل كانوا عبارة عن عمال اختصاصيين ونخبة طلائعية من المثقفين حيث أن إسرائيل كانت بأشد الحاجة لهم، حتى أصدقاء الاتحاد السوفيتي قالوا أن روسيا عوضت عن ضحايا إسرائيل في الحرب حيث كان في ذلك الوقت قد بلغ عدد الضحايا ١٨٥٠ قتيلاً وهاجر إلى إسرائيل عوضاً عنهم ٤٠٠٠ نسمة وكان أصدقاء الاتحاد السوفيتي يهزون رؤوسهم مستغربين من روسيا وكانت السياسة الإسرائيلية تبعد عن مدح السياسة السوفياتية حتى لا تحرج بريجنيف وتعقد الأمور لأن المدح العلني من شأنه أن يجلب الضرر للسياسة

السوفيتية هذه تجاه إسرائيل ولسبب آخر هو أن إسرائيل تعرف أن روسيا لا تسمح عن طيب خاطر بهجرة هذه النخبة من الناس العمال الفنيين والميكانيكيين التي روسيا بأشد الحاجة إليهم والسكرتير الأول للحزب الشيوعي السوفياتي بريجنيف يتعرض لضغط أمريكي كبير بعد أن اشترطت الولايات المتحدة الأميركية لتقديم المساعدات الاقتصادية والتسهيلات التجارية السماح بهجرة اليهود إلى إسرائيل، وتعتمد روسيا بسياستها الاقتصادية على المساعدة الأميركية، وما كانت روسيا على استعداد لتعرقل مشاريعاً اقتصادية من أجل بضعة آلاف من اليهود.

وكان أنور السادات قد أشار مراراً إلى تلك الأخطار التي يلحقها المهاجرون الروس بالقضية العربية، وكان الاتحاد السوفيتي يعطيه أجوبة مبهمة وغير واضحة ولكن أنور السادات استطاع بالإشارة لتلك الأخطار بالحصول على المزيد من الأسلحة ونجح في تحقيق رغبته هذه، ويعلق الاتحاد السوفيتي أهمية كبيرة على التحالف مع العرب لأسباب مهمة، وقد سبق لماوتسي تونغ أن قال للعرب (إنكم أنتم تمسكون بقبضة الباب الذي منه نعبر إلى أوربا) وفسرت روسيا هذا القول من ماوتسي تونغ بأهداف توسعية سياسية للصين مما جعل بريجنيف يسعى لتثبيت أقدامه في هذا الباب الذي يريد الصينيون دخوله.

في ١٤ أيار سنة ١٩٧٢ يأتي وزير الدفاع الروسي الماريشال (أندريه غريتشكو (Andrei Gritchoo) إلى القاهرة يستقبله السادات المبتسم البشوش الوجه ولا يبدل غريتشكو من تعابير وجهه المقطب والعابس، يرد التحية بهز رأسه فقط ويخلف انطباعاً بان سيداً مستعمراً يزور مستعمرته،

وكان جو المحادثات بارداً جداً وبحث في الاجتماع موضوع توريد الأسلحة لمصر وسورية ورفض غريتشكو إرسال أسلحة هجومية وكذلك رفض طلب المصريين بتوريد قاذفات قنابل بعيدة المدى وغضب وزير الحربية المصرية آنذالك الفريق أول محمد أحمد صادق وهاجم غريتشكو بقوله (إننا ندفع لكم ۲۰۰۰۰۰ دولار لدبابة قديمة مستعملة حيث تبيعونها لكل العالم بنصف هذا السعر) ولم يتغير جو المحادثات بعد هذا الهجوم من صادق ورد عليه غريتشكو بكلمات قاسية قائلاً (ليس عندي أي قناعة بأنكم ستنتصرون، وهزيمة عربية أخرى من شأنها أن تحرجنا وهي في نفس الوقت هزيمة لأسلحتنا التي بها سوف تخسرون الحرب بلا شك، ولن نعطيكم أي شيء يغريكم بالهجوم) وفي ذلك الوقت لم تكن مصر تملك أي معدات من الجسور لتعبر القناة ورفض غريتشكو تزويد مصر قوارب هجوم وجسور بونتون، لكن الإصرار المصري حقق في النهاية نصراً حيث ذكر في البيان المشترك بنهاية المباحثات ضرورة مضاعفة القوة الدفاعية المصرية، وزيارة غريتشكو أغضبت المصريين وأهان شعورهم بإظهار شكوكه في روحهم القتالية وإرادتهم على النصر ومعنوياتهم بصورة عامة. مما أثار مشاعرهم ودفع السادات في شهر تموز ۱۹۷۲ إلى إبعاد المستشارين العسكريين السوفييت من مصر، موقناً بأن كل تحضير للحرب يمكن عرقلته من قبل السوفييت الموجودين في القاهرة وأن هدف موسكو هو منع قيام الحرب والحيلولة دون هجوم المصريين بأي حال من الأحوال لذلك تخلص السادات من العائق الأول وهو المستشارين العسكريين السوفييت بعد أن انتقلت طريقة استعمال صواريخ سام إلى يد المصريين

وأصبحوا في وضع يؤهلهم من استخدامها وإدارتها، وصرح صادق (وأخيراً أصبحنا سادة في بلادنا) مما عجل في إبعاده عن منصبه بعد تصريحه هذا.

وقابلت موسكو إبعاد مستشاريها وضباطها بهدوء دون رد فعل كبير وهذه الصفعة التي صفع بها المصريون السوفييت أمام الرأي العام العالمي يقابلها غريتشكو بتوريد قطع جسور البونتون لعبور القناة، وفجأة رأت روسيا في هذه الجسور أسلحة دفاعية حيث كانت تعتبرها أسلحة هجومية حتى الآن، وفي الأشهر الأخيرة من عام ١٩٧٢ بدأ غريتشكو تدريجياً يتنازل عن مواقفه المتصلبة تجاه الرغبات المصرية باستيراد أسلحة جديدة من الاتحاد السوفيتي، وبدأت تتدفق على مصر صواريخ سام ٦ والشحنات كانت تتابع لفترات متقطعة، واقتنع وزير الدفاع السوفيتي تدريجياً بأن المصريين بوضع يؤهلهم من تحقيق انتصارات في حرب محدودة، مما يمكن من إعادة فتح قناة السويس والروس بأشد الحاجة لها من أجل بحريتهم، وقبل قرنين ونصف كان القيصر الروسي بطرس الكبير قد خلف وصية بأن يخفق العلم الروسي في الخليج العربي وأوضح الروس كيف كان يتصور السياسة الروسية المقبلة التي حددها بالانطلاق الروسي في مخارج البحر الأسود وفي البحر المتوسط وفي الخليج العربي وأوصى بطرس الكبير في وصيته التي خلفها سنة ١٧٢٥ بقوله (علينا أن نحقق انتصاراتنا بشكل جزئي الواحد بعد الآخر ثم ننزل إلى المستوى العالمي لنكون على قدم وساق مع الدول الكبرى الأخرى) وأوصى بأن تتقدم روسيا تدريجياً لتصل القسطنطينية والمحيط الهندي وبهذه السياسة لابد وأن تثبت روسيا نفوذها بالخليج العربي وقال يومذاك (من يحكم بالخليج العربي

فهو سيد العالم") وبقيت هذه أسس السياسة الروسية عبر التاريخ حتى بريجنيف، وبريجنييف رسول التعايش السلمي، لا يفكر بمطامع واستيلاءات كان يفكر دوماً بتوسيع النفوذ الروسي، واستطاع الاتحاد السوفيتي الخروج من البحر المتوسط وأصبحت (الاسكادر الثالثة ـ (Dritte Eskarda) البحرية الروسية تقريباً بنفس قوة الأسطول السادس الأميركي في البحر الأبيض المتوسط. ويحسب الحلف الأطلسي حساباً للأسطور الروسي (الاسكادار) في البحر المتوسط في سياسته الدفاعية فيما يتعلق بالجناح الجنوبي للحلف الأطلسي، ويحقق بذلك إحدى آمال بطرس الكبير في وصيته، وموسكو الآن تبدأ بالتحضير للمرحلة الأخيرة حيث أقامت قاعدة في الخليج العربي وارتبطت مع العراق بمعاهدة صداقة التي تتضمن تعاوناً سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وحددت صلاحيات العراق العسكرية في هذه الاتفاقية، وأصبح العراق لا يستطيع أن يدخل في أي اتحاد عسكري في المستقبل من شأنه أن يعطي انطباعاً موجهاً ضد الاتحاد السوفيتي. وبالمصادفة التي تمت بين رئيس الحكومة السوفياتية أليكسي كوسيجين ورئيس الجمهورية العراقية أحمد حسن البكر افتتح ميناء البصرة أمام الروس. واستعمال ميناء البصرة من قبل الروس يقدم لهم منافع جزئية حيث تقع البصرة في شط العرب حيث تتنازع العراق مع إيران على السيادة في هذا الممر المائي، ويتعرض الممر المائي للأخطار عند قيام الأزمات بين الطرفين المتنازعين وامتداد النفوذ الروسي إلى العراق يجلب معه تيارات ثورية لإمارات الخليج العربية المحافظة ولا يعطيها أملاً بالاستمرار بقيامها بالسنوات العشر القادمة، ولا يستبعد أبداً أن يسيطر العراق في زمن

قريب على إمارة الكويت وبذلك يتهيأ للعراق وهو صديق الاتحاد السوفيتي فرص للقيام بتوسيع ميناء البصرة على أرض واسعة كبيرة والتي بالإمكان أن تصبح قاعدة بحرية كبيرة في المستقبل ويعود سبب اندلاع الخلافات بين العراق والكويت بالفترة الأخيرة إلى حاجة العراق القصوى إلى أرض صلبة متينة لتوسيع بناء الميناء حيث لا يقدم الساحل العراقي الظروف الطبوغرافية اللازمة لذلك: وكشف روسيا النطاق عن أغراضها الإستراتيجية والاقتصادية في منطقة يكمن فيها أكبر احتياطي للبترول في العالم الذي يقع تحت الخليج العربي في قاع البحر. حيث يتوجب على الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٨٠ أن يعتمد على استيراد حاجته من البترول من الخارج ويكفي احتياطي روسيا من البترول حتى عام ١٩٨٠ لكن بعد هذا الوقت لابد لها من الاعتماد على مصادر أخرى في تغطية حاجاتها من البترول من الخارج.

واستطاع الاتحاد السوفيتي أن يوسع نفوذه في البحر المتوسط وفي الخليج العربي دون أن يكون بين هاتين المنطقتين رابطة أو طريق يربطهما وهو قناة السويس المعطلة وهدف وزير الدفاع السوفيتي هو إعادة فتح القناة ولكن لإعادة فتحها يشترط أنور السادات انسحاب إسرائيل حتى ٣٠كم من الضفة الشرقية واقترحت الولايات المتحدة وروسيا معاً على غولدامائير أن تسحب قواتها حتى ممرات (متلا) دون إجابة من غولدامائير رغم أن السادات أعلن عن استعداده لعدم إرسال قوات عسكرية مصرية للضفة الشرقية للقناة فيما إذا لبت إسرائيل هذا النداء، ورغم ذلك لم تبدأ الحكومة الإسرائيلية أي رد فعل ولم تر من مصالحها إعادة فتح قناة السويس، ولا ترضى الولايات المتحدة

ضمناً عن موقف إسرائيل وبرغم سياسة التعايش السلمي لا تريد الولايات المتحدة أن تقوم روسيا بكسب نقاط إستراتيجية.

وكان في قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي خصوم لبريجنيف يرفضون نتائج التعايش السلمي ويتهمونه بأنه لا يساند العرب في كفاحهم العادل ويمدهم بالأسلحة اللازمة كما كان يضغط على بريجينف لإعادة فتح قناة السويس مما دفعه للسماح لمصر للقيام بحرب محدودة يكون من نتيجتها فتح قناة السويس وترك للرئيس المصري السادات مطلق الصلاحية للتحضير لهذه الخطة وأفصح عن هذا الهدف في بلاغ روسي مصري مشترك ورد فيه أن كلا الطرفين لهما نفس الرأي باستعمال كل الوسائل الممكنة لاستعادة الأراضي المحتلة وكانت عبارة (كل الوسائل) تخفي الرضاء ضمنياً للاتحاد السوفيتي بهجوم مصري لكن على شرط أن لا تكون مناطق داخل إسرائيل هدفاً لهذه الحرب.

ولم يخالف أنور السادات بنود هذا الاتفاق حيث توقف الجيشان المصريان الثاني والثالث بعد احتلال الضفة الشرقية لقناة السويس عن متابعة الهجوم وبدأوا ببناء وتوسيع تحصيناتهم وعادت قناة السويس تحت السيادة المصرية، ويكافئ الرئيس السادات الروس ويسمى أمهر رجال الاقتصاد المصري وخاصة في مجال الإعمار عثمان أحمد عثمان بمهمة إعادة تعمير منطقة القناة وفتح قناة السويس في أقرب وقت ممكن وعثمان أحمد عثمان معروف لدى الروس ويقدرون كفاءاته حيث كان يشغل منصب المدير الإداري في بناء السد العالي، وعهد إليه بشراء المعدات وتنظيم العمال اللازمين للعمل في إنشاء السد العالي. وتسمية هذا الرجل من قبل الرئيس السادات دلالة منه على تحقيق رغبة الروس

بإعادة فتح قناة السويس مما يهيئ للأسطول الروسي في صيف ١٩٧٤ حرية العمليات العسكرية في المحيط الهندي والخليج العربي.

شركة (أولريش هارنز Ulrich Harns) المحدودة في هامبورغ للإنقاذ والغطس البحري تقوم باتصالات بهيئة قناة السويس لتفرغ القناة من السفن ومن حطام السفن الغارقة في القناة وتتقدم الشركة مع شركة يوغسلافية (برودوس باس ـ Brodospas) معاً يعرض للحكومة المصرية وكان العرض مقبولاً من قبل مصر.

في ١٦ تشرين الأول يأتي كوسيجين بنفسه للقاهرة في اليوم العاشر للحرب ويضغط على الرئيس أنور السادات للقبول بالهدنة ويرى كوسيجين أن هدف الحرب مهدد الآن وتكاد تضيع السيادة المصرية على قناة السويس من جديد حيث يقوم الإسرائيليون جنوب الإسماعيلية بتوسيع مراكزهم وتحصيناتهم على الضفة الغربية للقناة، وفي مساء ذلك اليوم ولأول مرة يتضح لأنور السادات تماماً مدى التغلغل الإسرائيلي على الضفة الغربية مما كلفه جهداً كبيراً في الحفاظ على أعصابه حيث كان في نفس اليوم بالذات قد أعلن في مجلس الشعب لأول مرة عن الانتصارات التي حققها الجيش المصري وكان السادات قد رفض اقتراح كوسيجين بوقف إطلاق النار فوراً ورأى السادات أنه الآن بعد أن أصبح الموقف خطر جداً لابد له من انتصارات وأرض ثابتة تحت قدميه فطالب السادات بضمانات روسية خطية بأن الروس سوف يجبرون الإسرائيليين على الانسحاب من سيناء، وطالب بالتعهد الخطي من بريجينيف نفسه ولم يكن كوسيجين يعتقد بأن بريجينيف على استعداد لإعطاء تعهد

خطي بهذا الشكل، يضاف إلى ذلك أن الوقت ضيق جداً والقوات الإسرائيلية بقيادة آريل شارون تتقدم باتجاه السويس، رغم ذلك كله أصر السادات على هذا التعهد الخطي. وفي ١٩ تشرين الأول يعود كوسيجين إلى موسكو ويخبر بريجينف بنتائج محادثاته بالقاهرة.

في الساعة الخامسة من صباح يوم ٢٢ تشرين الأول يسلم السفير السوفيتي في مصر (فينوغرادوف) للسادات هذا التعهد الخطي الذي طلبه، السادات يحوز الآن على تعهد خطي قيّم، لكن في الأيام الستة منذ قيام كوسيجين بزيارته الأولى إلى القاهرة أضاعت مصر أجزاء كبيرة من أراضيها، لم يبال أنور السادات بضياع مناطق كبيرة من الأراضي المصرية طالما أنه حصل على تعهد خطي لأن روسيا سوف تجبر إسرائيل على التراجع عن الأراضي العربية التي احتلها في الضفة الغربية وبالتالي من سيناء.

وبعد استلام السادات التعهد الخطي بـ ٢٤ ساعة يعلن قبوله بوقف إطلاق النار، ومن جملة ما ورد في البيان المصري الرسمي عن قبول وقف إطلاق النار أن مصر دفعت إلى ذلك بعد حصولها على تعهدات من الاتحاد السوفيتي وكان بريجنيف قد وعد حتى بإرسال قوات روسية لإجبار الإسرائيليين على احترام وقف إطلاق النار وبناء على رغبة الرئيس المصري أرسل وزير الدفاع الروسي (٧٠٠٠) مراقب روسي إلى القاهرة من كبار الضباط.

وفي يوم ٢٦ تشرين الأول سمع السادات أنباء سارة من موسكو حيث كان يتكلم بريجنيف أمام مؤتمر عالمي للقوى السلمية حيث أكد تعهده لمصر وطالب في خطابه الذي ألقاه في المؤتمر باحترام قرار مجلس الأمن الدولي

الصادر بتاريخ ٢٢ تشرين الأول من قبل إسرائيل. وكان القرار قد طالب إسرائيل بالانسحاب من الأراضي العربية وقال بريجينف (إن الاتحاد السوفيتي في حال انسحاب الإسرائيليين من الأراضي العربية فإنه على استعداد مع دول أخرى لضمان حدود إسرائيل).

القاعدة المالية تقول: (إذا كنت مديناً لمصرفك بألف دولار فتكون أنت في يد البنك، وإذا كنت مديناً للبنك بعشرة ملايين دولار فيكون البنك بيدك)، وهذه القاعدة تطبق على الاتحاد السوفيتي حيث تدين مصر للاتحاد السوفيتي بما يعادل ١٥ مليار مارك. وبتقدير الجريدة المصرية "الأهرام" يعادل هذا المبلغ ثمن الأراضي الزراعية المنتجة في مصر كلها. مما يعطي روسيا الشعور وكأنها تملك كل الأراضي الزراعية المنتجة في مصر، ولكن ذلك ما كان يزعج المصريين، أنور السادات كان قد حصل على وعود بأن موسكو لن تطالب بأسعار الأسلحة التي أرسلت لمصر في الأسابيع الأخيرة، وزير الإسكان والتعمير الجديد عثمان أحمد عثمان يعتقد بأن روسيا بالنظر لمصالحها الخارجية سوف تساعد مالياً بمساعدات كبيرة لإعادة تعمير منطقة قناة السويس وملحقاتها من أبنية وغير ذلك مثل محطات ومكاتب وغيره. وكان لمصر سبب معقول لا يجعلها تغضب كثيرا لرفع الاتحاد السوفيتي لعدد المهاجرين اليهود إلى إسرائيل حيث قدم الاتحاد السوفيتي تضحيات كبيرة للعرب في معاركهم لكن رغم ذلك تتضخم الفوائد بهذه الضحايا المادية بعد وقف إطلاق النار (أي أن التضحيات المادية التي قدمتها روسيا قد أعطت ثمارها) لم يعد الروس بنظر المسلمين المتعصبين هم الكفرة الذين على المؤمنين أن يتحاشوهم وكان الملك فيصل من ألد أعداء

الملحدين الروس بقوله: (إن الشيوعيين لا يؤمنون بأن الله قد خلق العالم وبهذا لا يمكن أن يكونوا بشراً طيبين) وكون هؤلاء الملحدين قد قدموا للعرب صواريخ سام ٦ غيرت من رأي الملك وبدأ بالتخطيط لزيارة للاتحاد السوفيتي.

ونصح أمير البحرين ألا يجدد عقد استعمال القاعدة البحرية (الجفر Dschofer) مع أميركا لاستخدامها من قبلها والشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير البحرين قبل بنصيحة الملك؛ مما يعني أنه على البحرية الأمريكية أن تجلو عن القاعدة في خلال عشرة أشهر والقاعدة البحرية الجفر هي القاعدة البحرية الوحيدة بين البحر المتوسط والمحيط الهندي للبحرية الأمريكية حيث تستعملها للتموين والتصليح. وكانت البحرين قد أعلنت في شهر كانون الأول عام ١٩٧١ عن استعدادها لمنح الأميركان حق استعمال القاعدة.

ولا يستبعد أبداً أن يحل الأسطول الروسي مكان الأسطول الأميركي في الخليج العربي.

الانتصارات والنتائج السلبية لحرب البترول

في ٦ تشرين الثاني يحقق العرب انتصاراً في أول معركة في حرب البترول، وزراء خارجية السوق الأوربية المشتركة يطالبون إسرائيل بالانسحاب من الأراضي التي احتلها عام ١٩٦٧ويطالبون إسرائيل أيضاً بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة وبذلك يقف وزراء خارجية السوق الأوربية المشتركة إلى جانب العرب.

وكان الوزراء قد اتفقوا على هذا البيان الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والخمسين صباحاً بعد عشاء امتد حتى ساعات الصباح الأولى، وفي نهاية العشاء صرح مندوب وزارة الخارجية البريطانية بأن الوضع يقتضي تصريحاً بهذا الخصوص من الوزراء فيما يتعلق بمشكلة الشرق الأوسط ولم يكن الوزراء قد حضروا أنفسهم للبحث في هذه القضية.

وكان هذا القرار يهدف بالدرجة الأولى لإنقاذ الموقف في هولندا حيث تهدد المقاطعة العربية ميناء وتردام البترولي وفي نفس الوقت أملت السوق الأوربية المشتركة من تأييد القضية العربية بعدم التشدد في الحصار البترولي ولم يكن الوزراء قد فكروا باتخاذ موقف في الساعات الأولى وهذا يوافق تماماً محتوى ومضمون قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ وكبادرة طيبة تجاه إسرائيل أكدوا

على حق إسرائيل بحدود آمنة مضمونة وللآذان العربية أكد الوزراء بشدة على رجائهم بانسحاب إسرائيل لخط الهدنة في ٢٢ تشرين الأول وكان أنور السادات في ٦ تشرين الثاني قد وجد تأييداً في أوربا وراديو القاهرة يشيد بهذا التحول في الموقف الأوروبي ورأي العرب في ذلك تحولاً واضحاً في الرأي العام العالمي الذي كانت تطغى عليه الدعاية الصهيونية وبدأ الرأي العام الأوربي يتحرر لأول مرة من النفوذ الصهيوني الذي لازال يسيطر حتى الآن على الولايات المتحدة الأمريكية ورأت المنظمات الفلسطينية بتعجب أن القرار الأوربي يتحدث لأول مرة عن الشعب الفلسطيني وليس عن اللاجئين الفلسطينيين.

ورأى العرب في هذا القرار نصراً كاملاً لأن إسرائيل عبرت عن غضبها على ذلك القرار الأوربي ورأت فيه ضربة للسياسة الإسرائيلية واحتجت غولدامائير في رسائل لرؤساء حكومات الدول الأوربية لتأييدهم الواضح للموقف العربي ورأت مائير في ذلك رضوخ الحكومات الأوربية في الضغط العربي وثار غضب أبا إيبان بأن الوزراء فاقوا في قرارهم قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لطلبهم بكل صراحة انسحاب القوات الإسرائيلية من كل الأراضي العربية.

وخيبة الأمل في إسرائيل كان لها صدى غضب كبير وتركز بصورة خاصة على ألمانيا الغربية. وزارة الخارجية في تل أبيب أعلنت عن عزمها على امتحان العلاقات بينها وبين ألمانيا الغربية وهاجم السفير الإسرائيلي في ألمانيا الغربية (بن هورين Ben Horin) سياسة ألمانيا الغربية تجاه الموقف في الشرق الأوسط بقوله "الخلاف لا يدور حول جولة كرة قدم بل يدور حول الوجود الإسرائيلي بكامله ووجود إسرائيل ليس له أي علاقة بقيام مشعات التدفئة بوظيفتها كاملة".

والحكومات الأوربية تؤيد القرار الصادر عن وزراء خارجيتها وإسرائيل كانت تلاقي تأييداً غير رسمي وبقي قرار وزراء خارجية السوق الأوربية المشتركة دون تبديل أو تغيير وعلى إسرائيل أن تتراجع من الأراضي العربية المحتلة. وعبر الملوك والأمراء والرؤساء العرب عن رضاهم. وأن تهديدهم لمقاطعة بترولية قد حقق أول نجاح. وبكل رضا وامتنان بدأ الملك فيصل يتطلع للارتباك والفوضى التي عمت أوربا حيث بدأ التقنين باستعمال المواد المحترقة، منع السفر بالسيارات آيام الآحاد والعطل الرسمية، التهافت على التخزين، وساد الخوف من البطالة وضياع أماكن العمل وكانت المعلومات تصل إلى الملك بصورة منتظمة حول تطورات الموقف في أوربا وكان بدوره يطلع أمراء دول الخليج العربي على تطورات الموقف في جهة "حرب البترول". وسرعان ما تبدل خوف الأمراء من أن تعود عليهم هذه المقاطعة بأضرار ونتائج ما كانوا يتوقعونها، وكانت النجاحات أكثر مما كانوا يتصورنها، ولأول مرة يدرك العرب أي سلاح قوي في يدهم وإلى أي درجة يعتمد العالم أجمع على بترولهم وازدادت شعبية الملك فيصل في العالم العربي وزاد أمل الجماهير العربية بأن يحقق فيصل ما أخفق السادات في تحقيقه بجيوشه وهو استعادة صحراء سيناء ومرتفعات الجولان وقبل كل شيء استعادة مدينة القدس.

وكان الملك فيصل قد جعل ذلك أهم هدف في حياته قبل موته أن يصلي ولو مرة واحدة في المسجد الأقصى في القدس والملك يبلغ من العمر ٦٧ سنة وحالته الصحية ليست على ما يرام، لكنه يدرك تماماً أن الانتصارات التي حققتها المقاطعة البترولية حتى الآن نصر معنوي. إذ لم يكن يُعد من شأن

تصريح وزراء خارجية دول السوق الأوربية المشتركة انسحاب إسرائيل وحتى للفلسطينيين لم يوجد في ذلك التصريح بعد أي حل وإسرائيل تبقى متعنتة كما كانت ولكن للأسف بعد أربعة أسابيع من وقف العمليات العسكرية يبدأ التضامن العربي يتصدع وتحدث فيه الثغرات ويتفكك. وتماماً كما ضعفت عزيمة قادة القطعات في سيناء بعد إحراز الانتصارات الأولى قنع كذلك الزعماء العرب بالانتصارات الأولى التي حققوها في حرب البترول وأشار المسؤولون إلى شاه إيران الذي نصح العرب بأن ينهوا حرب المقاطعة البترولية لأن هناك دلائل على أن حلاً سلمياً يوشك الحصول، ويقول الشاه "البترول كالخبز وليس لأي إنسان في العالم الحق أن يجوع الناس" ويجتمع في منتصف تشرين الثاني في فيينا وزراء الطاقة بالدول المنتجة للبترول الذي يبلغ عددهم ١٢ مندوباً ولم يكونوا جميعهم راضين عن المقاطعة مما كان من شأنه أن يحصل نوع من المعارضة وللمفاجأة أنه كان في صف المعارضين العراق وليبيا.

وكان العراق قد قلل الإنتاج والضخ في أنابيبه التي تمر من لبنان وسورية في أيام الحرب وما كادت الحرب تتوقف حتى عاد العراق للضخ بكل الإمكانيات وأصبحت الأنابيب تنقل يومياً ١١٣،١٠ مليون ليتر وهي الطاقة الكبرى للأنابيب ويقول وزير النفط العراقي "إن تقليل الإنتاج العام ليس له معنى لأننا نؤذي بذلك أعداء وأصدقاء" ويقول "إن أحسن سلاح مجدٍ ضد الولايات المتحدة هو تأميم الاحتكارات الأميركية" وتساءل الوزير العراقي "لماذا لا يقوم الملك فيصل وأمراء الخليج العربي بسحب أموالهم من المصارف الأميركية مما يؤدي لإيذائها" حيث كانت الحكومة العراقية قد أممت أسهم

شركة "بصرة بتروليوم كومباني .Bassra Petroleum co" بعد ٢٤ ساعة من قيام الحرب وكانت الشركات الأميركية "استاندرد أويل أوف نيوجرسي Standard oil o New Jersey" و"موبيل أويل Mobil Oil" يحصلون على ٢٣،٧٥٪ من أسهم شركة "بصرة بتروليوم كومباني" لكن كان لهذا التأميم بعض المصاعب وقد تجلت هذه المصاعب بأن الاحتكارات العالمية لم تشتر البترول من العراق كنوع من التضامن مع الاحتكارات التي ألحق الضرر بها من جراء هذا التأميم.

وكان البترول يتجمع في المستودعات ينتظر النقل وحكومة أحمد حسن البكر بأشد الحاجة للقطع النادر الذي تحصل عليه من البترول والوضع كان صعباً جداً حيث من الصعب جداً توقيف الضخ لأن البترول ينبع باستمرار وإذا اتخذت إجراءات جذرية توقف إنتاج البترول فما من شك بأن ذلك سيلحق أضراراً كبيرة في آبار البترول حيث يتطلب في المستقبل إعادة حفرها من جديد، مسبباً نفقات مالية كبيرة.

وما كان أحمد حسن البكر في وضع يمكنه من المغامرة بإلحاق أضرار كبيرة باقتصاديات بلاده لأن العراقيين يعيشون بالدرجة الأولى على واردات البترول لهذا قام أحمد حسن البكر بطعن الرؤساء العرب الآخرين والملوك الأمراء الذين قاموا بالمقاطعة من الخلف بعدم التضامن معهم، والملك فيصل كان يلح في مطلع شهر تشرين الثاني على حكومة اليابان بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل حيث تستورد اليابان ٩٥٪ من حاجاتها البترولية من الشرق الأوسط وكان رأي فيصل أنه من حق العرب بأن يطالبوا اليابان باتخاذ موقف صريح واضح تجاه

إسرائيل، بل طلب أيضاً من اليابان بقطع العلاقات مع إسرائيل وهدد وزير البترول العربي السعودي "إذا لم تقبل اليابان بشروطنا فلن تحصل على بترول وعليها أن تحصل على بترول في أسواق أخرى غير أسوقنا".

وسرعان ما يقوم العراق بتقديم العروض لليابان ببيعها البترول بأسعار مناسبة أكثر ويعرض على اليابان ٢ مليون طن من البترول سنوياً وهي الكمية التي أممها والتي تعادل ٢٣,٧٥٪ من شركة "بصرى بتروليوم كومباني" ولكن بهذه الكمية لا تغطي اليابان احتياجاتها من البترول ولكن ذلك يقدم بعض العون لليابان للتغلب على الأزمة، وضغط الملك فيصل السياسي على اليابان يفقد من فاعليته.

ولا تقوم اليابان بشراء البترول العراقي خوفاً من غضب الملك العربي السعودي وبالوقت نفسه لم تفكر اليابان بإثارة غضب الاحتكارات العالمية بشرائها للبترول العراقي لأنها لازالت تعتقد بأن شركة "ستاندرد أويل أوفنيوجرسي" لازالت تتمتع في الحق في بترولها المؤمم، يضاف إلى ذلك أن نوعية بترول البصرة ليست نوعية ممتازة.

والعراق الذي طعن حرب البترول من الخلف اتهم السعودية بالنفاق والخداع وادعى أن البترول السعودي لازال يصل إلى المصافي الأميركية والمندوب الليبي في مؤتمر فيينا كان موقفه حيادياً لأن تعليمات رئيسه معمر القذافي كانت غير واضحة ومبهمة وما كان يعرف أي موقف سيتخذه بالمؤتمر وكان يود الرئيس الليبي أن يقوم بنفسه بزيارة العواصم الأوروبية ليشرح شخصياً سياسته البترولية. وبعد إحراج الصحفيين للمندوب الليبي يعترف بأن

الإنتاج البترولي في ليبيا والتسويق قد خفض بمقدار ضئيل جداً حتى الناقلات الأميركية كانت تعبأ بالبترول مما دعا الدول العربية الأخرى المنتجة للبترول بعدم التشدد بالحصار الذي قاموا به وترك لكل بلد حرية التصرف وكانت مصر قد أيدت التساهل في المقاطعة بحجة أن أوربا قد اتخذت موقفاً صريحاً مؤيداً للقضية العربية ولم تعد مصر ترى سبباً لمعاقبة أوربا.

وكان الملك فيصل يتطلع، كيف بدأت الجبهة العربية البترولية تتفكك دون أن يفقد الأمل بل زاد أمله بعودة القدس للسيادة العربية ويصمم الملك على متابعة حرب البترول بكل صلابة ودون تراخٍ حيث أوكل لابنه "سعود الفيصل" بتنظيم المقاطعة ويحمل ابنه لقب أمين عام في مؤسسة تصدير البترول وسئل الأمير فيما إذا كان على يقين من أن الولايات المتحدة الأمريكية لا يصلها بترول من العربية السعودية؟

فكان جوابه واضحاً أن السعودية أقامت نظاماً للتفتيش وكل ناقلة تحمل أوراقاً منا يظهر عليها بوضوح كمية وهدف الناقلة وكنا طلبنا من الحكومة التي كانت تصلها الناقلات بالمصادقة على خط سير الناقلات وعلى الكمية التي وصلتها وأوكلنا إلى ممثلينا في الدول المعنية بالتحقق من ذلك ولنا ممثلون شباب في كل البلاد يهتمون كثيراً بتنفيذ المقاطعة.

السؤال الثاني: هل تعتقد بأنه بإمكانكم إخضاع الولايات المتحدة الأميركية؟

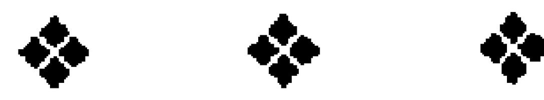
جواب: على أمريكا أن تعرف تماماً أين هي مصالحها وعليها أن تقرر فيما إذا أرادت أن تقيم علاقات صداقة بينها والمملكة العربية السعودية لم تألُ

جهداً في الحفاظ على العلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة الأمريكية وللطرفين مصالح مشتركة.

السؤال الثالث: سمعة الحرب تتأثر بالمقاطعة البترولية، فهل يزعجكم ذلك؟

الجواب: نعلم تماماً بذلك لكن حصارنا ليس ضد الشعوب بل ضد الحكومات التي عليها أن تبذل أيضاً بعض الجهد الفعال لتحقيق مقررات مجلس الأمن الدولي. بقينا ٢٥ عاماً ننتظر وحذرنا مراراً وتكراراً العالم، والآن نحرك ضمائر العالم بحنفيات البترول. وعلى العالم أن يدرك أخيراً أن هناك شعباً فلسطينياً قاسى طيلة ٢٥ عاماً، شعب جائع يقاسي البرد والشتاء القارس وطالما لا يوجد حل عادل ومشرف للشعب الفلسطيني، سوف تلاقي أوربا وأمريكا الصعوبات من الحصار البترولي.

وأجبر الملك فيصل في شهر كانون الأول قبل انعقاد مؤتمر السلم في جنيف الدول المنتجة للبترول للمرة الثانية على التضامن. لكنه تساهل نوعاً ما حيث قال: "إذا وعدت إسرائيل بالجلاء من الأراضي المحتلة سوف يعود البترول ليسيل من جديد في الأنابيب.



الرئيس الليبي لا يريد أن يشترك في لعبة مكشوفة مبيتة

معمر القذافي رئيس الجمهورية الليبية يتهم أنور السادات بالخداع ويقول: "أنه ما أشعل الحرب مضحياً بالآلاف من الجنود إلا ليجر العرب إلى مائدة المباحثات السلمية وقد أخفت مصر وسورية عن قصد عني ما كان قد أتما قراره وما كان علينا نحن الرؤساء العرب الآخرين في مؤتمر الجزائر إلا أن نقول نعم لمخططاتهم ونعطي موافقتنا على الاعتراف بإسرائيل. وما كان دورنا دور المتفرجين في خطة مصر وسورية للاعتراف بإسرائيل وإقامة السلام معها. وكانوا يطلبون منا الموافقة على الاستسلام واتهم القذافي السادات بأنه كان لعبة بيد الدولتين الكبيرتين الولايات المتحدة وروسيا لتنفيذ مآربهما الخاصة الآتية، ولا يجد القذافي فرقاً بين كيسينغر وغروميكو.

وكان يرى القذافي في الحرب بالظروف التي قامت بها وفي الفترة التي تلتها وكل ما حدث من محادثات وأخذ ورد وليس إلا كفلم أتقن إخراجه ودرس كل مشهد وحادث فيه مسبقاً.

وقبل بضعة أيام من قيام الحرب يصل نبأ للرئيس الليبي بأن خطة "بدر" توشك الوقوع ويعبر معمر القذافي عن رضاه الكامل وينقل هذا إلى القاهرة ويقول

إني سعيد جداً بوضع حد لهذه الحالة التي ليست هي حرب وليست سلام. ولكن عندما اندلعت الحرب في ٦ تشرين الأول قال القذافي "لا أوافق على استراتيجية الحرب ولا على موعد قيامها. هذه ليست حربي" مما جعل السادات يتعجب لهذا الموقف ولكن أحداث ما سبق ذلك مع ليبيا تفسر ذلك الموقف.

وعند قيام الثورة الليبية بعد سنتين من حرب حزيران عام ١٩٦٧ كانت كلمة السر للضباط الذين قاموا للانقلاب "القدس" ومن إحدى حجج الضباط بلقيام بالانقلاب على الملك إدريس السنوسي أنه لم يعر أي اهتمام لاستعادة الأراضي المحتلة وخاصة القدس ولم يقدم المعونة المالية اللازمة بل كانت معونته ضئيلة جداً. وكان الضباط يهدفون لوضع كل الإمكانيات المالية وما يدره البترول من أرباح في خدمة تحرير فلسطين ولكن ما كانوا ليعرفوا لمن يقدمون تلك الأموال وسرعان ما ظهرت المنظمات الفلسطينية وأبدت رغبتها باستلام هذه الأموال مما جعل ليبيا تقدم للمنظمات الفلسطينية ٥٠٠ مليون دولار.

ولكن الخلافات ما بين المنظمات الفدائية الإحدى عشرة وعدم اتفاقها على قيادة عامة أثارت الرئيس الليبي ولم يجد تنظيماً وتنسيقاً لأعمال المنظمات الفلسطينية وحركاتها الفدائية، والعمليات الفدائية كانت غير منظمة وغير مكثفة وما كانت تحقق الانتصارات المرجوة وكان كل أمله أن تنسى المنظمات الفلسطينية خلافاتها العقائدية ومن رأيه أنه حري بها القيام بأعمالها داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة أفضل من أن تقوم بالخلافات الجانبية ومكافحة بعضها البعض في بيروت. ياسر عرفات يرد على هذه الاتهامات بتعليقات غير ودية مما وضع حداً لتأييد القذافي للمنظمات الفدائية.

ومعمر القذافي معروف بتعلقه بالقضايا العربية القومية وبرغبته في قيام الوحدة العربية الذي كان يرى في جمال عبد الناصر قدوة له وقام ليوثق عرى الصداقة مع أنور السادات ومن وحي ميوله للوحدة العربية نشأت فكرة وحدة مصر وليبيا، وكان القذافي يرى في الطاقة البشرية الكبرى لمصر وفي القدرة المالية الكبرى لليبيا محركاً ديناميكياً لهذا الاتحاد وتعجب هذه الفكرة أنور السادات ولكنه لم يكن متحمساً جداً لتصورات القذافي لشكل الحكم القادم بعد الوحدة لأن معمر القذافي المتعصب دينياً يرى في القرآن الدستور الوحيد الذي يعبر عن إرادة الله بل ويراه صالحاً لتطبيقه حتى في القرن العشرين وألغى القوانين السائدة في ليبيا وجعل من القرآن دستوراً للبلاد وكانت النتيجة بقطع يد اللصوص وأصبح سهلاً على الرجال طلاق زوجاتهم وكان على حلاقي السيدات أن يبحثوا عن مهن جديدة لأنه ليس للرجال حق في لمس النساء الغريبات.

وهذه التصورات لا يمكن لعقل أوربي أن يتقبلها أو يفهمها. وهي ترى آذاناً صاغية لدى بعض العرب. والمؤمنون العصريون بالإسلام، يرون في القرآن قبل كل شيء تحقيقاً لعدالة اجتماعية وردعاً للظلم والطغيان. لكن القذافي يقول "إن القرآن أكثر اشتراكية من تعاليم كارل ماركس". لكن أنور السادات الذي تكاد تكون عقليته أوربية تقريباً يخشى من إقامة دساتير يسخر منها الناس في لندن وباريس وفي أول المحادثات التي جرت مع الرئيس الليبي يرفض السادات منذ البداية رغبة الرئيس الليبي بمنع البيرة في مصر لأنه حسب رأي القذافي أن القرآن يمنع الكحول. بذلك يحول معمر القذافي نفسه دون تحقيق آماله بالوحدة مع مصر وفي حضور زوجة السادات المصرية يتحدث

القذافي عن المرأة المصرية وعن تصوراته في المستقبل للنظام الاجتماعي في الجمهورية العربية المتحدة القادمة بين مصر وليبيا ولا يرى القذافي للمرأة أي مكان في المجتمع وفي السياسة وبهذا يثير غضب المصريات الفخورات بتحررهن من قيود التخلف الاجتماعي الماضي ومن الانعزال ولأنهن تخلصن أيضاً من سلطة الرجل المطلقة ويتخوفن من ظروف قادمة تمنع النساء من قيادة السيارات وعندما تحدث عن ضعف المرأة الجسدي وأنها ليست بمكانة تؤهلها للقيام بمهمات يقوم بها الرجال قامت النساء المصريات ليقنعن أزواجهن برفض فكرة الاتحاد مع ليبيا رفضاً مطلقاً ونهائياً. ومعمر القذافي ضعيف البنية زاهد ودوماً متوتر الأعصاب لا يبدو عليه الرخاء والهدوء مطلقاً. وتوتر أعصابه وشكله يكادان يبعثان على الخوف. حينما يعزف النشيد الوطني ويقدم له العلم يأخذ التحية للعلم ويده ترتجف تحت سيدارته لتشنج عضلات ساعده البالغ. ويميل القذافي للابتسام والضحك لكن ابتساماته وضحكاته لا تدلان أبداً على رخاء. ولا يعرف أحد مطلقاً متى ولد هذا الرجل لأن والده كان بدوياً ولم يكن عند ولادة ابنه يعرف بوجود سجلات مدنية لقيد الولادات لكن كان يقدر عمر القذافي أثناء الحرب بحوالي ٣٢ عاماً. ويحكم القذافي بلده بكل تواضع كما حكم هارون الرشيد حيث يسافر في سيارة "فولكس فاكن - " باستطلاعات تفقدية ويظهر فجأة بالثكنات ودور البلديات، يطرد الموظفين حينما يفاجؤهم يشربون القهوة ويفتش كتب ودفاتر المصروفات، ليبيا يبلغ عدد سكانها ١.٨ مليون نسمة وإدارة البلاد تحتاج ليد صارمة من هذا النوع. وحكم كهذا في مصر التي يزيد عدد سكانها على ٣٠ مليون نسمة يعني كارثة

بالنسبة للبلاد ، ورغم ذلك يوجد كثير من الناس يتمنون أن يكون هذا الرجل يوماً ما رئيساً للبلاد في مصر وخاصة المسلمين المتعصبين ويقولون لمئات من السنين اضطهد الإسلام وأذل وأخيراً يأتي رجل يبعث الإسلام من جديد بتقاليده العريقة ومزاياه الفاضلة. والقذافي استطاع أن يجد له مؤيدين بين صفوف الضباط المصريين وفي صفوف المواطنين. وبدأ السادات يتخوف من ازدياد نفوذ الرئيس الليبي في مصر.

ومعمر القذافي نفسه يفسر أحياناً القرآن بلا تحفظ حسب رغبته وهذا ما كان يأخذه عليه أتباعه ومن يجدونه قدوة لهم وزواجه الثاني هو مثلاً لذلك فقد أعجب في إحدى إقاماته في المستشفى للعلاج بممرضة فطلق زوجته الأولى وتزوج الممرضة وهذا ما يسمح به الإسلام بكل سهولة وينسى أنه عندما طلق زوجته الأولى وتزوج الممرضة أن الأولى كانت حاملاً وبعد زواجه الثاني بأشهر قليلة ولد له طفل من زوجته الأولى المطلقة مما أثقل كاهله ولكن سرعان ما نسي الناس في البلاد العربية ذلك الخطأ للقذافي.

في الأول من أيلول عام ١٩٧٣ وقبل اندلاع الحرب بخمسة أسابيع كان من المقرر أن تتحد مصر وليبيا.

أنور السادات ومعمر القذافي لم يتمكنا قبل فترة وجيزة من هذا الموعد على الاتفاق على أسس الدولة الجديدة مما أجل موعد الاتحاد ويفشل هذا الاتفاق لم يعد يتوجب على ليبيا أن ترسل سلاحها الجوي وجيشها إلى قناة السويس. وبقيت الـ ٥٠ طائرة ميراج التي كانت ليبيا قد تلقتها حتى ذلك الوقت من فرنسا في مطاراتها على الأراضي الليبية.

وكان القذافي قد وعد في أيام الحرب الأولى بتقديم المساعدات المالية لكن ذلك بقي وعداً فقط دون تنفيذ وكانت أمنيته الأولى يوم الاتحاد مع مصر هي تسميته قائداً أعلى للجيش الموحد لأنه كان يعلم بأن القذافي ما كان ليعطي الظروف السياسية أي اعتبار فيما إذا قامت الحرب. وكان حتماً لا يمكن للقذافي في هذه الحال أن يتوقف عن الزحف على سيناء إذا اقتضت الظروف السياسية ذلك. وعندما أخبر السادات قبل اندلاع الحرب بقليل معمر القذافي عن قرب قيام الحرب لم يعلمه السادات بأن خطته كانت تقتضي بقيام حرب محدودة ثم يتبعها السادات بقبوله بقيام هدنة ووقف إطلاق النار، مما دفع القذافي ليشعر بأنه خدع من قبل السادات.

وفي ١٥ تشرين الثاني كتب الرئيس الليبي هذه الرسالة لأنور السادات:

"قالت الرسالة أن حرب تشرين الأول ١٩٧٣ وكل ما تبعها كان لا يتفق مطلقاً مع المادة ١٤ فقرة ٢ من دستور اتحاد الجمهوريات العربية (مصر وسوريا وليبيا) هذا الدستور الذي أقره (٤٠) مليون عربي.

عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف شرف للأمة العربية كلها ومصر والتقدم في بدء المعركة في الجولان كان قاطعاً على كفاءات وإمكانيات وشجاعة الجندي أمام العدو، هذا العدو الذي كان يهدد بيده اليسرى بعصا موسى وبيده اليمنى بقنابل نيكسون ولكن يا سيادة الرئيس في هذه الحرب التي قامت لتحرر الأراضي المحتلة وليس لتثبت شجاعة الجندي العربي، ضاعت أراضينا من جديد.

قمنا بهذه المرة بالمبادرة، قاتلنا بشجاعة، ألحقنا بالعدو خسارات فادحة بالأرواح والعتاد ولكننا قبلنا بهدنة أتاحت للعدو أن يعوض كل خسائره قبلنا بمحادثات مباشرة محققين بذلك رغبات العدو بل وتعترف بوجود إسرائيل..

يا سيادة الرئيس قاتلنا لتحرر الأراضي المحتلة، والآن نترك السلاح يصمت دون أن نحرر أراضينا، حاربنا من أجل استعادة شرفنا والآن يداس شرفنا بالوحل عند الكيلو متر ١٠١ بين القاهرة والسويس.

نتذكر جدارتك مكافحاً بالثورة المصرية، ننتظر أن تقدر دخول الأمة العربية كلها للمعركة أكثر مما فعلت بتقديم السلاح وأن تقدر الألوف من الضحايا.

ولازلنا نحتفظ بثقتنا بك في لحظة يشك فيها الغير، نحن والشعب الليبي نقف بجانبك في وقت يتخلى فيه عنك الغير. نصوت معك بمناوراتك السياسية وإعادتك للعلاقات مع الولايات المتحدة لكننا نندد بكل شدة بوقف إطلاق النار ولابد أن يستأنف القتال ولو بالسلاح الأبيض، النصر أو الاستسلام هو الذي كان ينهي الحروب عبر التاريخ وما يحدث عند الكيلو متر ١٠١ لا يبعث في نفسي إلا الغضب الشديد.

وآمل يا سيدي الرئيس أن تعود لتستأنف القتال وأن تترك المناورات السياسية.

يمكن للمرء أن يتنازل عن أراضيه لكن الشرف لابد من الحفاظ عليه".

معمر القذافي يهيئ نفسه ليقود العالم العربي وتصوراته هي تقريباً نفس تصورات أغلب الشعب في مصر، وكان الرئيس القذافي يقصد بأن لا تكون رسالته للسادات سرية بل أن تكون علنية آملاً أن يكون لها صدى في صفوف الجيش ومكاتب الموظفين وبين فئات الشعب عامة وأفراد الاتحاد الاشتراكي العربي. والقذافي يعرف ملل العرب من الأخذ والرد بين الدول الكبرى ورغبة الجماهير العربية بالتعبير عن إرادتها بنفسها.

يقف الآن رجلان بموقف الند للند أمام بعضهما البعض أنور السادات الذي يحسب للظروف السياسية حسابها صديق الدول الكبرى من جهة ومعمر القذافي من جهة ثانية الذي يود أن يصل بالأمة العربية لأمجاد وانتصارات دون أن يقيم اعتبارات لأي من الدول الكبرى. وينتظر القذافي فشل المسؤولين الأكبر سناً منه ليقوم بتقديم نفسه ليعيد للعرب أمجادهم في عصر الرسول العربي معتمداً على الأسلحة الحديثة أسلحة العصر. وفي عام ١٩٧٠ حاول القذافي بغاية السرية والكتمان شراء قنبلة ذرية مستعداً لدفع سعرها مهما بلغ الثمن ولكن محاولاته هذه باءت بالفشل ولم تكن روسيا أو الولايات المتحدة الأميركية على استعداد لبيعه القنبلة الذرية.

على إسرائيل أن تكسب الوقت

غولدامائير تلقى آخر خطاب لها في المجلس النيابي الإسرائيلي للتهيؤ للانتخابات التي ستقوم في ٣١ كانون الأول وقد تميز خطابها بعدم الثقة بالنفس بكلامها المتقطع تتبع بأصابعها الكلمات والسطور تحني رأسها فوق خطابها المكتوب على غير عادتها. وكان اجتماع المجلس النيابي قد أجل أكثر من مرة من يوم إلى يوم وكانت كل يوم تتبدل التكتلات السياسية في البلاد. بعد أن مضى وقت على زيارة كيسينغر لإسرائيل ومشكلة الجرحى في الأسر المصري والأسرى الإسرائيليين في مصر قد حلت. المحادثات مع مصر بدأت. الضباط المصريون والإسرائيليون يحيون بعضهم كزملاء.

والتأجيل المتكرر لانعقاد المجلس النيابي كان دليلاً على الظروف الصعبة والمشاكل التي كانت تواجه الحكومة الإسرائيلية بالسيطرة على الأمور بالوضع الجديد. حيث كان يطلب من غولدامائير أن توضح الخطوط السياسة في الفترة المقبلة حتى نهاية عام ١٩٧٣ وكانت الولايات المتحدة تنتظر من إسرائيل جواباً يتضمن مبادرة جديدة وأملاً من شأنه أن يحقق نجاحاً للمحادثات السلمية المقبلة وكانت غولدامائير قد غيرت نص خطابها مراراً وما كان في خطابها أي دليل على النية بالجلاء عن المناطق المحتلة. وقالت "إن عودتنا إلى حدود ما قبل ٥

حزيران ١٩٦٧ موضوع غير وارد إطلاقاً وغير قابل للنقاش. ومن شأن حدودنا القديمة قبل حزيران أن تغري العرب بالهجوم علينا".

وما كان خطابها يدل على تطورات أو نيات جديدة واجتمعت غولدامائير بعد خطابها هذا موشي دايان. وكان قد سبق اجتماعها مع دايان لقاء تم بينه وبين قائد قوات الأمم المتحدة على خطوط الهدنة في مصر الجنرال سيلاسفو حيث احتدم فيه النقاش بعد أن حصل اصطدام وعراك بالأيدي بين الجنود التابعين للأمم المتحدة والجنود الإسرائيليين عند نقطة التفتيش في الكيلو متر ١٠١ بين القاهرة والسويس.

وكان يسود المجلس النيابي جو من التوتر بسبب الصراع الانتخابي وبسبب الخلافات مع الولايات المتحدة الأمريكية حيث كان مطلوباً من إسرائيل أن توضح وجهة نظرها تجاه المحادثات السلمية المقبلة وكانت الحومة الإسرائيلية مقيدة التصرف بسبب الانتخابات القادمة وبنتيجة هذه الانتخابات كان يتعلق مصير القضية إما حرب أو سلم وكان "مناحيم بيغن" رئيس المعارضة يستغل كل تنازل في سياسة الحكومة ليشعل نار الحرب ضد الحكومة لكونه زعيم المعارضة الإسرائيلية بالانتخابات المقبلة حيث كان بيغن يطالب بوقف المحادثات السلمية التي لم يعلن المصريون والسوريون عن قبولهم بها. وزعيم المعارضة بيغن لم يكن ليلاقي صعوبات في المعركة الانتخابية لأنه كان يهدف لتحميل دايان وزير الدفاع وآبا إيبان وزير الخارجية مسؤولية عدم كسب إسرائيل للحرب واضطرابها في الأيام الأولى للحرب وكان يتهم وزير الخارجية الإسرائيلية بأنه لم يبذل جهداً كافياً ليحول بين عزل إسرائيل في المجال الدولي ويحمله مسؤولية طرد إسرائيل من إفريقيا.

آبا إيبان المتزن الهادئ يحاول الآن كل ما بوسعه لأن يحول بين الانشقاق في العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل ويحاول بأن يقلل من قيمة الضغط الذي يقوم به يومياً كيسينغر على إسرائيل حيث طلب كيسينغر من آبا إيبان مراراً تقديم خريطة تعبر إسرائيل عن الحدود التي تعتبرها حسب رأيها حدوداً آمنة، وكان موشي دايان يرى الموقف كذلك.

يقول دايان: "أن هناك خلافاً كبيراً في وجهات النظر بيننا وبين الولايات المتحدة حول الحدود الامنة المقبلة ولا يعني ذلك أبداً أن نقبل بالضغط الأميركي، ولم يسبق لفيتنام الجنوبية بأن رضخت للضغط الأميركي وإسرائيل أيضاً ليست فيتنام جنوبية".

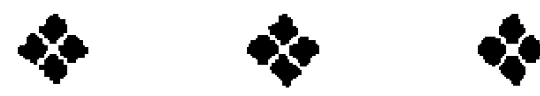
وكشف وزير الدفاع الإسرائيلي تصوراته للحدود المقبلة لإسرائيل وهي "على نهر الأردن أن يبقى حدوداً طبيعية لإسرائيل على إسرائيل أن تقيم محطات رادار على الهضاب المحيطة بمدينة نابلس وما حول ذلك من أراضٍ يمكن إعادتها للأردن وتقوم بدوريات عسكرية في المنطقة تكفل الحفاظ على الأمن.

وأما منطقة شرم الشيخ والقسم العربي لمدينة القدس فلن تعود للعرب "وهذا الموقف يقضي على الأمل بإمكانية حل سلمي ويتوافق مع موقف اليمين المتطرف.

وقبل موعد الانتخابات بأربعة أسابيع أجريت استفتاءات جديدة تبين منها تدني شعبية رئيسة الحكومة غولدامائير إذ أن ٤٥,١ بالمئة من الإسرائيليين يرغبون ببقاء مائير في منصبها كرئيسة للحكومات بعد الانتخابات، بينما كانت قد حصلت في استفتاء سابق جري في اليوم الذي

سبق الحرب على نسبة ٦٢ بالمئة. ومن هذه الإحصائيات تبين أن هناك هزيمة انتخابية تهدد حزب مائير.

لهذا السبب كان من الواجب البحث عن طريقة لإبعاد مسؤولية التقصير في حرب يوم عيد الغفران وإلقائها على عاتق أشخاص بعيدين عن مواقع السلطة، الجنرال حاييم هيرتزوغ يقول في حديث له في الإذاعة الإسرائيلية: إن مسؤولية الوضع الصعب الذي واجهنا في الأيام الأولى للحرب كانت نتيجة أخطاء جنودنا وشعبنا، الضباط وصف الضباط والأفراد لم يعودوا ليعتنون بمظهرهم، فعندما لا يقوم الجندي الإسرائيلي بالمحافظة على نظافة لباسه العسكري، ويسمح لنفسه بتربية ذقنه ويرسل شعره ولا يذهب إلى الحلاق، عندها كيف يمكن للمرء أن يطمئن إلى أن هذا الجندي يحافظ على سلاحه أو موتور دبابته بحالة جيدة وجاهزة للاستعمال.



"تغير مجرى السلام في الجزائر"

أنور السادات يرتدي بذلة سوداء في هذا المؤتمر ويدخن الغليون، رائحة التبغ التي كانت تصل إلى ثلاثة صفوف خلفه، لطيفة، ولكنه يحتاج إلى كمية كبيرة من أعواد الكبريت. أثناء إلقاء كلمة الافتتاح يقف السادات ليعانق أخيه الملك المغربي الحسن الذي كان قد حضر من طنجة إلى الجزائر على متن يخت - تتردد إشاعة بين الحاضرين مفادها بأن رئيس المخابرات في الرباط قد نصح ملكه ألاّ يسافر في الطائرة، إذ لا تزال ذكرى تلك التجربة المريرة في مخيلة الجميع وهي محاولة طائرات السلاح الجوي الملكي إسقاط طائرة الملك منذ عدة أشهر، وقد أعدم الطيارون الذين قاموا بتلك المحاولة.

الملك الحسن أرسل ببرقية إلى زملائه الملوك، والرؤساء يرجو تأجيل جلسة افتتاح المؤتمر حتى وصوله وكان أنور السادات قد وجد في هذا الطلب نوعاً من العجرفة وقلة اللباقة.

وكانت جلسات السياسيين العرب في قصر الأمة بالجزائر سرية، ولم تحضر كل من ليبيا والعراق مؤتمر القمة هذا، فالرئيس العراقي أحمد حسن البكر لازال غاضباً، وقد شاركت قواته في القتال ولكن لم يؤخذ رأيه في موضوع قبول وقف إطلاق النار ولم يبلغ رسمياً بموقف مصر ثم سوريا من هذا

الموضوع . وبذلك تشعر بغداد أنها لم تعامل من قبل القاهرة معاملة الند ، والخلاف السابق بين بغداد والقاهرة يعود من جديد .

أنور السادات يظهر إمكانياته كسياسي واستراتيجي لا مع يتحلى بالمرونة وسرعة اتخاذ القرارات المناسبة ، يجد في مؤتمر الجزائر السبيل للتقريب ما بين الملوك الإقطاعيين والقادة الثوار وبصورة خاصة ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية .

في الفيلا رقم ١٣١ ـ الواقعة في المنطقة المحيطة بقصر الأمة يقطن ياسر عرفات ومنزله محاط بحراسة قوية ، عند اقترابنا أنا ومصوري من منزله أحاط بنا عدة شباب من رجال الشرطة السياسية ـ إذ أن الحرس الخاص لياسر عرفات يعرفنا بصورة جيدة ـ نوافذ الفيلا الكبيرة مفتوحة على مصراعيها والستائر تتباعد بفعل الهواء عن بعضها البعض وفي تلك اللحظة كان عرفات يتناول طعام الإفطار وقد سمح لنا بمقابلته ، فواكه ، عصير ، خبز ومجموعة كبرى من حبوب الدواء ، هذه المجموعة تشكل إفطار رئيس الفدائيين ، وكان زملاؤه من قادة الفدائيين قد تركوا وراءهم تلة من قشور البرتقال على المائدة ، أنهم لا يعطون أية قيمة لآداب الطعام .

يحيط عرفات رأسه بالحطة البدوية المعروفة وقد خطر على بالي وأنا أنظر إليه كم هو صغير رأس هذا الرجل بدون تلك الحطة ، وفي هذه المقابلة مع عرفات دار حديث حول مؤتمر السلام القادم الذي سيعقد في جنيف وقد لمست الحيرة التي هو بها ، هل على الفلسطينيين أن يشاركوا في هذا المؤتمر أم لا ، وقد سبق لعرفات أن أمر معاونيه منذ عدة أشهر : "عندما تشعرون بأنني لم أعد أود الكفاح فاقتلوني واختاروا زعيماً آخر من بينكم!" .

ولكنه قد غير تفكيره الآن نتيجة الضغط السوفيتي ويجب عليه التفكير عملياً في الموقف الذي سيتخذه، إذ أنه حتى هذا اليوم الثاني من مؤتمر الجزائر لم ألمس منه في مقابلتنا أنه قد استطاع أن يتخذ أي موقف حاسم فيما يتعلق بالمواضيع الرئيسية المطروحة بقوله: "نحن زملائي وأنا علينا أن نفكر ملياً في كل شيء!". ولا يود عرفات أن يخلق متاعباً للرئيس المصري ويعلم مسبقاً بأن عليه أن يساير أنور السادات كما يأمل أن يحسن من موقفه في هذه الأيام ولن يتخذ في هذا المؤتمر موقفاً ما.

وقد لوحظ في المؤتمر بأن عرفات لم يكن متملكاً لنفسه، عصبياً، في مقابلتنا التفت إلى أحد رجاله بلهجة قاسية يسأل هل سمع أحدكم شيئاً عن وصول الملك الحسن"؟.

ثم يطرح أمامنا عن تفكيره والحل الذي يراه للقضية الفلسطينية بالنسبة للمستقبل قائلاً: "يجب علينا أن نعمل من إسرائيل دولة ديمقراطية يعيش فيها اليهودي والمسيحي والمسلم سوية!". وقد لمست في كلام عرفات هذا وتفكيره أنه صادق كل الصدق فيما يقول.

في هذا اليوم يهاجم أنور السادات عرفات لأنه لم يتمكن حتى الآن من وضع جميع الفدائيين الفلسطينيين تحت سلطته، فعندما كان يجتمع هنا في الجزائر مؤتمر الدول الغير منحازة، هاجم عدد من الفلسطينيين سفارة المملكة العربية السعودية في باريس، مما أثار آنذاك الملك فيصل وطلب إلى عرفات أن يضع المنظمات الفدائية المتطرفة تحت سيطرته، كما قام آنذاك ثلاثة فدائيين تابعين لمنظمة لا يعرفها أحد - تطلق على نفسها اسم حركة الشباب

الفلسطينيين الوطنية - اختطفوا طائرة "الجينبوجيت ميسبي" - "Miss issippi" العائدة لشركة الخطوط الجوية الهولندية. KLM. وكان علي متنها ٢٢٨ مسافراً وقد أطلق سراحهم في مطار مالطة ثم تابعت الطائرة سفرها طوال فترة اجتماع المؤتمر من مطار عربي إلى مطار عربي آخر - حسب توجيهات خاطفيها الثلاثة وحطت أخيراً في أبو ظبي على الخليج العربي، ولا يعطي أي من الخاطفين تحليلاً منطقياً لعمليتهم هذه، أو الهدف منها وكانوا يقولون: "نحن ننتظر التعليمات من قيادة منظمتنا بواسطة الراديو" في اليوم التالي يقولون: "تلقينا نصف الأوامر وننتظر الآن النصف الآخر".

من يعطي هذه الأوامر؟ ياسر عرفات ينفي أية علاقة لهؤلاء الخاطفين مع منظمته.

رئيس العمل الفدائي عرفات يطلب من الرؤساء العرب المجتمعين في مؤتمر القمة الاعتراف به الممثل السياسي الوحيد للفلسطينيين، والملك حسين هو الآخر يرجو في نفس الوقت أن يكون ممثلهم ولكنه كان غائباً عن هذا المؤتمر وعن الترتيبات والمحادثات التي كانت تجري وراء الكواليس، الملك فيصل يرسل إشارة الخطر إلى العاصمة الأردنية ويطلب من الملك حسين أن يطير فوراً إلى الجزائر الذي يكتفي بإرسال برقية إلى ممثله بهجت التلهوني رئيس وزرائه يفوضه بها أن يهدد بما يلي: إذا أعطيت منظمة التحرير الفلسطينية الحق بتمثيل اللاجئين في مؤتمر السلام الذي سينعقد في جنيف فإن حسين سوف يقاطع ذلك المؤتمر. ولكن هذا التهديد لم يعط أية نتيجة والملك فيصل لم يعد ليصر على مكانة الملك حسين في صف القادة العرب، جميع

الوفود تصوت لياسر عرفات بأن يكون الممثل الشرعي للفلسطينيين، إنها ساعة النصر لرئيس العمل الفدائي فقد تم الاعتراف به الآن رئيساً لمليونين ونصف المليون فلسطيني.

والملك حسين كان يتوقع هذا التطور في القضية ولكنه لم يكن ليملك القوة الكافية في مجابهة ذلك وهو منذ هذه اللحظة وبفعل هذا الإقرار ملكاً لشرقي الأردن فقط وحاكماً للمنطقة الواقعة على الضفة الشرقية من نهر الأردن.

الرؤساء العرب تخطوا بهذا القرار ضرورة مناقشة خطة الرئيس أنور السادات وحافظ أسد بأن توضع مبدئياً منطقة الجرش ونابلس والقدس تحت إشراف الأمم المتحدة كبادرة سلام من قبل العرب تجاه إسرائيل، وحسب ذلك لم تكن هذه الخطة والتي كان باستطاعته بموجبها أن يمارس سلطاته على الضفة الغربية ولم تكن علاقاته مع مواطنيه لتتأثر بها، ولمواطني هذه المنطقة الاحتفاظ بالجنسية الأردنية، ولكن المؤتمر في قراره الآن وضع سكان الضفة الغربية تحت أمرة ياسر عرفات، هذا الرجل الذي لم يلبوا نداءه في الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة بالتمرد والعصيان على سلطات الاحتلال مما أثار دهشة كل من الرئيسين حافظ أسد وأنور السادات، وتغيب الملك حسين الآن في حضور المؤتمر خدم كثيراً ياسر عرفات في استعادة مكانته والذي أصبح المرشح الوحيد أمام المؤتمر لتمثيل الشعب الفلسطيني وأصبح بإمكانه أن يتباحث في أمر مصير شعبه، الملك حسين بقي بعيداً عن المؤتمر وسقط، ورئيس وزراء الملك بهجت التلهوني يغادر القاعة حزيناً، لقد طالبه حسين بالكثير.

هذا الحدث الذي أثار انزعاج الملك الأردني قوبل بالارتياح من قبل الرئيس المصري الذي عليه أن يتوقع حدوث مصاعب شديدة من قبل إسرائيل

وأنها سوف تتصلب بموقفها في محاولات التقرب التي يبذلها السادات تجاهها طالما أن عرفات قد أعطي ولو اسماً منصب رئيس دولة "بدون وطن!" ، ولا يعتقد بأن هناك أية حكومة إسرائيلية سوف تقبل بتشكيل تلك الدولة على حدودها الشرقية ويكون دعامة سياستها ضرب إسرائيل ومحوها من الوجود .
وفي نهاية المؤتمر كانت تلاحظ على وجه أنور السادات علائم الغضب وعدم الارتياح لتلك النتائج التي كانت لصالح منظمة التحرير والتي يعتبرها كعقبات في طريق السلام وأنها ستسبب خصومات جديدة بين العرب وبذوراً لخلافات بين الأخوة والحرب جديدة مع إسرائيل .



"مؤتمر السلم القسري"

في الأسبوع الأول من شهر كانون الأول ١٩٧٣ يتقدم الجيش المصري الثاني ويحتل مسافة عشرة كيلو مترات جنوب الإسماعيلية وذلك الشريط الصحراوي المليء بأشجار النخيل والذي كان تحت سيطرة الجيش الإسرائيلي، وقد جلبت المدفعية الثقيلة إلى هذه المنطقة التي تم استعادتها بدون قتال، الجيش الثالث قدم مدرعاته في سيناء حوالي ثمانية كيلومترات نحو الغرب والإسرائيليون لا يبدون أية مقاومة، بعد هذا النجاح يقوم المصريون بتحسين وضعهم في القطاع الشمالي من منطقة القناة في الجنوب الشرقي من بور سعيد . القوات الإسرائيلية تحاول وقف تقدم القوات المصرية في هذا القطاع بفتح نيرانها على طلائع تلك القوات، في ٨ كانون الأول سجلت قوات الطوارئ الدولية في منطقة بورسعيد ٢٧ اشتباكاً ولكن يصل المصريون إلى هدفهم، إذ أنهم في ٩ كانون الأول هددوا بشكل خطر خطوط التموين الإسرائيلية لقواتهم المتمركزة على الضفة الغربية، القوات المصرية المحاصرة على الضفة الشرقية استعادت قوتها من جديد ، لقد انتظر الإسرائيليون استسلامهم بعد ٢٣ تشرين الأول ولكن تبين للأمريكيين في وقت متأخر وبواسطة طائرات استطلاعهم من طراز SR – 71 أن الجيش المصري الثالث قد حصل على

الإمدادات، فالإسرائيليون كانوا قد سمحوا فقط بمرور المواد الغذائية والماء والأدوية وعلموا فيما بعد بواسطة جواسيسهم أن الجيش الثالث قد حصل وبشكل كاف على الذخائر. عندها قدم الأميركيون خدمة استكشاف إيضاحية جديدة لرئيس الأركان الإسرائيلي العازار، إذ غادرت طائرتا تجسس من طراز SR – 71 قاعدتها في تركيا وعبرتا جبهة السويس على ارتفاع ٢٣ كم وبسرعة ٢٥٠٠كم/سا. وأظهرت بواسطة الصور الملتقطة بأجهزة التصوير التي تحملها تلك الطائرات أن السفن النهرية الصغيرة المتواجدة في خليج السويس كانت تمون الجيش المصري الثالث بالإمدادات.

في ١٣ كانون الأول يأتي هنري كيسنجر من جديد إلى القاهرة وقبل ثمانية أيام من موعد بدء مؤتمر السلام، ولكن رحلة طائرات الاستكشاف التجسسية التي كشفتها محطات الرادار المصرية لم تؤثر على الاستقبال الحار الذي خص السادات به وزير الخارجية الأميركية بل ويتناسى المسؤولون المصريون ما هو أهم من ذلك؛ إذ أن موشي دايان كان قد تلقى وعداً من واشنطن وقبل وصول هنري كيسنجر إلى القاهرة بيومين أن بإمكانه الاعتماد على الأسلحة الحديثة المتطورة التي يريدها، ولكن بالرغم من هذا يبقى هنري كيسنجر بالنسبة لأنور السادات السياسي الوحيد في العالم الذي بإمكانه أن يجلب السلام إلى هذه المنطقة.

وهناك في القاهرة حليف سري لهنري كسينجر إنها جيهان زوجة أنور السادات، فمنذ زيارتها لأميركا في عام ١٩٦٦ تشعر جيهان السادات بأنها صديقة الأميركيين، هذه السيدة الأنيقة والبالغة من العمر أربعين عاماً من أم

إنكليزية - لها وزنها الحساس في هذه الأيام في المجتمع السياسي والعسكري المحيط مباشرة بأنور السادات، وعلى هامش المحادثات بيّن الرئيس المصري لضيفه الموقف المصري من الحادثة التالية التي جرت مع زوجته: ضابط مصري قال لجيهان السادات في اليوم الأول من الحرب "إلى اللقاء في تل أبيب". فكان جواب زوجة الرئيس "كلا، كلا، ليس في تل أبيب! هذه المدينة تخص الإسرائيليين وليس نحن العرب!". وزير الخارجية الأميركية يعجب هذا الجواب ويعد أنور السادات بالعمل للقضاء على الحالة الراهنة وعقد مؤتمر السلام ولو قسراً، اللعبة تبدأ. الوزير الأميركي يقوم بنشاط سياسي واسع" وهذا المفاوض الناجح يبدأ بإعطاء الوعود إلى كل من الطرفين، الرئيس المصري يرفع الحصار عن مضيق باب المندب وبالمقابل لا يضع الإسرائيليون أية عقبات أمام المصريين الذين يقومون بتحسين مواقعهم في جبهة السويس.

موشي دايان يتلقى وعداً من وزير الدفاع الأميركي شيلنزنغر Schlesinger بتمويل إسرائيل بأسلحة حديثة يقارب ثمنها ثلاثة مليارات دولار، مجلس الوزراء الإسرائيلي يتراجع عن موقفه الذي كان يشترط عودة الأسرى الإسرائيليين يتراجع عن موقفه الذي كان يشترط عودة الإسرائيليين من سوريا قبل انعقاد مؤتمر السلام.

حسب إحصائيات اللواء هرتزل شفير Herzl Shavir يبلغ عدد المفقودين الإسرائيليين على الجبهة السورية ١٠٢ جندي ويعتقد أن هؤلاء الجنود هم أسرى في السجون السورية، حزب العمال الحاكم يعد في خطبه الانتخابية بأنه يأخذ على عاتقه وبجميع الوسائل الممكنة استعادة الأسرى وقد

هوجمت رئيسة الوزراء للتساهلات التي قدمتها قبل انعقاد مؤتمر السلام إذ أن مستمعيها كانوا يصرخون في وجهها : أمني عودة أولادنا إلى بيوتهم أولاً .

اللواء شافير المسؤول عن فرع الإمدادات في الجيش الإسرائيلي أرسل بإحصائيات جديدة من الخسائر إلى غولدامائير يصحح بموجبها الإحصائيات السابقة وكانت كما يلي :

٢٤١٢ جندي إسرائيلي سقطوا في حرب يوم الغفران وليس ١٨٥٤ كما أعلن سابقاً وهذا العدد لا يشمل الجرحى الخطرين الذين توفوا ويقول اللواء في تقريره : "علينا أن نتوقع نفس العدد من الخسائر في الأرواح أو أكثر فيما إذا نشب القتال من جديد" .

إن الإحصائيات الجديدة وتحذير شافير هذا يمكن اعتباره دافعاً آخر للحكومة الإسرائيلية للذهاب إلى مؤتمر السلام في جنيف ، وقد تم اتفاق الدولتين الكبيرتين وإسرائيل ومصر وسوريا والأردن في أواسط كانون الأول على المكان والزمان والمواضيع التي ستبحث في مؤتمر السلم .

١ ـ سيكون المؤتمر تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة وفي مقرها في جنيف وتحت رايتها .

٢ ـ في المرحلة الأولى يشترك في المؤتمر كل من المصريين والسوريين والأردنيين وإسرائيل .

٣ ـ بعد ذلك توجه الدعوة إلى وفد يمثل كل من لبنان والفلسطينيين للاشتراك في المؤتمر .

٤ - يترأس جلسات المؤتمر وبالتناوب الدولتان الكبيرتان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

وقبل انعقاد المؤتمر بمدة أسبوع حدث اختلاف في وجهات النظر حول اشتراك الامين العام لهيئة الأمم المتحدة كورت فالدهايم Kurt Waldheim. الذي يود أن يترأس جلسة الافتتاح وإلقاء كلمة يدعو فيها لتحقيق السلام، مصر لا تمانع بذلك، الحكومة الإسرائيلية ترفض هذه الفكرة وترى غولدامائير أن يكون وجود الأمين العام للأمم المتحدة في هذه الجلسة رمزياً فقط، إذ أن إسرائيل كانت وحتى الآن تضرب عرض الحائط بقرارات هيئة الأمم المتحدة ولا تأخذ لها أي اعتبار والحكومة الإسرائيلية لا تريد الآن أن تعطي اعتبارات لقرارات مجلس الأمن وذلك من خلال مشاركة فعالة للأمين العامة لهيئة الأمم المتحدة في هذا المؤتمر. هنري كيسنجر يحسم الخلاف بقوله: "إن هذا الموضوع لهو من اختصاص الدولتين الكبيرتين وهما اللتان تقرران الأهمية التي ستعطي لمشاركة الأمين العام في هذا المؤتمر". هذا الحل يعجب به الإسرائيليون إذ وضع بنتيجته الأمين العام في مرتبة أدنى من الدولتين الكبيرتين في هذا المؤتمر، هذا إضافة إلى أن إسرائيل ومنذ عام ١٩٦٧ كانت تطالب بمحادثات مباشرة مع العرب وتأمل التخلص من ضغط كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وموشي دايان كان يأمل أن يتم مؤتمر السلم مع العرب شكل آخر، منذ حرب حزيران ١٩٦٧ كان ينتظر استسلام العرب، هذا الاستسلام الذي سيمنع في جنيف كل من أندريه غروميكو وهنري كيسنجر حصوله.

أنـور الـسادات أعـد وبـشكل جيـد بعـد حـرب الـشرق الأوسـط الرابعـة الغالبيـة العظمـى مـن الـشعب والجيش لتقبـل فكـرة المحادثـات المباشـرة مـع إسرائيل: في منطقة المعرض بالقاهرة عرض عشرين دبابـة إسـرائيلية غنمهـا المصريون من طراز شيفتن Chieftain وسنتوريون Centurion، وكان البعض منها سليماً تماماً إذ تخلى عنها طواقمها في سيناء، وفي البعض الآخر يـرى أثـر الصواريخ المضادة للدبابات. وقد سمـح للمـواطنين بالحصول على ذكـرى مـن هذه الدبابات بأخذ قطعة منها، فأنور السادات يعرف المصريين جيداً: إذ أنـه عندما يحضر أحدهم معه قطعة حديديـة مـن الأسـلحة المغتنمـة إلى منزلـه يـشعر وكأنه قد شارك في النصر.

الرئيس بقوله لشعبه: نحن العرب كرماء عنـدما ننتـصر والآن بإمكاننـا أن نمد يد السلام للإسرائليين!.

قبل موعد بدء مؤتمر السلام يقوم عضو مجلس النـواب المصري محمـود أبو وفيه بتوجيه دعوة بواسطة جريدة الأخبار القاهرية للرجال والنـساء أعـضاء نوادي الصيد للقيام بمباراة لصيد الإسـرائيليين، والفائز في هذه المباراة هـو الـذي يـتمكن مـن اصـطياد أكـبر عـدد مـنهم. كمـا ويقـوم بإعـداد الميـداليات الـتي ستوزع على الفائزين في هـذه المبـاراة، ويحـدد محمـود أبـو وفيـه مكـان الـصيد بالمنطقة الواقعة بين الإسماعيلية وقرية المديّة على قناة السويس.

أنور السادات يمنع قيام مباراة الصيد هذه التي دعا إليها هذا النائـب الـذي عرف عنه اتزانه والدور الرصين الذي لعبه في السياسة المصرية. كمـا ويتـوجب على الرئيس السادات البدء في محاربة الأفكار المعادية لمؤتمر السلام وما يمكـن أن تصدر عنه من مقررات.

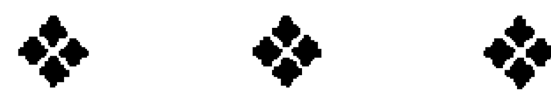
إذ أن مؤتمر السلام لن يستطيع أكثر من تجميد الموقف الحالي في الشرق الأوسط، وللوصول إلى تحقيق سلام دائم لابد من تحقيق نقطتين هامتين ورئيسيتين لذلك:

١ ـ على العرب أن يتفقوا على منطلق جديد يوحدون بموجبه موقفهم وتفكيرهم السياسي فيما يتعلق بهذه المشكلة.

٢ ـ على إسرائيل أن تتخلى عن عجرفتها وأن تكون على استعداد للتعايش والتلاؤم مع جيرانها المحيطين بها.

هذه الشروط الأساسية للسلام احتاج كل من العرب والإسرائيليين لأكثر من عشرين عاماً ـ ولجيل جديد لكل من الطرفين ـ حتى توصلوا لهذه القناعة.

ومع افتتاح مؤتمر السلام تعبر غولداماثير عن هذه الحقيقة بقولها: إن الضمان الأكيد والدائم لسلام إسرائيل ليس بالاعتماد على الولايات المتحدة الأميركية كحليفة لنا، وإنما هو القيام ببناء التفاهم مع جيراننا.



ملحق الصور



احتياطيون إسرائيليون يتجمعون أمام سينما بعد ظهر يوم «كيبور» للالتحاق بالجبهة.

احتياطيون يحاولون الذهاب عبر السيارات العابرة إلى الجبهة.

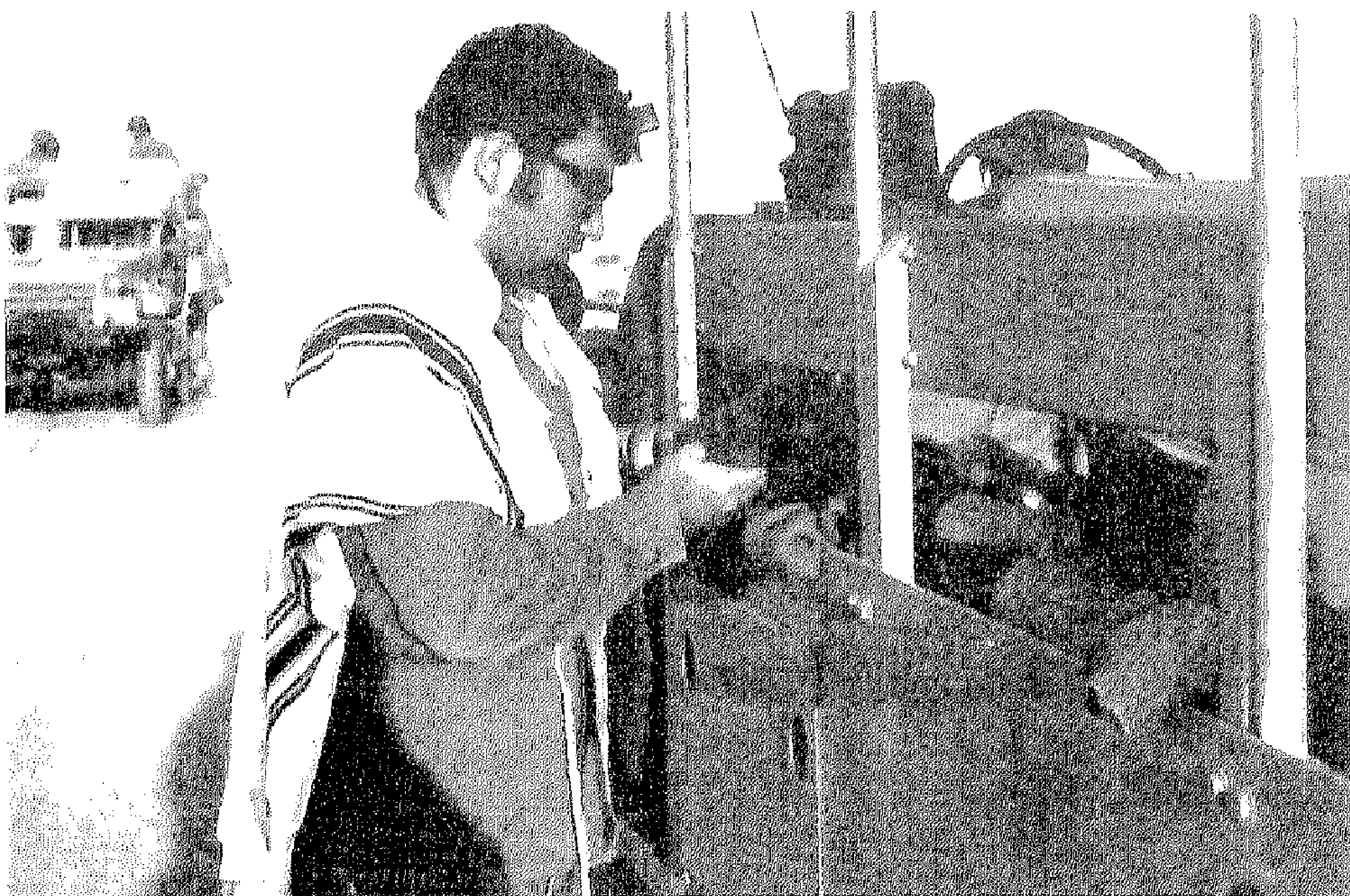






في ساعات الحرب الأولى يعبر الجيشان المصريان الثاني والثالث القناة عبر جسور «بونتون» محميان من دفاع جوي بصواريخ سام ولا يستطيع الإسرائيليون إزعاجهم.

للمرة الأولى بعد ثلاثة حروب خاسرة يتمتع المصريون بنشوة النصر



يوم الغفران على هضبة الجولان، جنود يُصلون.



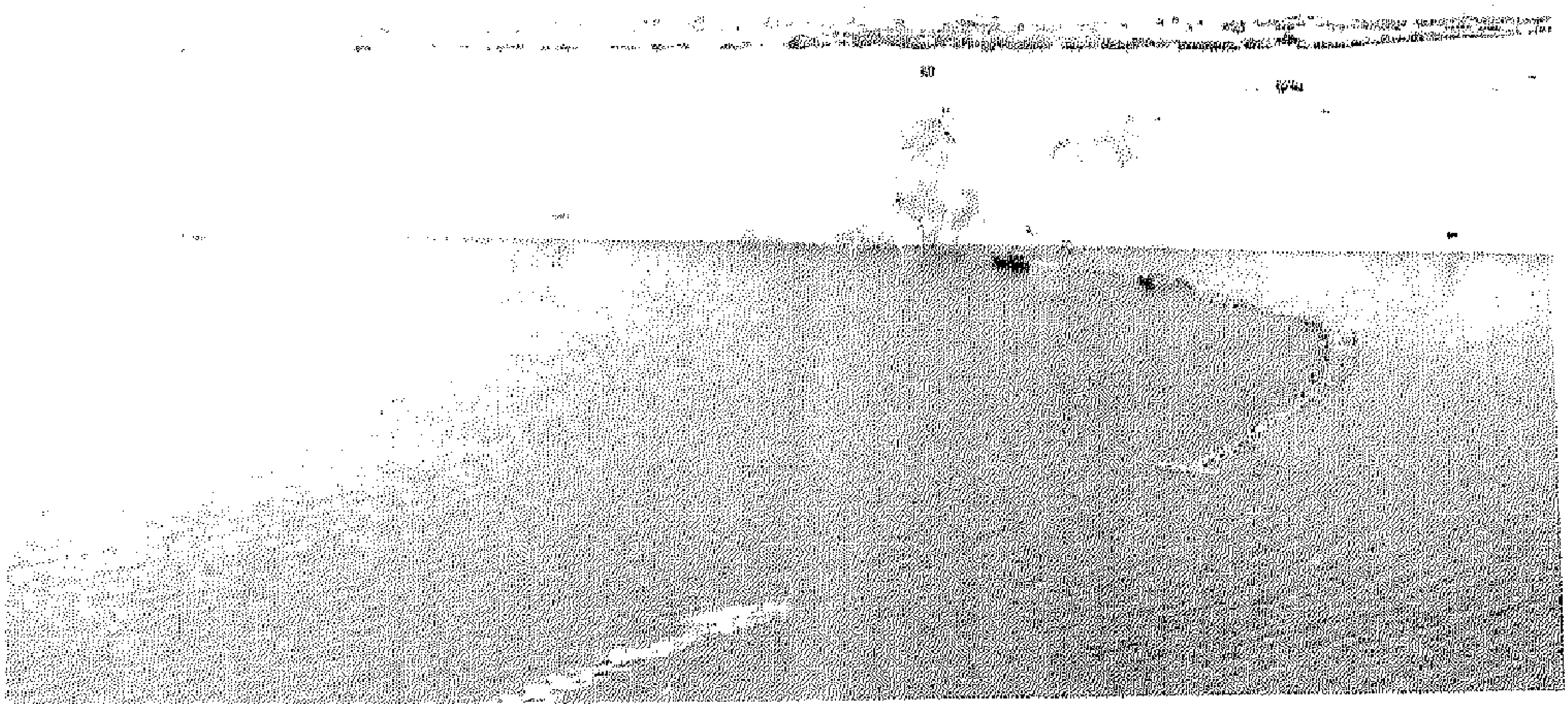




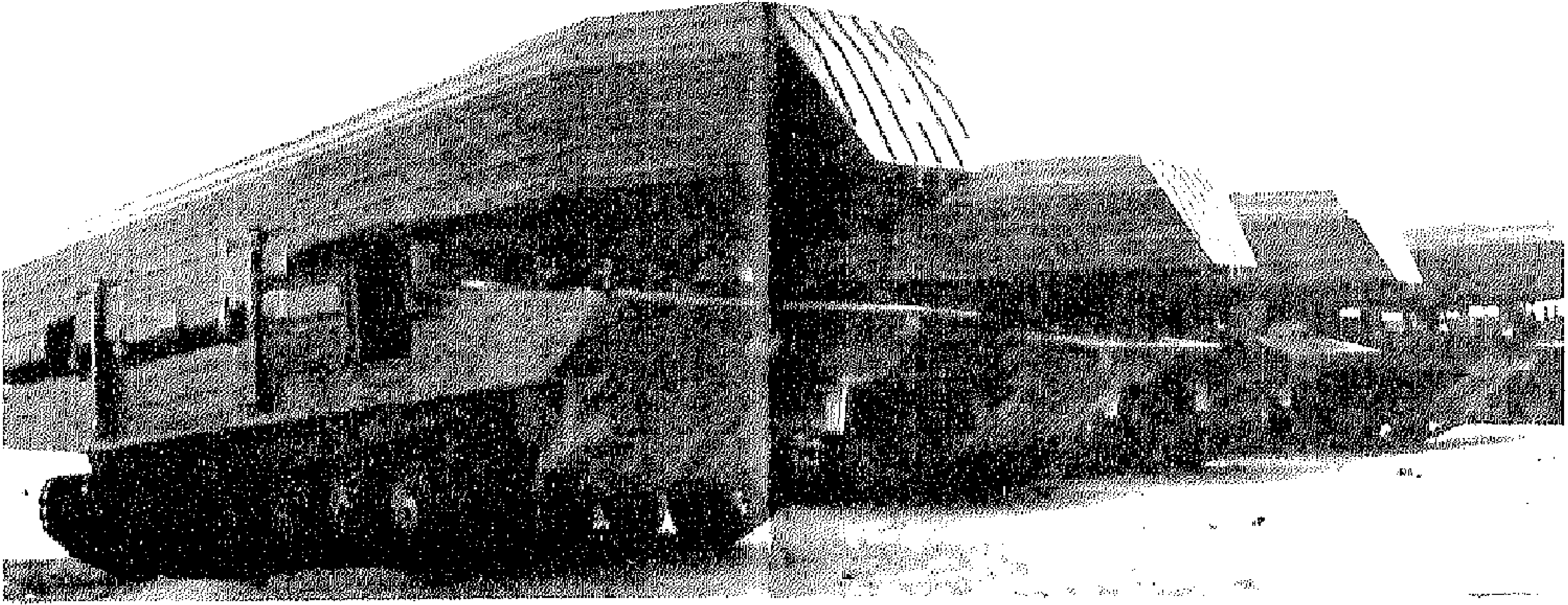
الجنود المصريون يوفون بوعدهم «سوف تعود لسيناء». هيأوا أنفسهم لهذا الغرض منذ ثلاث سنوات.



سبعة ضباط حول السادات هيأوا وقادوا الهجوم على خط بارليف، إلى جانب السادات رئيس الأركان المبتسم الجنرال سعد الدين الشاذلي



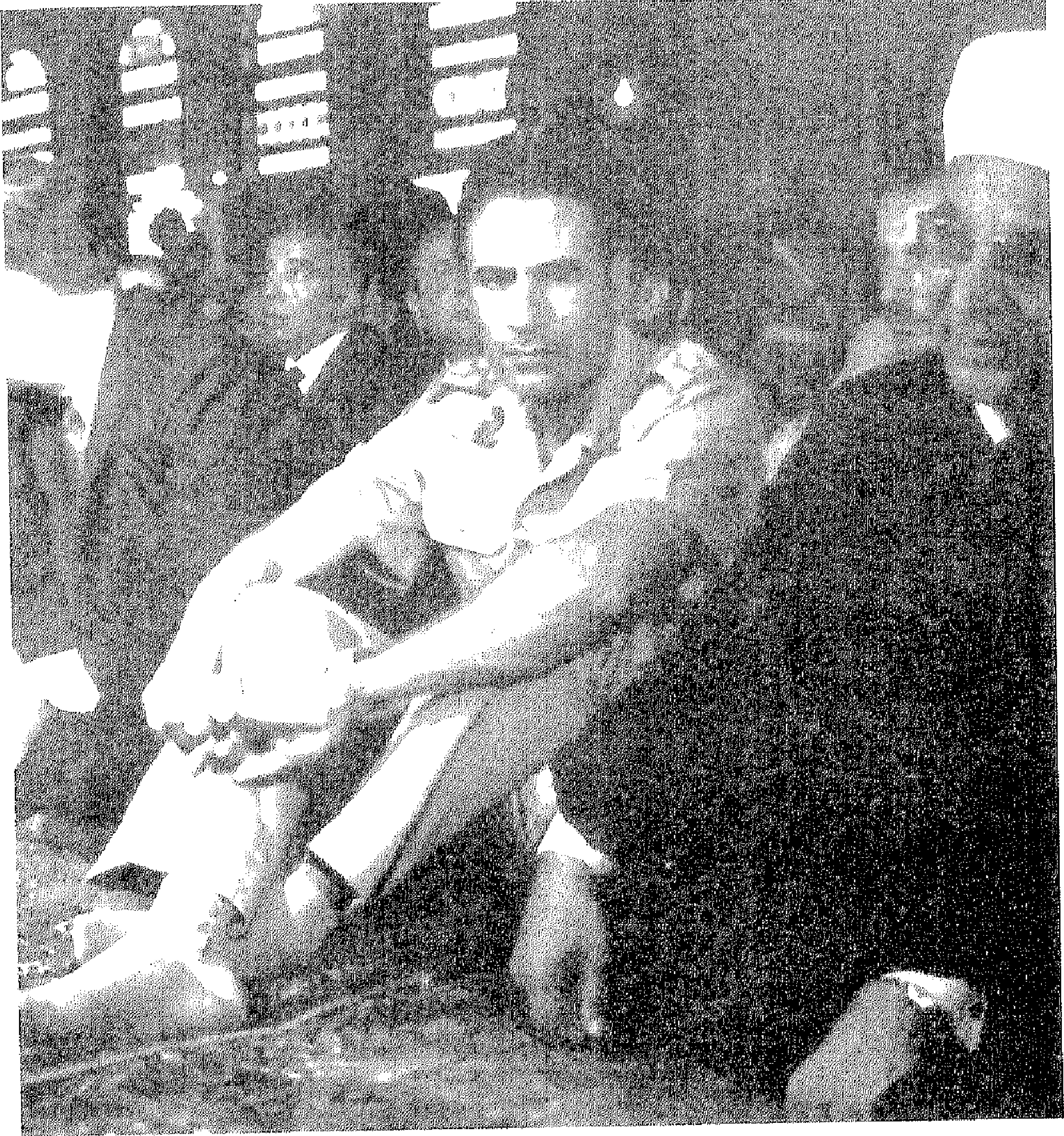
بقايا جسر عبور مشاة للجنود المصريين، بخراطيم مياه أزال المصريون الحواجز الرملية، خلال عشر دقائق بنى المصريون هذه الجسور.



٤٠٠ ناقلة جسور بونتون كانت وصلت ميناء الاسكندرية في صيف ١٩٧٣ ونُقلت سراً في الليل إلى منطقة القناة.



جنود إسرائيليون يستسلمون، قالوا: «تحملنا القصف المدفعي، لكن الفوضى عمت، لم تصلنا أوامر..



معمر القذافي لم يوافق على الحرب وقال: إنها ليست حربي، ويبتعد عن حافظ الأسد والسادات.



الجنرال حاييم بارليف مسؤول خط الدفاع على الطرف الشرقي لقناة السويس أسيئت سمعته، في أيام السلم كان وزير التجارة.



خط بارليف يتألف من ٢٥ مركزا، قبل الحرب بأسبوع قال دايان: لا يمكن تخطي الخط، لم يصمد الخط أمام الهجوم المصري.



قتال على طريق القنيطرة - دمشق، الجنرال إل عازار يأمل بفتح ثغرة.



المنتصرون على خط بارليف، اقتحموا المركز بقاذفات اللهب والقنابل اليدوية.
رمال بعلو مترين كانت تعلو التحصينات الإسمنتية، الخط كلف ٢٣٨ مليون دولار.

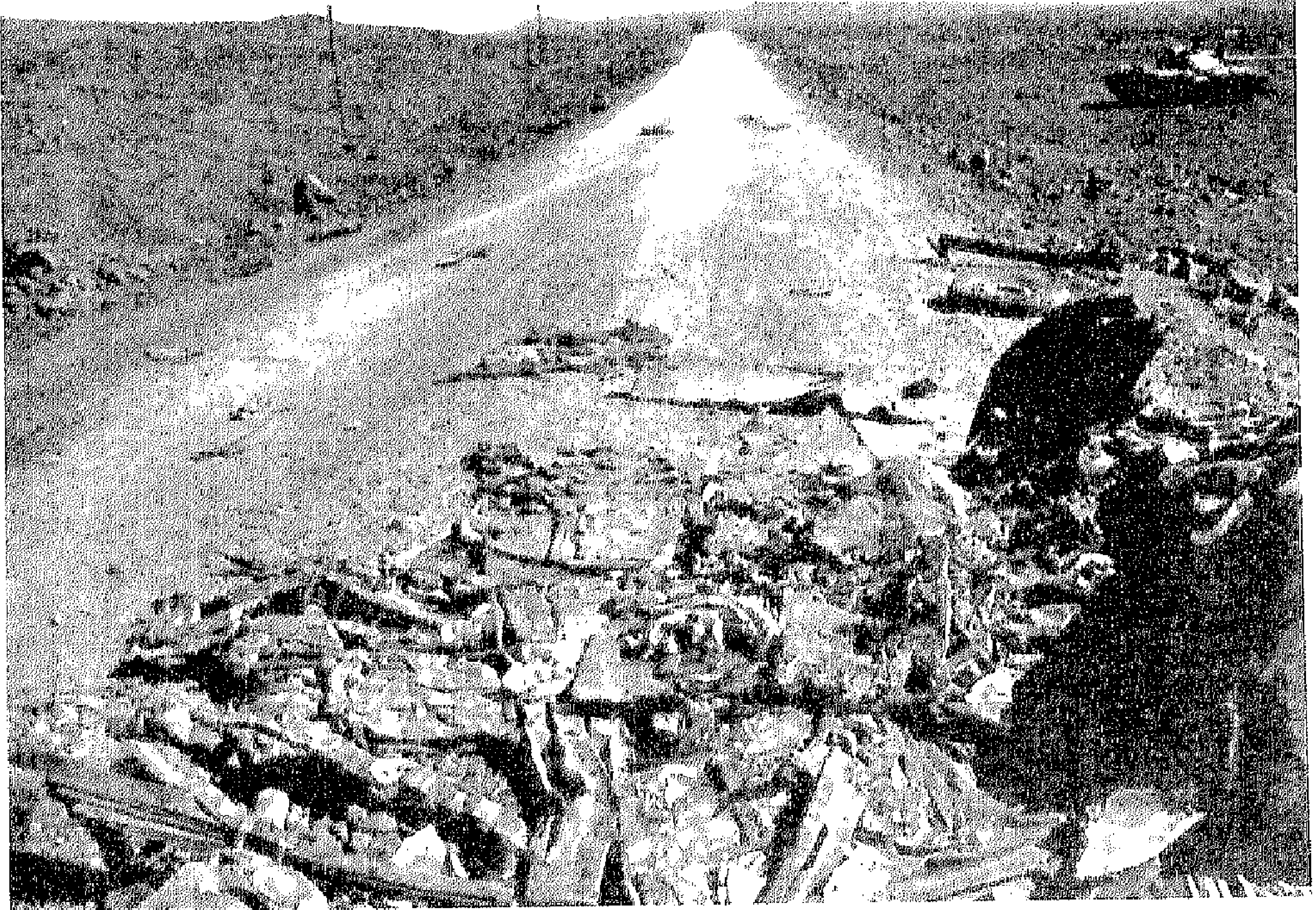


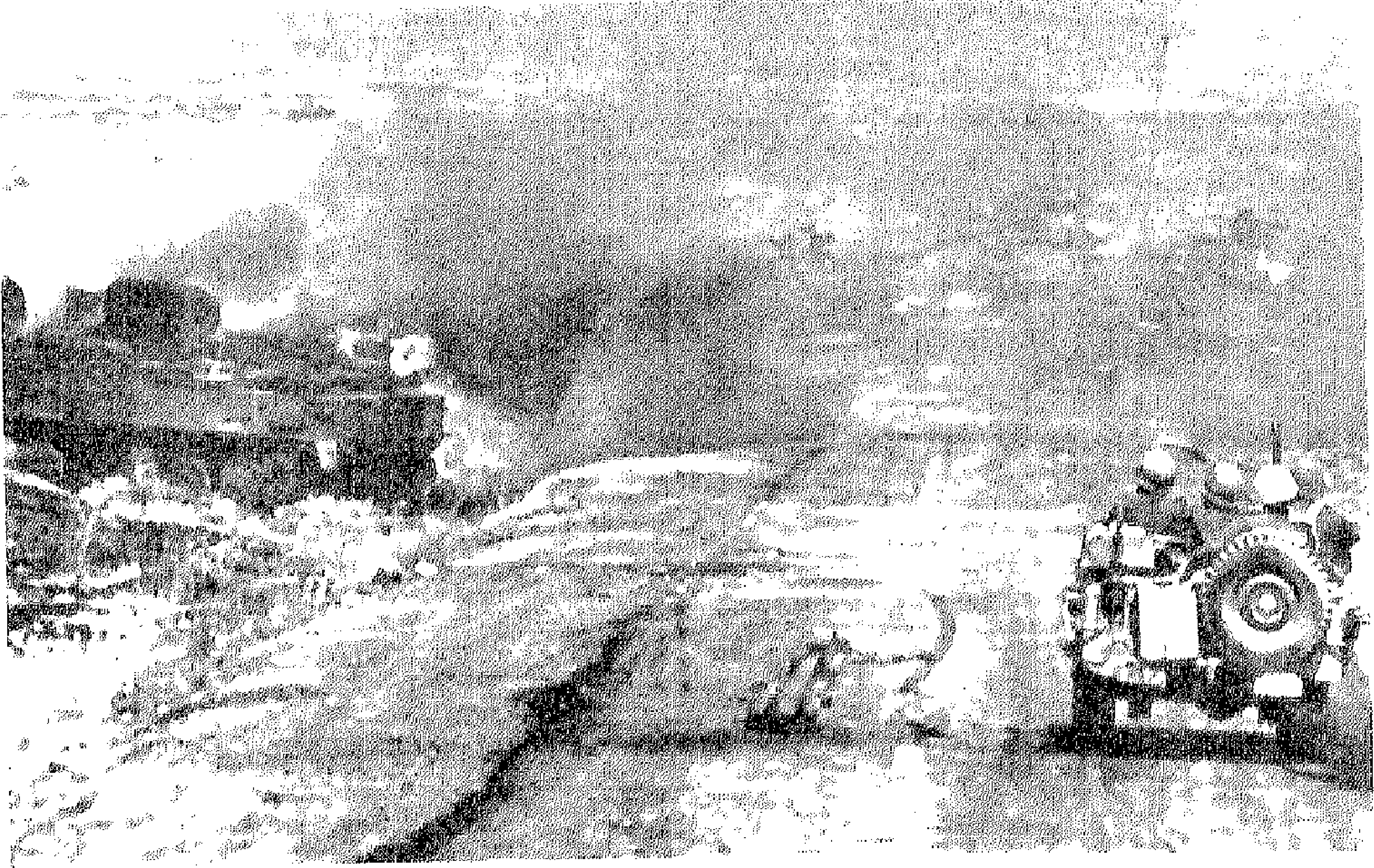
دايان لم يتمكن من إقناع ضباطه الذين لم يغفروا له، ويحملونه المسؤولية.

بعد أيام عديدة من القتال الإسرائيليون يقتربون ٥٦ كلم من دمشق.
الاختراق لم يتحقق عبر الطريق الطويل.



سيارة جيب سورية دمرتها دبابة إسرائيلية.
طائرات سورية تهاجم طلائع دبابات إسرائيلية.



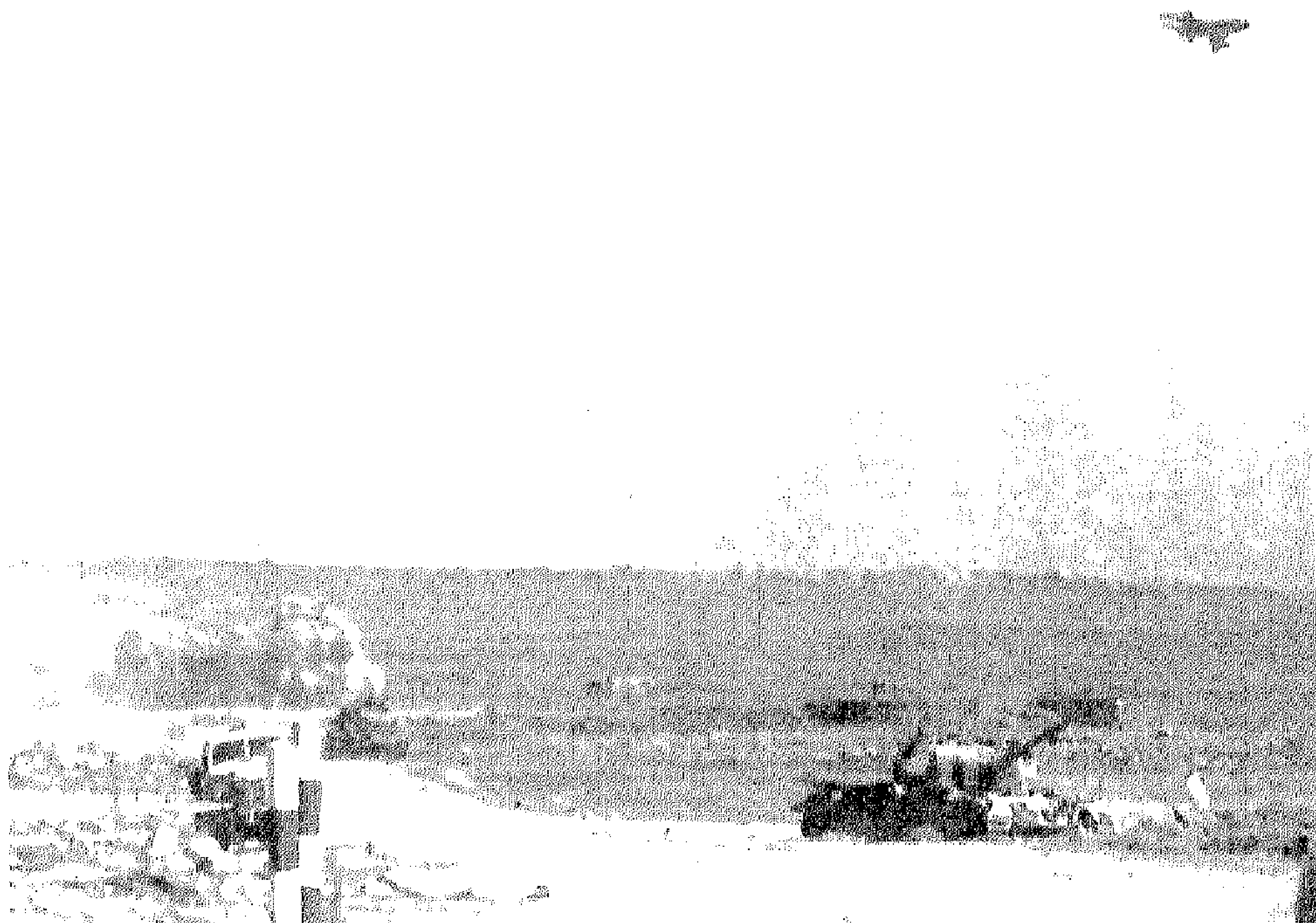


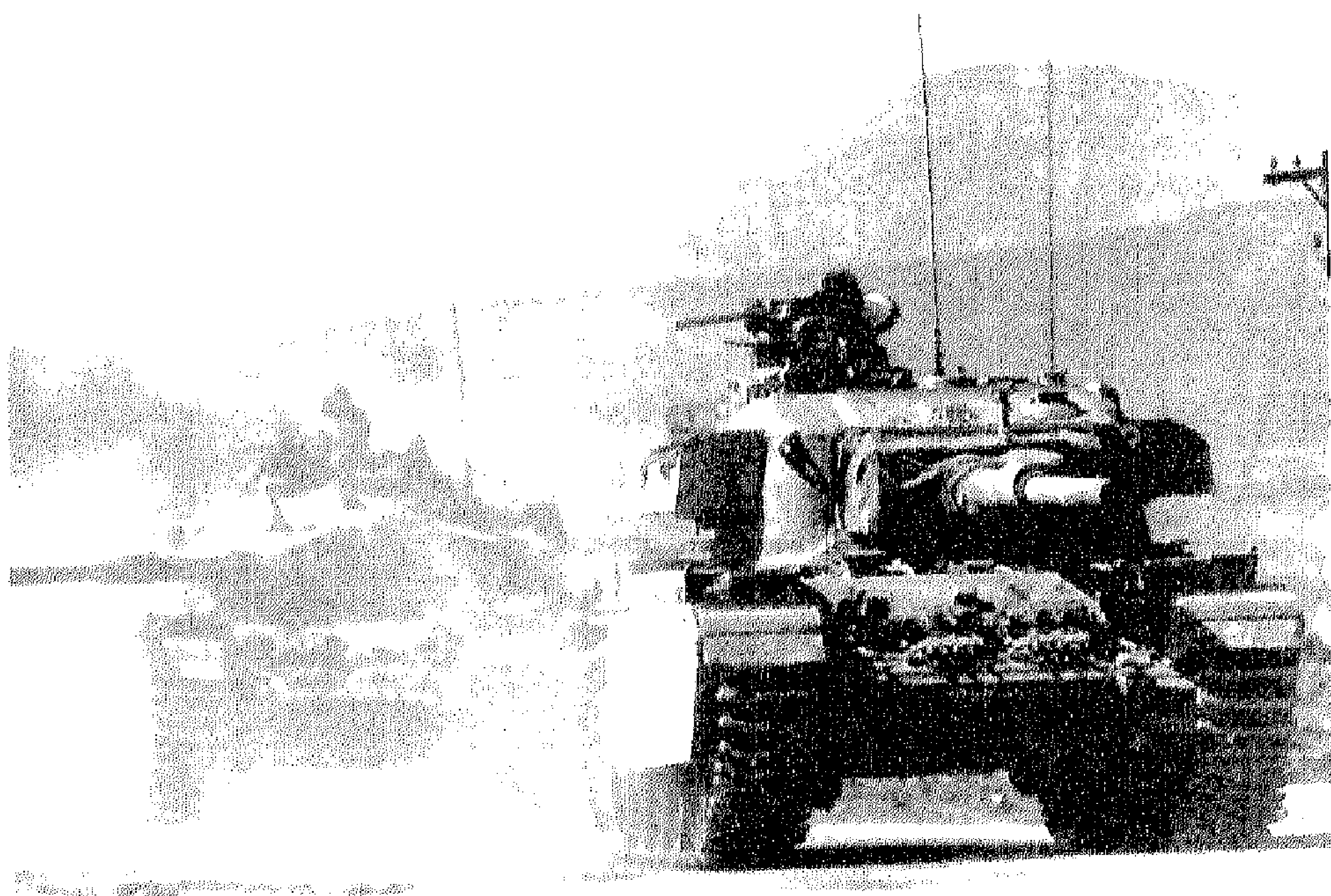
الهجوم الإسرائيلي يتعثر عند قرية سعسع، دروع السوريين المضادة للدبابات تعرقل تقدم الإسرائيليين، الخسائر بينهم فادحة.





التنسيق بيين سلاح الدبابات والطيران الإسرئيلي يفشل، طائرات الفانتوم عاجزة أمام صواريخ سام٦.







السوريون يعرضون حطام طائرة فانتوم إسرائيلية.
وسمعة الروس مصدري صواريخ سام تتصاعد.





إسرائيل تعجز
عن تدمير قوافل
عسكرية كما فعلت
عام ١٩٦٧







أسرى إسرائيليون برهانٌ للسوريين والمصريين أن إسرائيل يمكن أن تهزم، وشعور الثقة بالنفس يتصاعد لديهم.





الحسين ملك الأردن يتلكأ في دخول الحرب، ضباطه يحاولون التأثيرعليه للمشاركة في النصر لكنه يتردد في فتح جبهة ثالثة.



مستشفى ميداني إسرائيلي في الجولان، خسائر العرب تبلغ الضعف.



جنود سوريون يجبرون أسرى إسرائيليين على وضع رؤوسهم بين أيديهم المكبلة وينتظرون ساعات قبل نقلهم.



أسرى إسرائيليين لدى السوريين، صور تظهر الخوف وأمل لدى ذويهم.







إسرائيل تتهم سورية بقتل الأسرى لهذا يعاملون الأسرى السوريين بغاية القسوة.



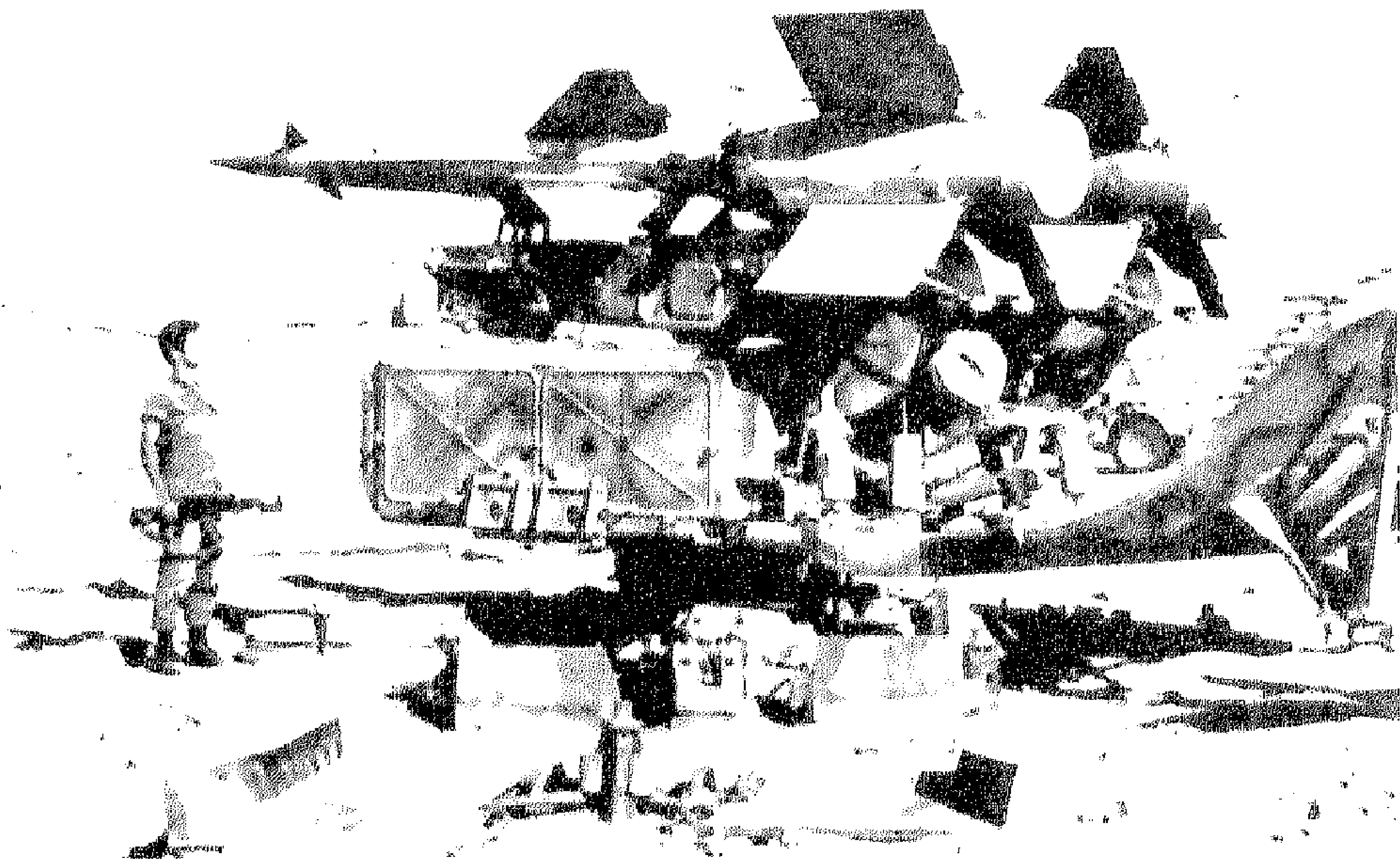
قصف جوي إسرائيلي على حي أبو رمانة ومشفى الشرق يخلف دماراً وعدداً من القتلة لم يعلن عن عددهم.



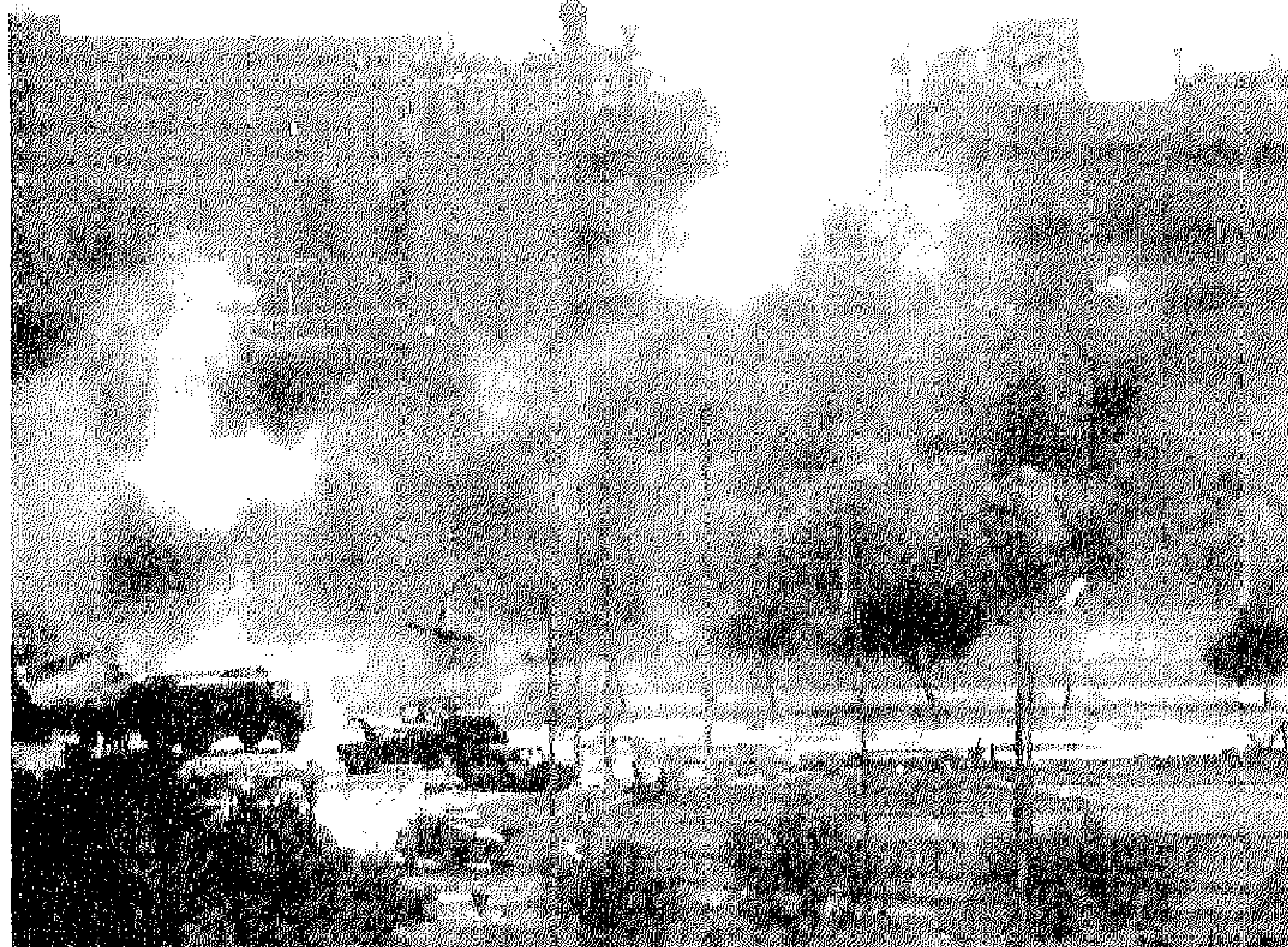


صاروخ أرض أرض سوري مداه ٤٠ كلم يدمر منازل ومدرسة، السوريون يستعملون هذا النوع من الصواريخ في اليوم الأول من الحرب.





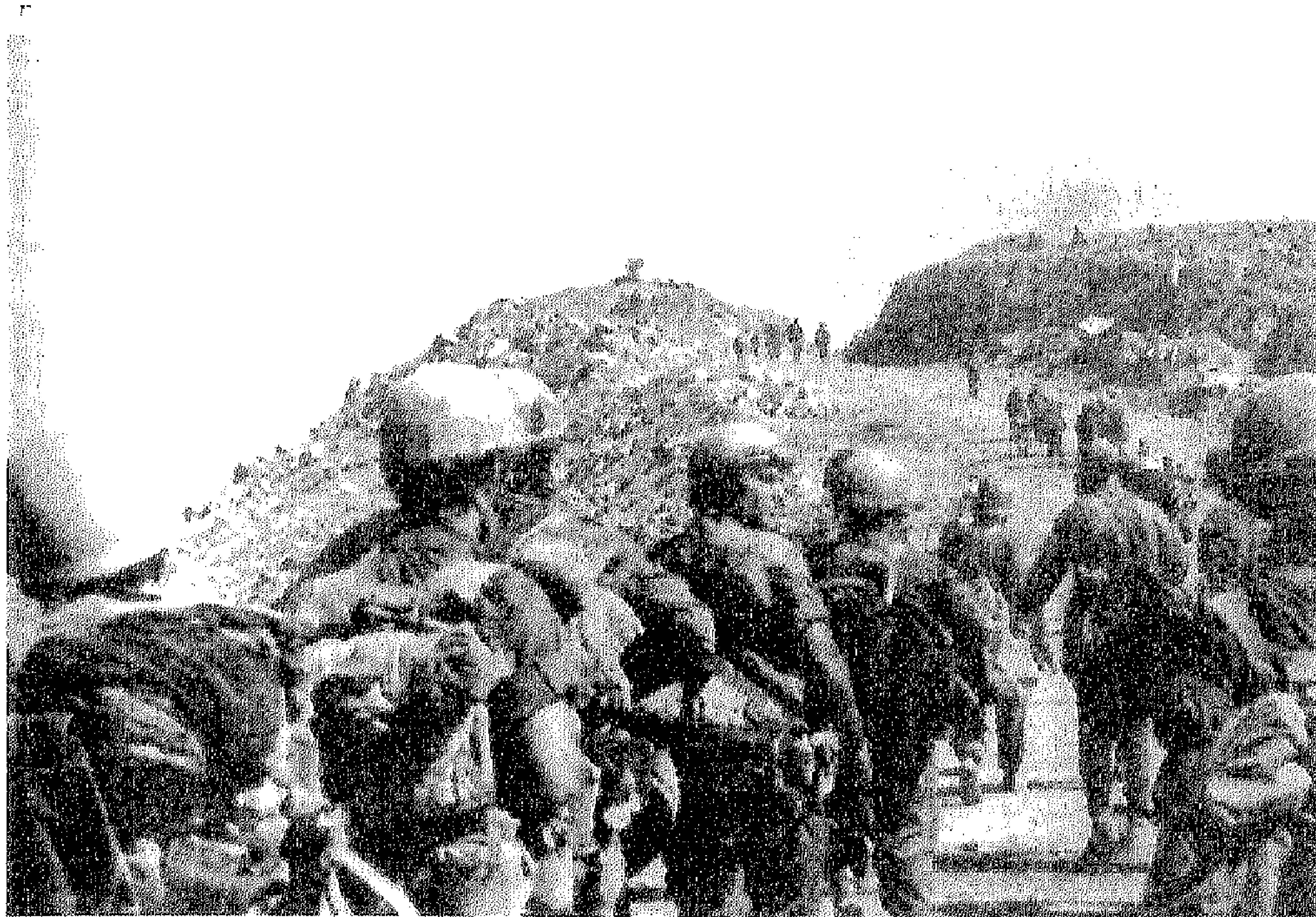
إخصائيو ألكترونيك أمريكان سعداء بمعرفة أسرار صواريخ سام ما يفيد منه الجيش الأمريكي وحلف الناتو.



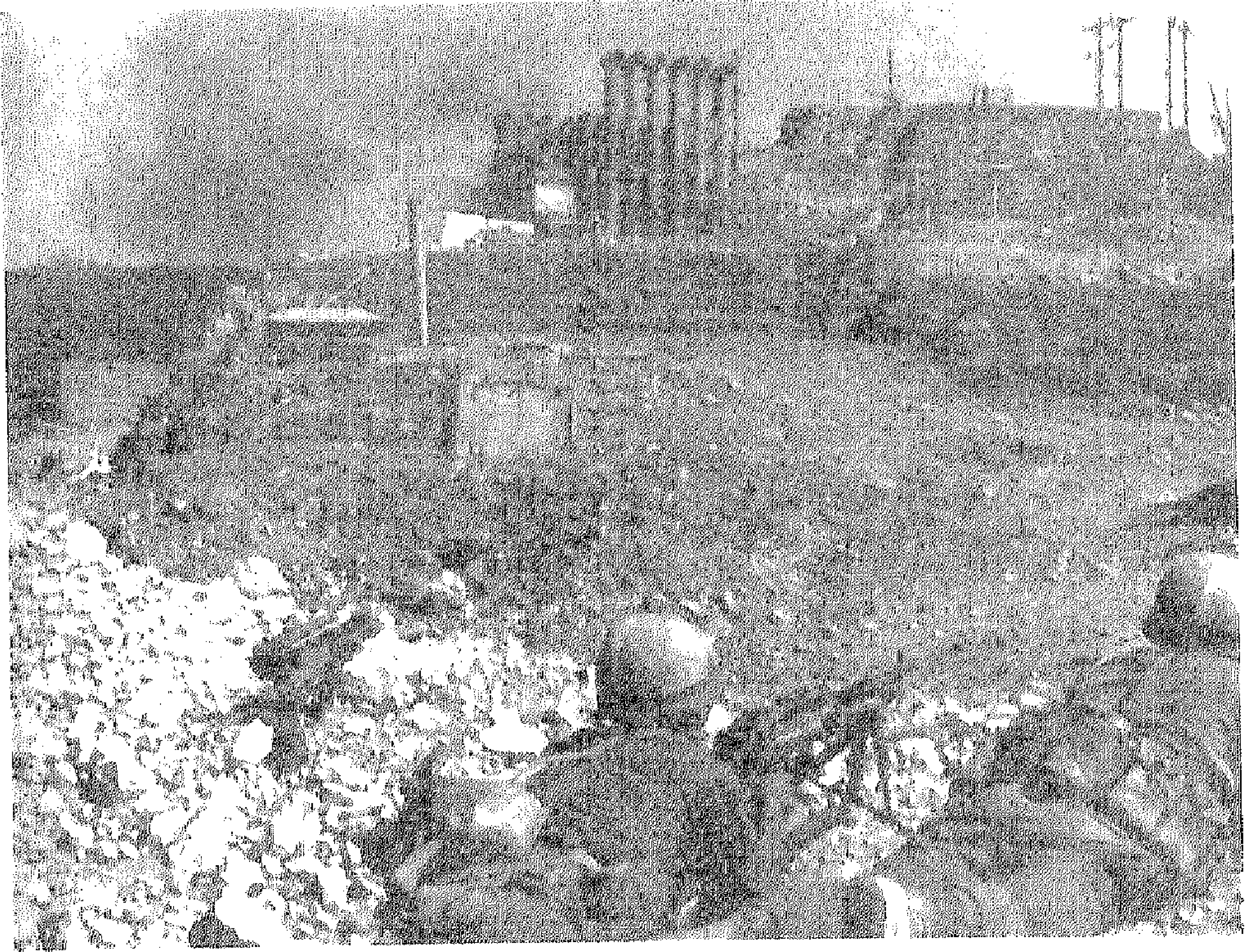
أثار قصف
إسرئيلي أمام
وزارة الدفاع
السورية



الطيران
الإسرائيلي
يقصف مصفاة
حمص التي لم
تكن محمية
بصواريخ سام،
تزويد الجيش
السوري
بالوقود
يتعثر.



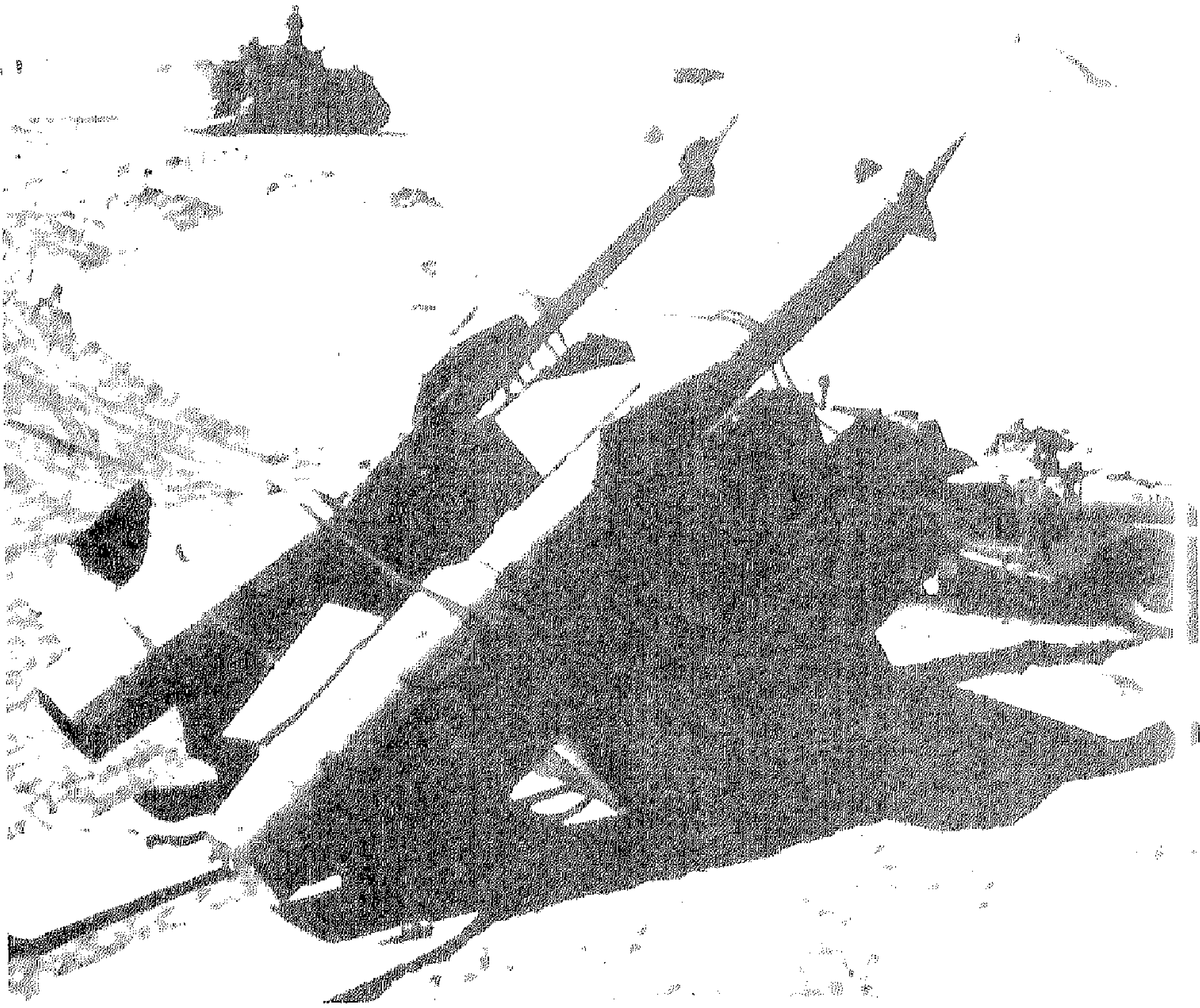
مناطق جبل حرمون لا تصلح لعمل الدبابات، الجنرال دافيد إل عازار يعتمد على المظليين والمشاة، إسرائيل تطرد فلسطينيين من مواقع أحتفظوا بها منذ عام ١٩٦٧.



من مراكز رصد في جبل حرمون الجنود السوريون يوجهون نيران مدفعيتهم تجاه الدبابات الإسرائيلية.



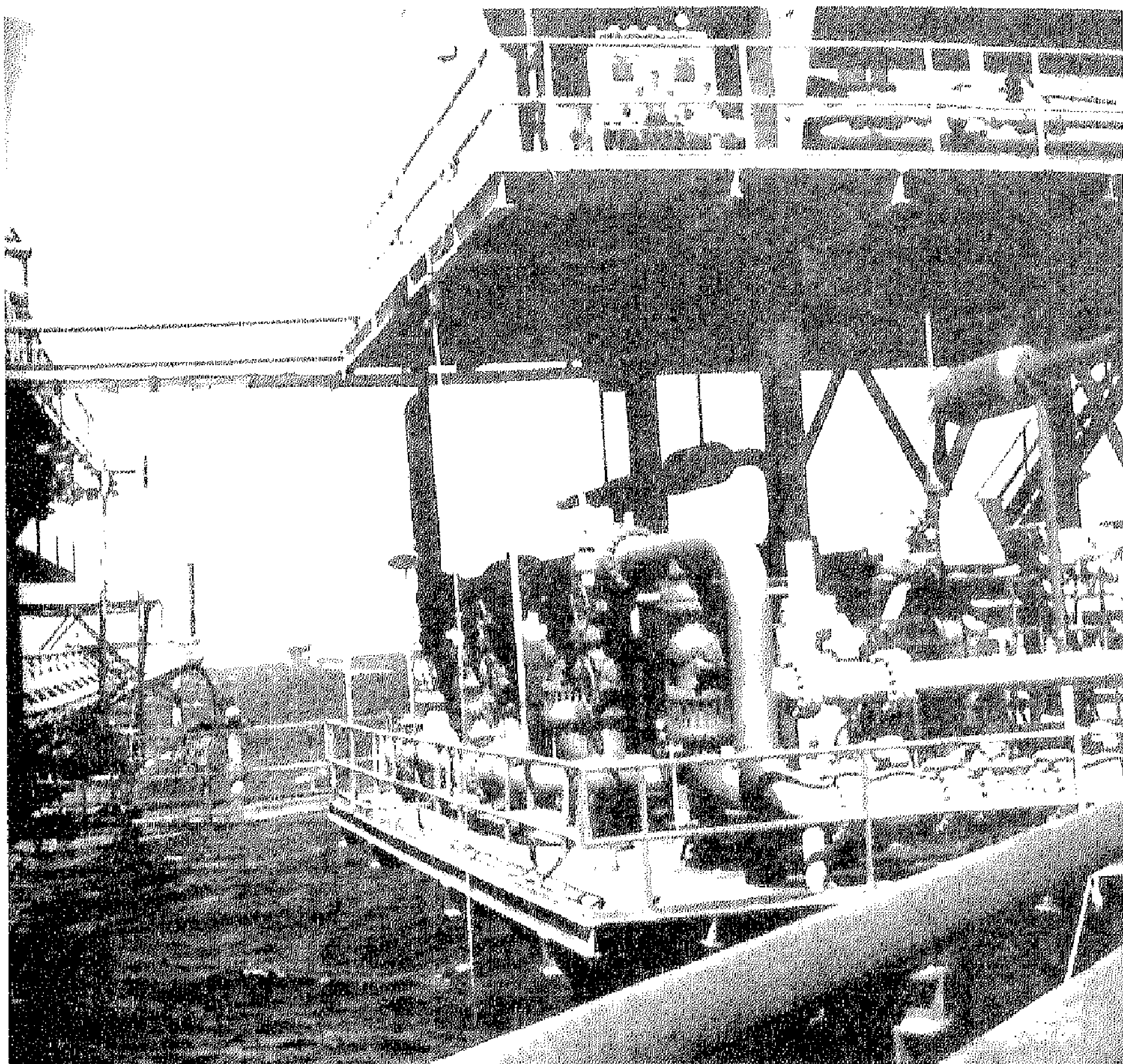
من ميناء بريميرهافن في ألمانيا الأمريكان يزودون إسرائيل بمعدات حربية رغم احتجاج الحكومة الألمانية ما أزعج الأمريكان.



المصريون يموهون صواريخ سام بأشكال مشابهة



الملك فيصل قائد حرب البترول قال: «ذكرت نيكسون بوعوده التأثير على إسرائيل دون جدوى»



مصفاة بترول على الساحل السعودي، إنتاج البترول خفض ٢٠٪.

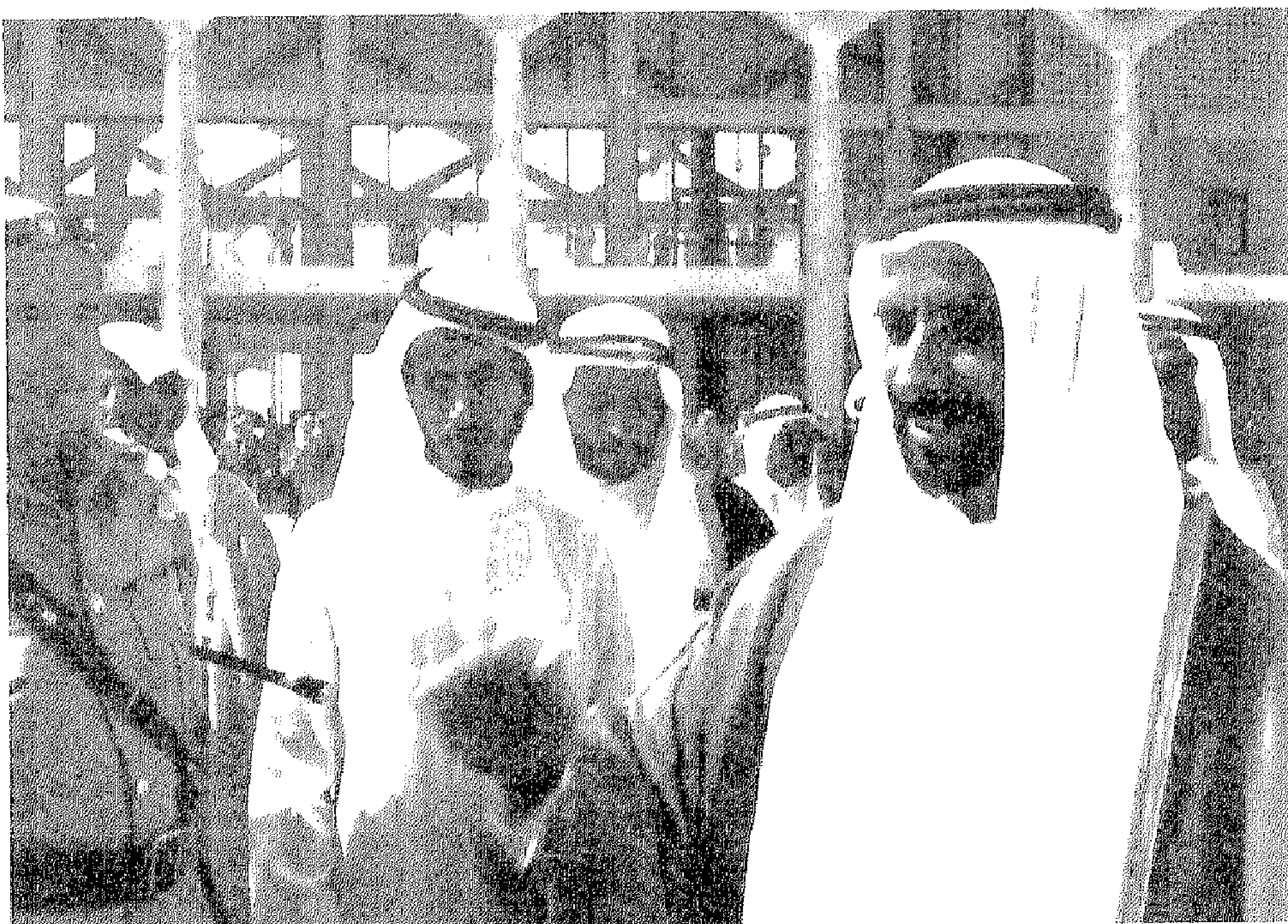


أكبر معركة دبابات في التاريخ لا تحقق نتيجة إلا بعد اكتشاف الثغرة بين الجيشين الثاني والثالث المصريين، المصريون يخدعون ويظنون أن الدبابات مصرية. إختراق الجبهة يتحقق في سيناء باتجاه الغرب.

كونتسلمان في مقابلة مع وزير البترول الليبي عز الدين مبروك.



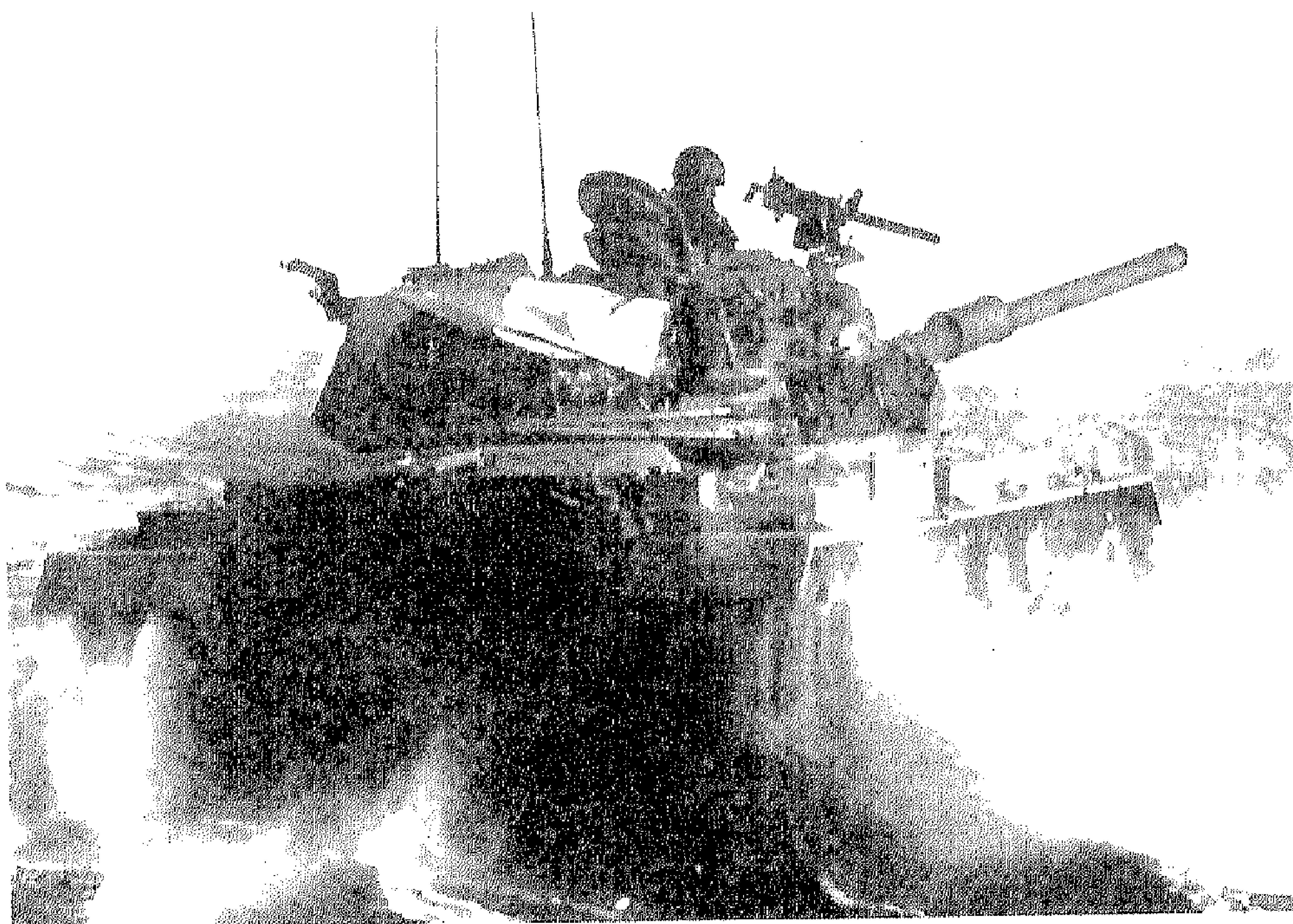
الشيخ سعيد غير راض عن خفض إنتاج البترول، الأمريكان والإنكليز أصدقاء لكن الملك فيصل يطلب التضامن.





اسرائيليون على ضفة قناة السويس عند الاسماعيلية ما لم يتوقعه المصريون.

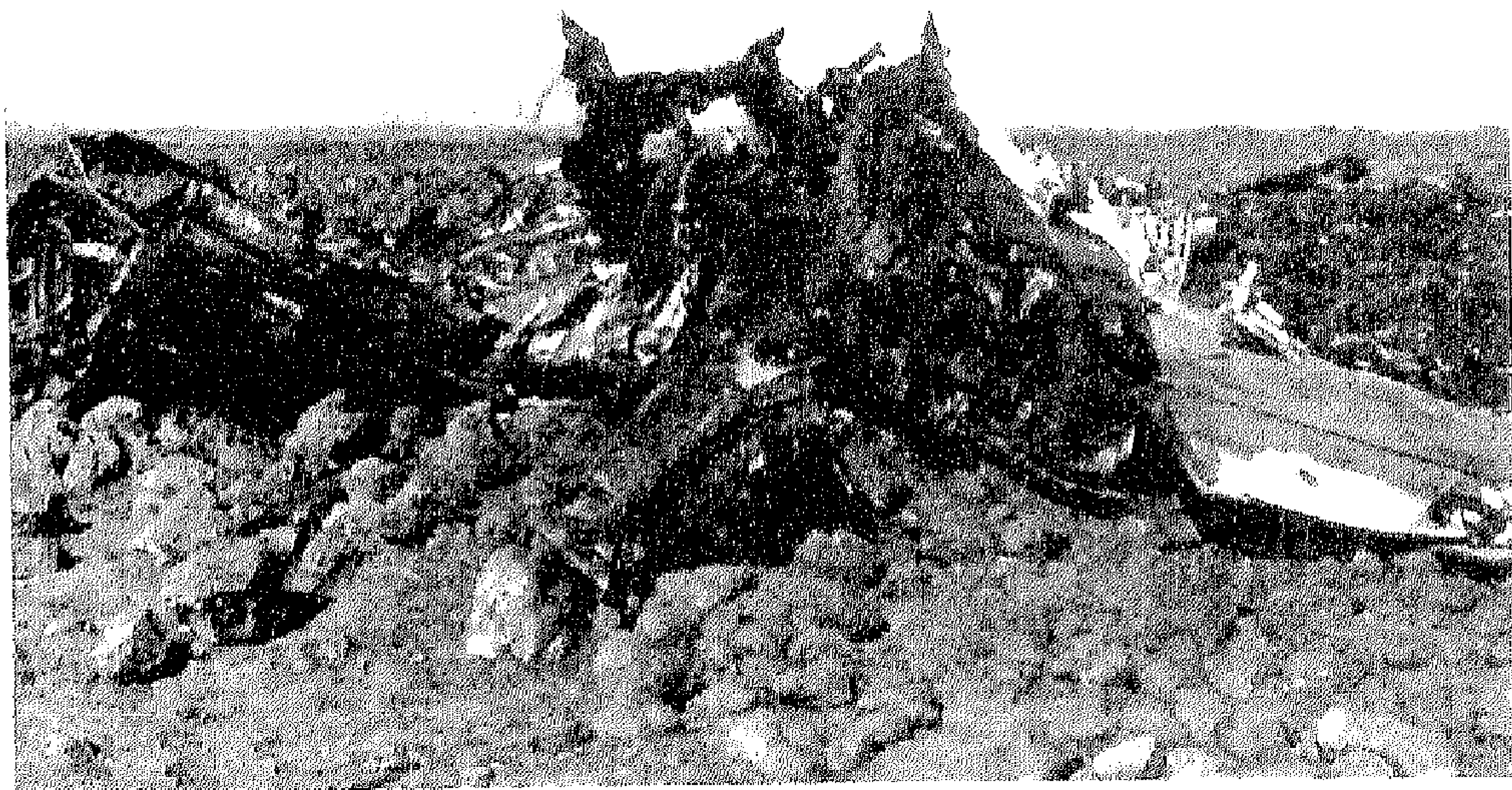






الجيش الثاني معزول عن الجيش الثالث بينما الإسرائيليون عند الاسماعيلية.





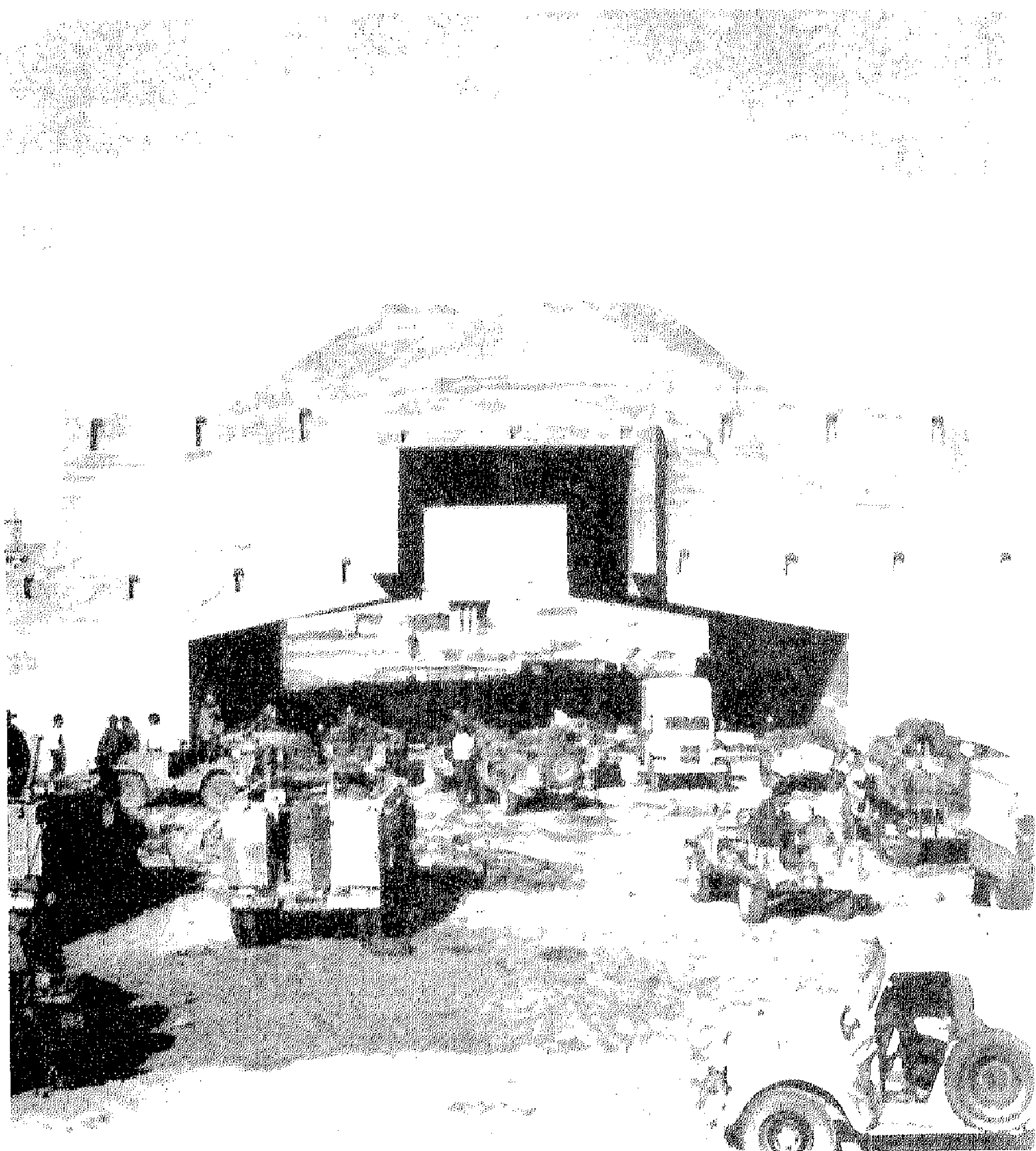
خسائر فادحة لسلاح الجو المصري بعد تعطيل صواريخ سام شقيق السادات يسقط بطائرته ويفقد حياته.



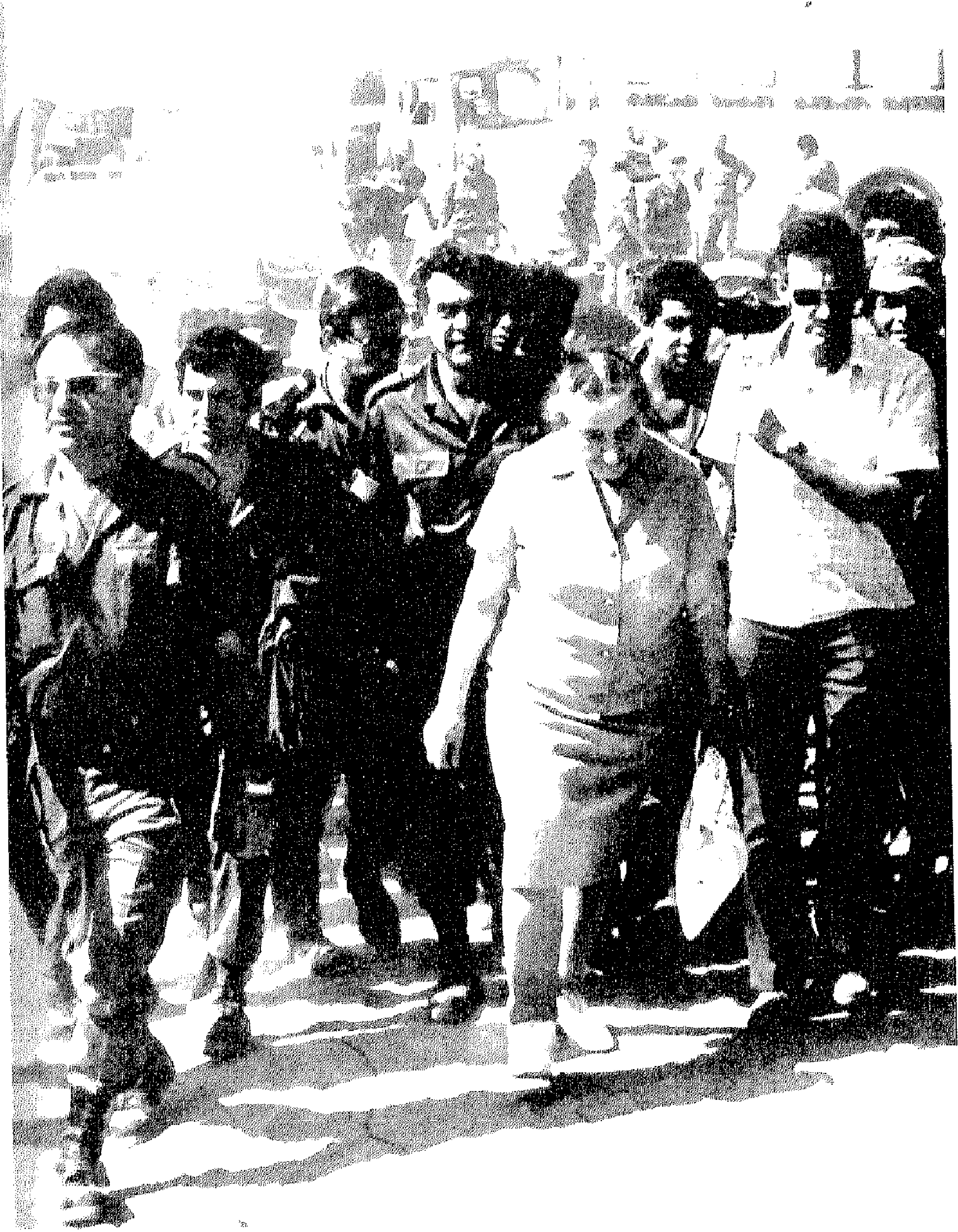
الجنرال دافيد إل عازار يتفقد سيناء على متن هليوكوبتر.



السادات بين الشاذلي وإسماعيل علي بعد حدوث الكارثة، الشاذلي يفقد ابتسامته.



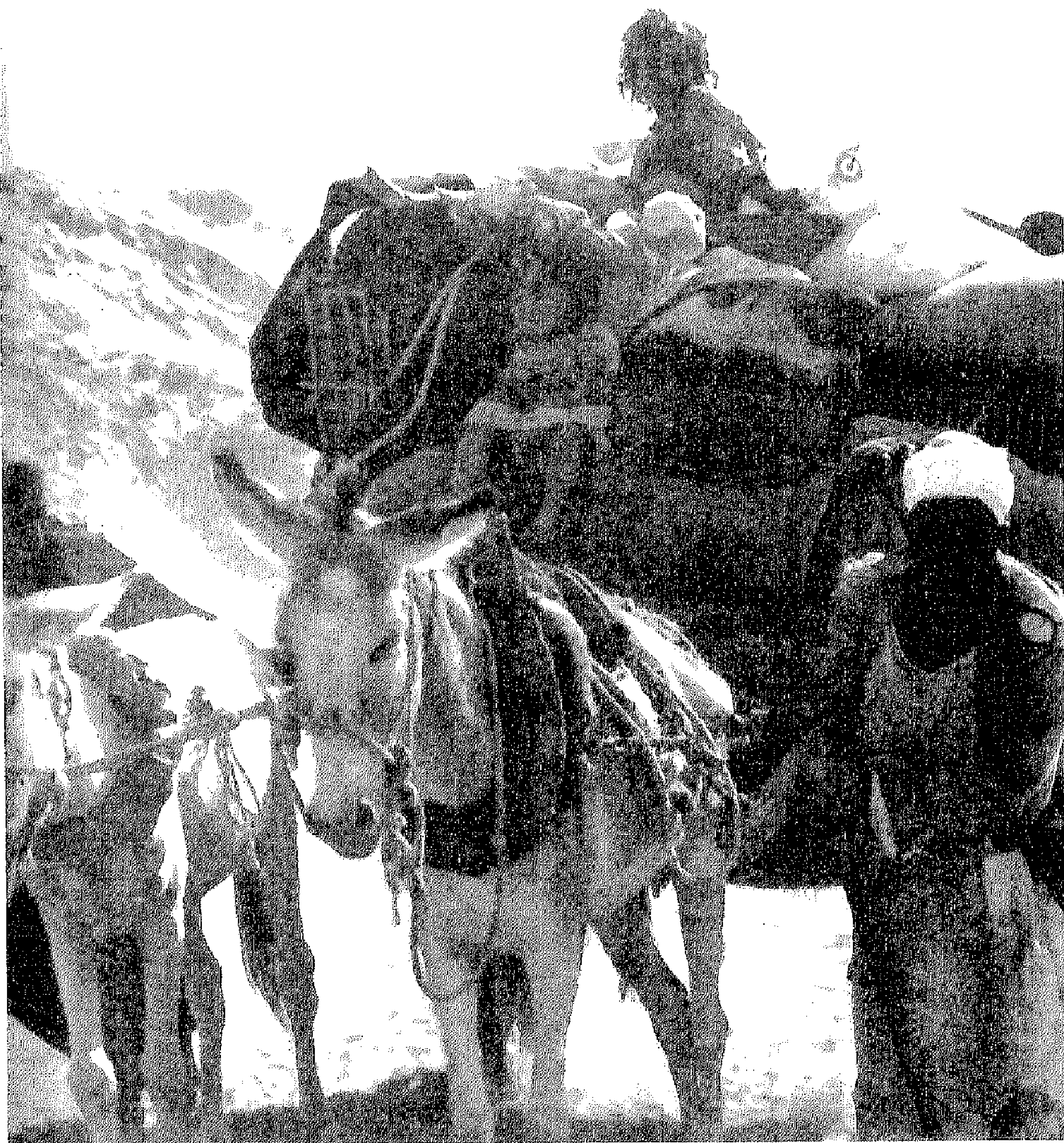
باستيلاء إسرائيل على قاعدة مطار الفايد يفقد المصريون ملجأ لطائرات ميغ.



«فيفا غولدا» تتعالا صيحات الجنود الإسرائيليين على ضفة القناة، بعد ذلك تطير غولد الى واشنطن والضغط على إسرائيل يبدأ، لا يمكنها أن تتابع زحفها.



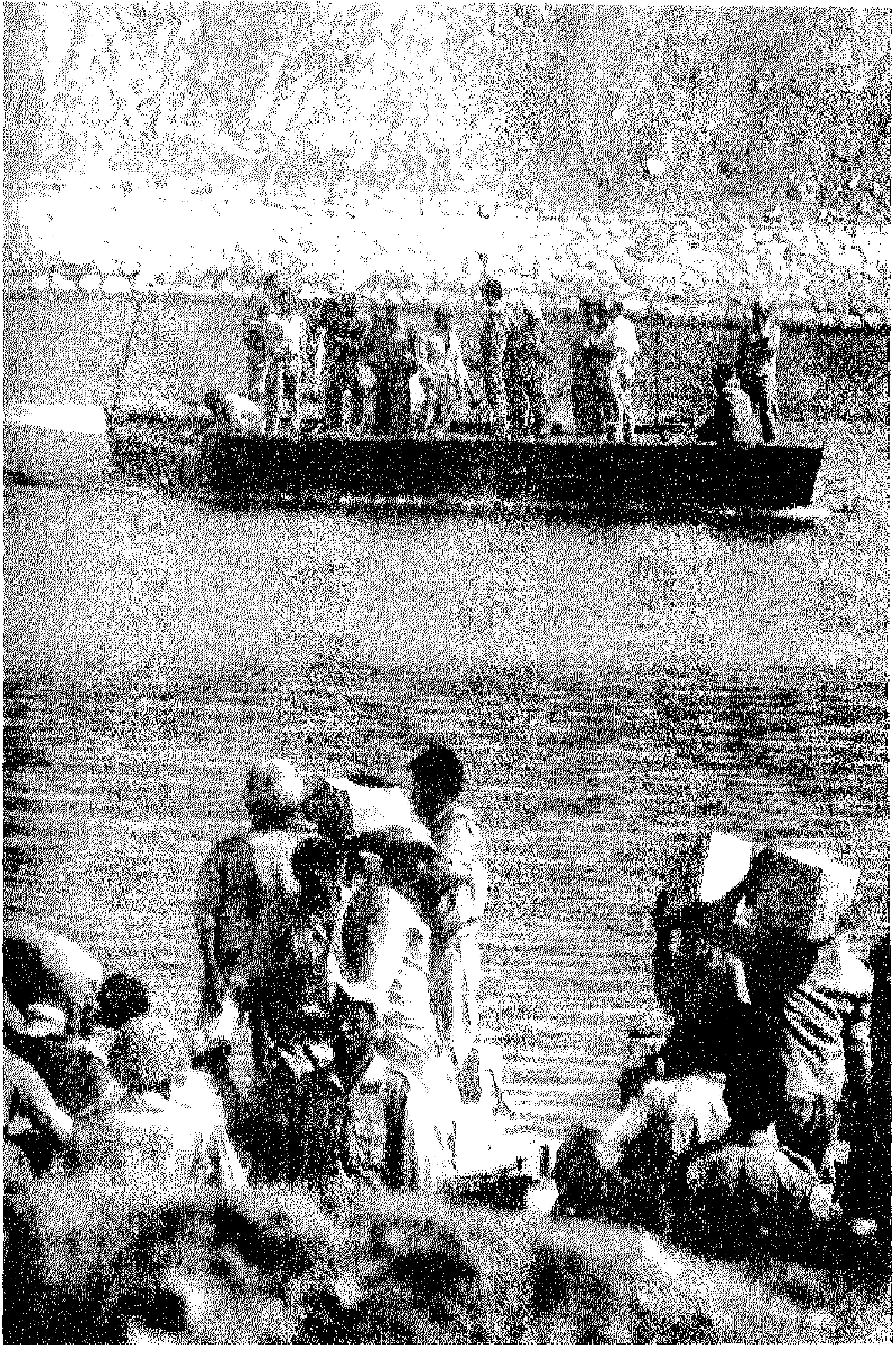
إسرائيل تسيطر على ضواحي مدينة السويس ولم تتكمن من إحتلال المدينة قبل الهدنة.



بدو يتنقلون من مكان إلى آخر ولا أحد يهتم لشؤونهم.

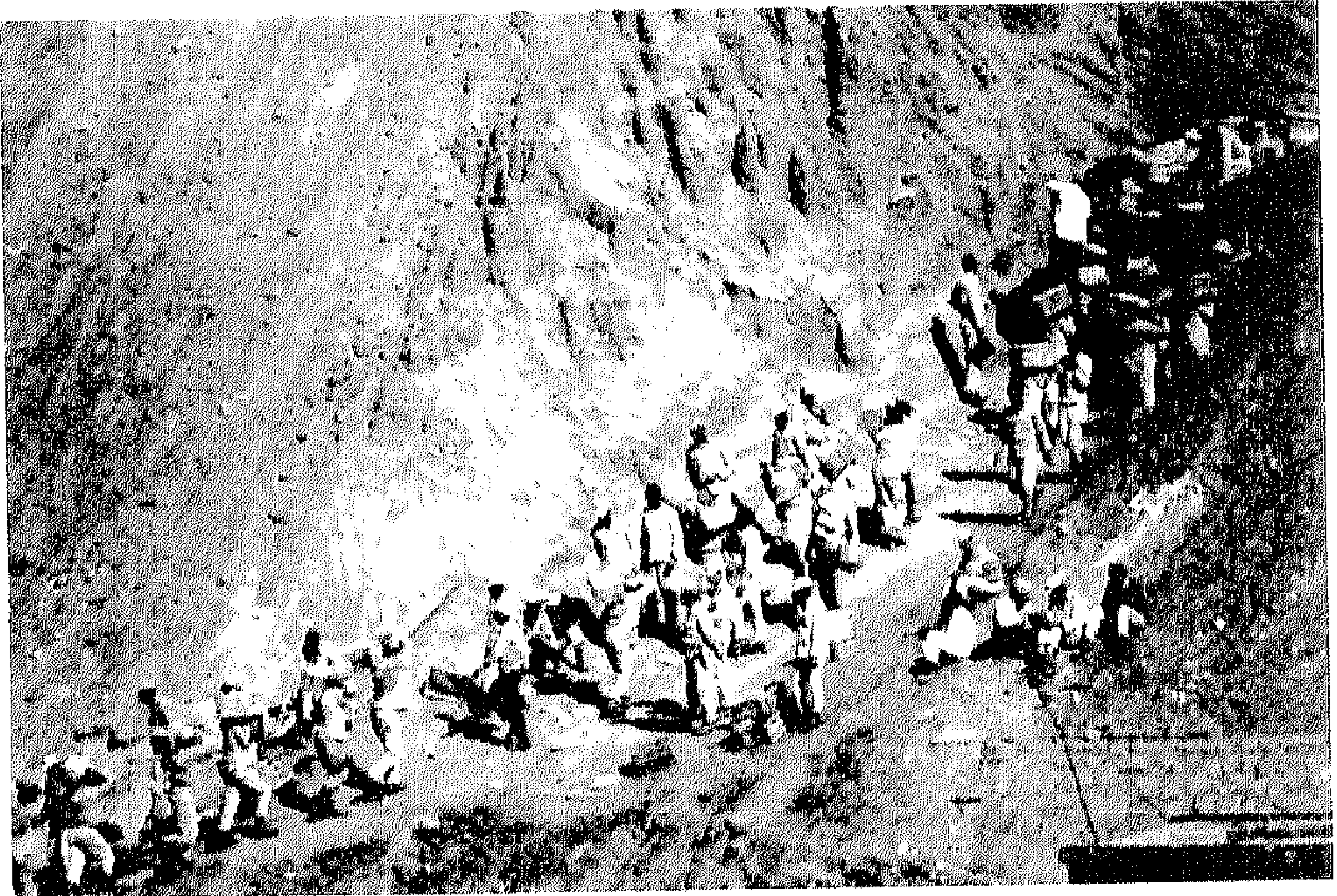
جنود إسرائيليون
ينعمون بالراحة
والاستحمام
بعد الاختراق
وبوجود هواتف.





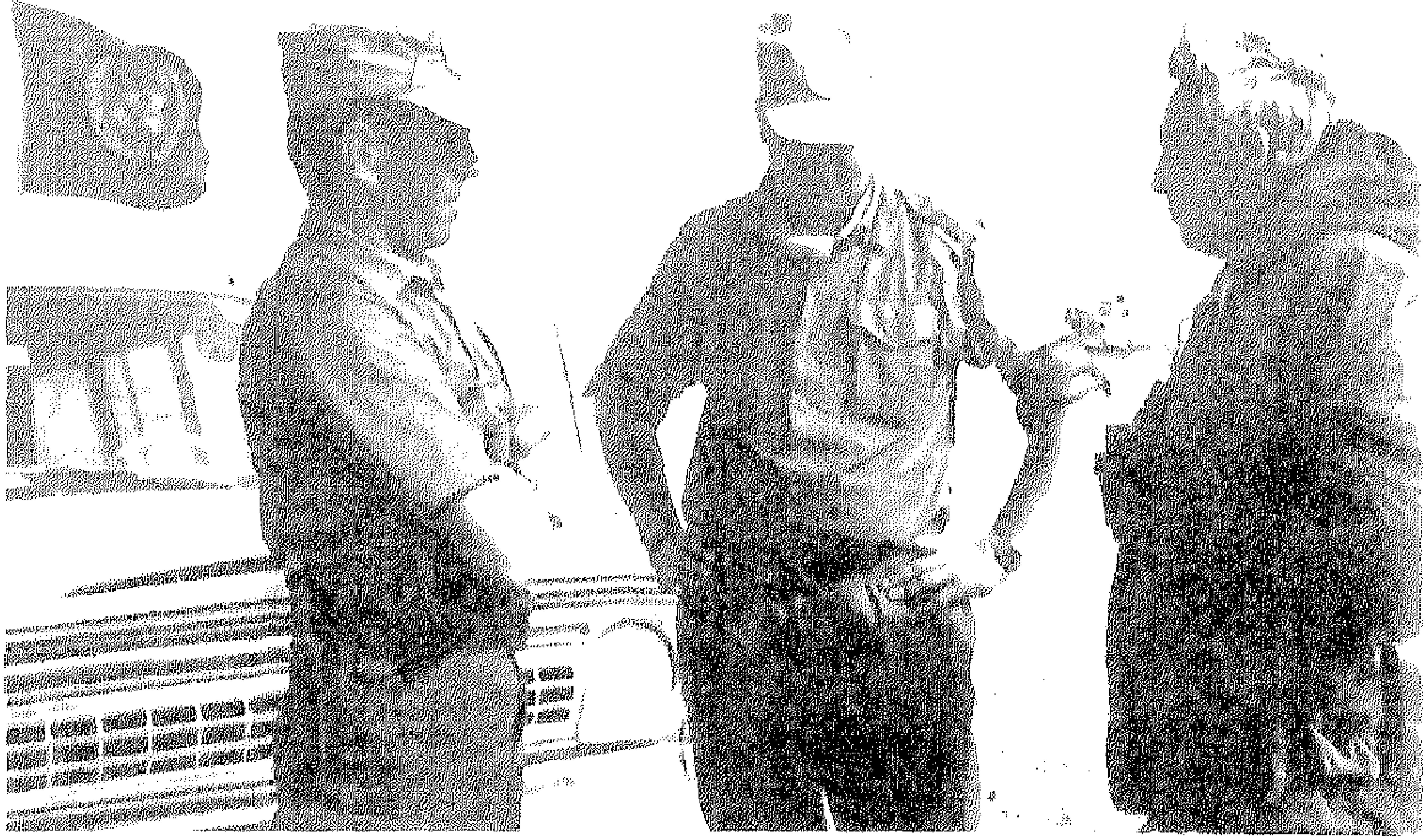


يسمح بتزويد الجيش المصري الثالث بالماء والغذاء، عشرون ألفاً محاصرون بين البحيرات المرّة والمدخل الغربي، شارون غاضب يقول: هزمناهم ونجبر على تدليلهم، لم يحدث هذا في التاريخ» .





الجنود المصريون المحاصرون يتلقون ماء الشرب بعد أيام، الجيش المحاصر يحتاج إلى ٦٠ ألف لتر ماء يومياً.



شارون غاضب أراد أن يحتل السويس ليصلح أخطاء بداية الحرب، لكن أوامر الهدنة سلبته الفرصة.



كسينجر - السادات



دايان يقول: «علينا الإنصياع للأوامر الأمريكية دون تزويدنا بالسلاح منهم لا يمكننا عمل شيء».



كونتسلمان في لقاء مع عرفات



مجلس القمة العربية في الجزائر، والملك حسين يقر بسيادة عرفات على القدس الشرقية.



حرب الأيام المقدسة.. المعركة تهدد إسرائيل

كتاب في سطور

كتاب للصحفي الألماني «جيرهارد كونتسلمان»، ترجمه عن الألمانية الدكتور خالد غادري...

هذا الكتاب يكشف الكثير من أسرار حرب تشرين ١٩٧٣، ومقاربة يلقي من خلالها الكاتب الضوء على تفاصيل معركة كادت أن تتحول إلى حرب عالمية.

الاندفاع البطولي للجيوش العربية على الجبهتين المصرية والسورية...

عبور قناة السويس واجتياح خط «بارليف» المحصن أكبر مانع أقامه العدو الصهيوني أمام الجيش المصري.

إنجازات الجيش السوري في الجولان، وقصة القتال الشرس على الجبهة السورية، عناد واستبسال الجندي السوري.. قتال حتى النصر...

قصة السلاح الأمريكي... ودخوله المعركة لإنقاذ الجيش الإسرائيلي من الهزيمة المُرَّة..

«إننا نواجه جيشاً من نوع جديد»

هذا ما صرح به مسؤول عسكري إسرا...

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق ص.ب: 34312
هاتف: 03 83 661 11 963+
تلفاكس: 15 09 666 11 963+

